هنري كوربان - يان ريشارد - بيير جون لويزار - أنطوان صفير
مارتين غزلان - آلان غريش - كونستانس أرمينجون
مكسيم فودانو - دومينيك فيدال - أدريان برياند
صابرينا ميرفان - ليلى جاسينتو - بيير مارتان

المسألة الشيعية

رؤية فرنسية

إعداد وتحرير وترجمة

د. جواد بشارة



المسـألة الشيعيـة

رؤيـة فرنسية

اسم الكتاب: المسألة الشيعية / رؤية فرنسية

المؤلف: عدة مؤلفين

إعداد وتحرير وترجمة: د. جواد بشارة

عدد الصفحات: 272

القياس: 14.5 * 21.5

2015/1000م - 1436هـ



دار ميزوبوتاميا

للطباعة والنشر والتوزيع

العراق - بغداد - شارع المتنبي

موبايل: 07905139941

E-mail: mazin774@gmail.com
Mazin24@gmail.con
hamawendi@yahoo.com

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني - دار نينوى

هنري كوربان، يان ريشارد، بيير جون لويزار، أنطوان صفير، مارتين غزلان، كونستانس آرمينجون، مكسيم فودانو، آلان غريش، دومينيك فيدال، آدريان برياند، صابرينا ميرفان، ليلى جاسينتو، بيير مارتان

المسألة الشيعية

رؤية فرنسية

La question Chiite, Vision Française

إعداد وتحرير وترجمة

د. جواد بشارة

المحتويات

مقدمة 7

الفصل الأول

قراءة في كتاب التشيع والدولة: رجال الدين أمام اختبار الحداثة 17

الفصل الثاني

من دروس مدرسة اللغات الشرقية في باريس عن تاريخ الأديان

الشيعة عبر التاريخ 25

الفصل الثالث

قراءة في الجذور التاريخية للانقسام الشيعي السني في الإسلام

رؤية غربية

الإسلام ضد الإسلام / بقلم أنطوان صفير 31

الفصل الرابع

قراءة في كتاب: السنة والشيعة لماذا يتقاتلون؟ / مارتين غوزلان 69

الفصل الخامس

من الانتداب الأول إلى الانتداب الثاني: انهيار نظام ما بعد

الاستعمار / بقلم بيير جون لويزار 89

الفصل السادس

المسألة العراقية / بقلم بيير جون لويزار 119

الفصل السابع

دردشة في باريس بين جواد بشارة والباحث بيير جون لويزار

عن العراق بعد عشر سنوات من سقوط النظام الصدامي 131

الفصل الثامن
الإسلام: السنة والشيعة، لماذا يتعارضان ويتخاصمان، منذ ألف وخمسمائة عام؟ 143
الفصل التاسع
المسلمون الشيعة العرب هم أصل التشيع / بقلم مكسيم فودانو 165
الفصل العاشر
مفاتيح الشرق الأوسط المائة / بقلم آلان غريش ودومينيك فيدال .. 173
الفصل الحادي عشر
آية الله العظمى المرجع الديني الشيعي السيد محمد حسين فضل الله رجل دين تحدى السلوكيات والنظرة المقولبة للغرب إزاء الشيعة / بقلم ليلى جاسينتو 181
الفصل الثاني عشر
جذور التعاون السني مع داعش والإخوان / د. جواد بشارة 201
الفصل الثالث عشر
السلطات الدينية في التشيع الإمامي المعاصر / بقلم: صابرينا ميرفان .. 219
الخاتمة 243
بعض المراجع المهمة عن الشيعة والتشيع بالفرنسية 249

مُقَدِّمَة

الجذر التاريخي:

إن مذهباً يثبت نفسه من كتب مخالفيه أحق أن يتبع، وإن مذهبا يحتج عليه بما في كتبه فيلجأ للتأويل والتحوير أحق أن يتجنب عنه، هذا هو شعار الشيعة للدفاع عن أنفسهم.

يقول علماء الأصول: «الحكم على الشيء فرع عن تصوره»، بمعنى أنني لا أستطيع أن أحكم على أمر من الأمور دون أن أتصوّره أو أفهمه؛ ولذلك فلا معنى للحكم على الشيعة دون أن تعرفهم، ولا معنى للإدلاء بالرأي في قضية التقريب بين السنّة والشيعة دون إدراك طبيعة كُلٍّ من الطرفين، ولا معنى كذلك لقبول أو رفض فتح باب الحديث عن الشيعة دون أن تعرف حقيقة الأمر، ودرجة خطورته، وأولويته، وعلاقته بالمتغيرات الكثيرة التي تمر بها الأمة.

الشيعة هو اسم يطلق على ثاني أكبر طائفة من المسلمين، وهم الذين عرفوا تاريخيًا بـ«شيعة علي» أو «أتباع علي». وغالبًا ما يشير مصطلح الشيعة إلى الشيعة الإثنا عشرية لأنها الفرقة الأكثر عددًا. يرى الشيعة أن عليًا بن أبي طالب هو وأحد عشر إمامًا من ولده (من زوجته فاطمة بنت النبي محمد) هم أئمة مفترضو الطاعة بالنص السماوي وهم المرجع الرئيسي

للمسلمين بعد وفاة النبي، ويطلقون عليهم اسم الأئمّة أو الخُلفاء الذين يجب اتّباعهم دون غيرهم طبقًا لأمر من النبي محمد في بعض الأحاديث مثل حديث المنزلة، وحديث الغدير، وحديث الخلفاء القرشيين الإثنا عشر، وحديث الثقلين المنقولة عن النبي محمد بنصوص مختلفة والذي يستدلّون بها على غيرهم من خلال وجوده في بعض كتب بعض الطوائف الإسلامية التي تنكر الإمامة وهو كالتالي: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما». يؤمن الشيعة أن التشيع هو الإسلام ذاته، ويتبناه الشيعة أنفسهم حيث يرون أن المذهب الشيعي أصلا لم يظهر بعد الإسلام. ويرون أن المسلم التقي يجب أن يتشيع ويوالي علي بن أبي طالب، وبالتالي فإن التشيع هو ركن من أركان الإسلام الأصيل وضع أساسه النبي محمد نفسه على مدار حياته، فعندما نزلت الآية القرآنية إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيّةِ من سورة البينة آية 7.

ورد في تفسير الطبري بأن علي وشيعته هم خير البرية فقد جاء في تفسيره الجزء الأخير من الآية ما نصه: يَقُول: مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ النّاس فَهُمْ خَيْر الْبَرِيّة.

وَقَدْ: حَدّثَنَا ابْن حُمَيْد، قَالَ: ثنا عيسَى بْن فَرْقَد، عَنْ أَبِي الْجَارُود، عَنْ مُحَمّد بْن عَلِيّ ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْر الْبَرِيّة﴾ فَقَالَ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ: «أَنْتَ يَا عَلِيّ وَشِيعَتك»[16] وأكده

قبل موته في يوم غدير خم حينما حج حجة الوداع، حيث جمع المسلمين وكانوا أكثر من مئة ألف، وأعلن الولاية لعلي من بعده حيث ورد في الحديث بعبارات مختلفة أن النبي قال: (من كنتُ مولاه فعليّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه). وكان الصحابة عندما يقدم عليهم علي بن أبي طالب يقولون: «جاء خير البرية».

الانعطافة المعاصرة:

كانت ثورة الإمام الخميني في إيران سنة 1979 قد أحدثت زلزالاً في الذهنية الغربية وانعطافة جديدة في نمط التفكير الغربي تجاه الإسلام. فلقد اكتشف الرأي العام الغربي مذهولاً فئة أو طائفة إسلامية تدعى الشيعة، ثارت وأطاحت بعرش الشاه في إيران بفعل توجيهات وكاريزما رجل الدين آية الله العظمى روح الله الخميني. ولقد أعلن هذا الأخير أنه لا مع الغرب ولا مع الشرق، أي لا مع أمريكا ولا مع الاتحاد السوفيتي، وإن ثورته تشمل العالم الإسلامي برمته، أي كانت لديه نوايا تصدير الثورة الإسلامية لباقي الدول الإسلامية. كما استشف الإعلام الغربي الدوافع الدفينة لتلك الثورة وأقنع بها الرأي العام ودوائر القرار في البلدان الغربية. واطلع الناس في الغرب على مفاهيم ومصطلحات جديدة عليه مثل آية الله العظمى، والعالم المجتهد، ومفهوم الاجتهاد، ومرجع التقليد، والمرجع الأعلى، والصراع السني الشيعي، وبرزت ملامح الصراع والتنافس على النفوذ في العالم الإسلامي بين المملكة العربية السعودية والجمهورية الإسلامية في إيران ودارت بينهما حرب طاحنة بالوكالة

في كل مكان من العالم الإسلامي، كل منهما يدعم معسكره وأتباعه بالمال والسلاح والدعاية والتأييد السياسي والدبلوماسي في المحافل الدولية. كانت بداية ذلك الصراع السياسي السني الشيعي في العصر الحديث قد تجسدت بالحرب العراقي ـ الإيرانية، التي خططت لها ودعمتها ومولتها السعودية ودول الخليج الأخرى، وأقنعت حاكم العراق آنذاك صدام حسين بخطورة إيران على العرب والمسلمين السنة، رغم أن غالبية سكان العراق، حوالي 65 بالمائة، هم من العرب الشيعة، مع وجود أقلية كردية شيعية وأقلية كردية سنية، وأقلية عربية سنية في العراق. ثم امتدت المواجهة بين الدولتين، السعودية وإيران، لتشمل سورية والبحرين ولبنان، بل وحتى في أفغانستان والباكستان والهند.

بدأ الاستقطاب الطائفي مبكراً في الإسلام وإن لم يتخذ هذه الحدة والوضوح والتبلور الذي هو عليه اليوم، وكان ذا طابع سياسي في المقام الأول، بين فئة من الصحابة كانت تمتلك طموحات قيادية وتصورات عن المرحلة التي ستعقب اختفاء صاحب الرسالة عن المشهد السياسي الدنيوي، حتى قبل وفاته، وكانت تستعد سراً لتلك اللحظة، وفئة أخرى التفت حول أحد الصحابة المتميزين وهو علي ابن أبي طالب ابن عم الرسول وصهره زوج ابنته المفضلة فاطمة، وكانوا من فقراء الصحابة والمتمسكين بنص الرسالة وتعاليمها، يسعون لنفس الهدف، ألا وهو وضع الرجل المناسب في المكان المناسب دينياً ودنيوياً وكان خيارهم هو الإمام علي. بيد أن الأمور لم تجر وفق ما يشتهيه أتباع علي ومواليه ومالت الكفة نحو الفئة الأولى، خاصة بعد أحداث سقيفة

بني ساعدة، التي أوردتها كتب التاريخ وكتاب معاصرين مثل هشام جعيط وطه حسين وغيرهم كثيرون بالتفصيل. ومع مرور الزمن تجذر الخلاف وتحول إلى خلاف عقائدي وفقهي من الدرجة الأولى وبذلك يكون الإسلام قد انقسم إلى طائفتين رئيسيتين هما الطائفة السنية الأغلبية والطائفة الشيعية الأقلية ولكل منهما تفرعات وانشقاقات داخلية تحت مسميات مختلفة. أغلق علماء السنة والجماعة باب الاجتهاد، أي إبداء الرأي في النصوص المقدسة وتفسيرها أو تأويلها واستنباط الأحكام منها، بينما تركه علماء الشيعة مشرعاً ومفتوحاً إلى يوم الناس هذا، وكان هذا الأمر يشكل أحد أشكال الخلاف الفقهي والعقائدي بين الطائفتين، وعندما نقول اجتهاد فذلك يعني ضرورة التطرق لموضوعة التقليد أي تقليد المؤمن العادي لتعاليم واجتهادات وتوجيهات وأوامر العالم المجتهد عند الشيعة، بينما يرى أهل السنة للتقليد بمثابة سرطان يسري في جسد الأمة الإسلامية وخطر كامن خاصة عندما يتحالف مع النزعة الطائفية الإقصائية. هناك بالطبع الخلاف الأول المتمثل بمسألة الخلافة والحديث عنها ذو شجون لتعقيدها وحساسيتها البالغة. حدثت قطيعة شبه نهائية بي جناحي الإسلام فعند التمعن في واقع العالم الإسلامي بالأمس واليوم، لا يلاحظ، إلا نادراً، تحول السني إلى شيعي أو الشيعي إلى سني، والتمسك بالموروث العقائدي على نحو أعمى وبلا تفكير أو إعادة نظر وتأمل حيث يعتقد كل مذهب أنه يمتلك الحقيقة المطلقة وإنه هو الوحيد على حق والبقية واقعين في ضلال، استناداً إلى حديث خطير غير موثق وربما يكون مختلقاً و موضوعاً على لسان النبي محمد وهو

حديث الفرقة الناجية. أما أخطر نقطة خلاف جوهرية شيعية مع الأغلبية السنية فهي مسألة الإمامة الإلهية، أي المنصوص عليها من قبل الله كما يعتقد الشيعة. والتي تحولت من نظرية سياسية إلى عقيدة دينية كتبت حولها الكثير من الأبحاث والدراسات والتنظيرات والتي يرفضها أهل العامة أو السنة مع إعلانهم لاحترام ومحبة آل بيت النبي حيث يعتقد علماء السنة أنها من وضع الغلاة الذي يحيطون بآل البيت وإنها لم تكن من تأليف أئمة آل بيت النبي. ويمتد ذلك إلى الاختلاف حول المهدي المنتظر الذي يعتقد السنة أنه لم يولد بعد في حين يعتقد الشيعة أنه ولد واختفى في غيبتين صغرى وكبرى لازالت الأخيرة سارية المفعول إلى اليوم وهو عندهم الإمام الثاني عشر، لذلك سمو بالإثني عشرية، وإسمه محمد بن الحسن العسكري، أولوه أهمية قصوى تكاد تعادل أهمية النبي محمد صاحب الرسالة. وباسم الإمام الغائب تفرعت الهرمية الدينية في مؤسسة المرجعية على اعتبار أن العالم والفقيه المجتهد الجامع للشرائط يمكنه أن يكون نائباً للإمام المهدي أثناء غيبته، ومن ذلك نشأ مفهوم ولاية الفقيه التي نظر لها وطبقها مؤسس الجمهورية الإسلامية في إيران آية الله العظمى روح الله الخميني واعتبر نظريته بمثابة الخروج على مبدأ وجوب انتظار ظهور الإمام المختفي منذ أكثر من 1170 سنة لإقامة دول العدل الإسلامية المفترضة والمنشودة لأنه الوحيد الذي يمكنه تأسيسها في آخر الزمان بعد شيوع الظلم والجور والطغيان نظراً لتحليه بصفة العصمة، ولا يوجد إجماع بين علماء الشيعة بشأن مبدأ ولاية الفقيه، كما لا يوافق أهل السنة على مفهوم العصمة عند أئمة آل

البيت بل ولا حتى عند النبي محمد في الشؤون الدنيوية، فقط يعتبرون النبي معصوم فيما يخص الأمور الدينية. وكما قال الشيخ أحمد الكاتب في كتابه التشيع الديني والتشيع السياسي: فإن نظرية الإمامة الإلهية لأهل البيت التي تبناها فريق من الشيعة تشكل «وقودا لا ينضب» للتفرقة بين المسلمين الذين انقسموا بسببها موضحا أن تاريخ التشيع منذ ظهوره في عهد علي بن أبي طالب زوج فاطمة بنت النبي محمد لم يحمل «أي تمايز ديني» يتعلق بالعقيدة أو شعائر الإسلام بقدر ما كان يحمل رؤية خاصة في تفسير الدين في ضوء قضايا العدل والمساواة واحترام كلمة الأمة ورفض الاستيلاء على أمورها بالإكراه، وشدد على أن أول شقاق بين المسلمين لم يكن بين الشيعة والسنة وإنما كان خلاف ذا طابع سياسي بين الجماهير والحكام الذين اغتصبوا السلطة. وأوضح الشيخ أحمد الكاتب أنه في وقت متأخر حدث خلاف بين الشيعة أنفسهم فمنهم من تمسك بالتشيع السياسي الذي استهدف به علي وابنه الحسين الثورة على الظلم وتحقيق العدل ومنهم من امن بالتشيع الديني الذي يحصر «الخلافة في الائمة من أبناء علي والحسين ويعتقد بعصمتهم وارتباطهم بالسماء حسب نظرية الامامة الالهية التي رفعها أصحابها الى مستوى العقيدة الدينية» مضيفا أن نظرية الامامة الالهية كان يفترض أن يطويها التاريخ لولا تحولها من نظرية سياسية مؤقتة الى عقيدة دينية «ملحقة بالاسلام». بمعنى آخر يعتقد كثير من الباحثين في الشأن الإسلامي أن التشيع هو أحد إفرازات الصراعات السياسية التي نشأت مبكراً في الإسلام حتى قبل وفاة النبي محمد، ومن ثم تجذر نتيجة تفاقم

الجدال الكلامي والصراع الفكري لاحقاً. يعتقد غالبية المسلمين أن النبي توفي ولم يترك وصية أو يسمي أحداً ليحل مكانه ويكون خليفته في حين يعتقد الشيعة على العكس من ذلك، أي أن النبي اختار خليفة له بأمر مباشر من الله ليكون قائداً دنيوياً وإماماً دينياً للمسلمين وهو علي بن أبي طالب حسب نصوص وأحاديث كثيرة يستندون عليها والتي باتت في نظرهم قاطعة لا يرقى إليها الشك وركائز صلدة للعقيدة الشيعية. أما الرعيل الأول المؤسس لتيار التشيع داخل الإسلام والملتفين حول علي بن أبي طالب فهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله بن عباس، والزبير بن العوام الذي انقلب على علي فيما بعد في حرب الجمل،، عقيل بن أبي طالب، سلمان الفارسي، المقداد بن الأسود الكندي، أبو ذر الغفاري، عمار بن ياسر، حذيفة بن اليمان، والبراء بن عازب،، خزيمة بن ثابت، أبو أيوب الأنصاري، مالك بن الحرث الأشتر، مالك بن التيهان الملقب بأبو الهيثم، هاني بن عروة، أبي بن كعب، سعد بن عبادة، وإبنه قيس بن سعد بن عبادة، عدي بن حاتم الطائي، عبادة بن الصامت، هاشم بن عتبة، عثمان بن حنيف وأخيه سهل بن حنيف، خالد بن سعيد بن العاص، حجر بن عدي، عمر بن الحمق الخزاعي، جابر بن عبد الله الأنصاري، محمد بن أبي بكر، أبان بن سعيد بن العاص، زيد بن صوحان العبدي، وغيرهم كثيرون، لكنهم لم يشكلوا الأكثرية من بين الصحابة عند وفاة صاحب الرسالة لذلك خسروا الصراع وفاز به جماعة أبو بكر وعمر بن الخطاب ومن التف حولهم، وكانت عائشة بنت أب بكر من أعنف واشد المعارضين لعلي بن أبي طالب.

ولقد أعلن عدد من المستشرقين عن آرائهم بالمسألة الشيعية ونشأت التشيع: قال المستشرق فلهوزن: «كان أغلب سكان العراق في عهد معاوية، خاصة أهل الكوفة، من أنصار علي وينطبق ذلك على الأفراد والقبائل ووجهاء العرب. في حين قال المستشرق غولدتسيهر: «إن من الخطأ القول بأن التشيع في نشأته ومراحل نموه يمثل الأثر التعديلي الذي أحدثته أفكار الأمم الإيرانية في الإسلام بعد أن اعتنقته، أو خضعت لسلطانه عن طريق الفتح والدعاية والتبشير، فهذا وهم شائع مبني على سوء فهم الحوادث التاريخية فالحركة العلوية عربية المنشأ والتشيع نشأ عربياً وفي أرض عربية بحتة، ونفس الرأي تبناه المستشرق آدم ميتز.

د. جواد بشارة / باريس

ديسمبر ـ كانون الأول 2014

الفصل الأول

قراءة في كتاب

التشيع والدولة: رجال الدين أمام اختبار الحداثة

هل يسير النظام الإيراني ضد تيار الحداثة، على ما يفكر البعض بشكل عام عادة؟ كيف يمكن فهم وإدراك الدمج القائم بين السلطات الدينية والسياسة، الذي تمأسس في إيران على يد المرشد الولي الفقيه؟ هذه المسألة العقائدية والمؤسسية هي موضوع الدراسة، التي تتجاوز مظاهر التناقضات بين الديني والسياسي، إلى التجديد الذي غير المسبوق في التشريع وللفكر الشيعيين.

يشكل دستور عام 1979، في هذا السياق، مرحلة مهمة وذات دلالة عميقة، ففي أي إطار يجب تطبيق عمل المشرع الديني؟ وهل يملك هذا المشرع الفقيه نفس سلطات النبي والأئمة الشيعة؟ وهل السلطة والسيادة متجذرتين عند الشعب؟ هذه أمثلة من المسائل والمفاهيم المطروحة للنقاش، التي تناولها الباحث الإيراني كونستانس آرمينجون هاشم، في أطروحته العلمية التي نشرت في كتاب صدر عن منشورات (المركز القومي للبحوث العلمية CNRS) في باريس باللغة الفرنسية تحت عنوان (Chiisme et É-;-tat: Les clercs à l'épreuve de la modernité)، أو ما يمكن ترجمته بالعربية

(التشيع والدولة: رجال الدين أمام اختبار الحداثة). وهاشم هو أستاذ في مدرسة الدراسات التطبيقية العليا، ويواصل دراساته وأبحاثه عن التيارات الفكرية والمؤسسات الدينية للإسلام المعاصر، وعلى نحو أخص، مظاهر أو جوانب الحداثة الدينية والسياسية للفكر الشيعي.

باسم الإخلاص للإسلام، طالب آية الله العظمى، روح الله الخميني، بكامل السلطة التي مارسها باسم الإسلام النبي محمد وأول إمام للشيعة، وهو الإمام علي بن أبي طالب، بحجة أن ذلك هو العلاج الضروري، حسب ادعاء الخميني، لمواجهة دنيوية (أو علمانية) المجتمع. ومن ثم، لا بد من فرض ولاية الفقيه، التي تكرس صلاحية رجل الدين الشيعي الفقيه لممارسة السلطة السياسية، وأن تكون بيد المرجع الديني، وهو مصدر التقليد في الفكر الشيعي. والحال أن قيادة رجل الدين للحكومة يسير بالعكس من العقيدة الشيعية التقليدية وموقفها من السلطة السياسية الدنيوية، لأنها تعتقد أن الإمام المعصوم هو الوحيد الذي يحق له ممارسة سلطة الحاكم الدينية والدنيوية معاً، إذ من شأن هذا التحول العقائدي أن يشل طبيعة عمل المؤسسة الدينية الشيعية ويسلبها سلطتها الدينية البحتة المتمثلة بالمرجعية الدينية الشيعية المتميزة بالتعددية والاستقلالية عن سلطة الدولة الدنيوية.

قام الإمام الخميني بثورة عقائدية ودينية حقيقية بمناقضته لهذه المسلّمة التشريعية الفقهية الشيعية التقليدية، فلقد أحدث مؤسس الجمهورية الإسلامية الإيرانية بتجديده هذا نوعاً من ازدواجية الوظيفة داخل المؤسسة الدينية، فولاية الفقيه تتداخل مع

المرجعية دون أن تلغيها فيما لو مورست من نفس الشخص عندما يكون هو المرجع الأعلى والولي الفقيه في نفس الوقت، لكن الإشكال يبدأ عندما يكون الولي الفقيه ليس هو المرجع الأعلى أو من المراجع العظام، فالجانب الثوري لمفهوم ولاية الفقيه ومقاومة المرجعية التقليدية له خلق ما يشبه الانشقاق في القيادة الدينية الشيعية، فهناك مراجع يؤيدون ولاية الفقيه وهناك مراجع آخرون لا يقلون أهمية ومكانة، إلا أنهم لا يؤيدون ولاية الفقيه بل يعارضونها ويعتبرها البعض منهم بدعة وتحريف للنهج الشيعي التقليدي. لذا، لا بد من التدقيق في المبادئ الفقهية والتشريعية لنظريات السلطة ولما يترتب على كون رجل الدين الشيعي هو الذي يقود الحكومة الدنيوية سياسياً في المرحلة المعاصرة ونزوعه نحو الحكم الشمولي والديكتاتوري.

لقد نشأت ازدواجية تنافسية داخل السلطة الدينية الشيعية، فبعض المراجع يعترض على ذلك وينكر وجود ازدواجية في الصلاحيات ويعتبرهما مكملين لبعضهما البعض، بينما يرى مراجع كبار آخرون أن ممارسة السياسة والحكم تفسد رجال الدين وتسيء للدين، لأنهم غير معصومين وسيغرقون في آثام السلطة الدنيوية ومغرياتها ويرتكبون الأخطاء باسم الدين لأنهم سيحكمون باسم الدين.

وبالنظر إلى التطورات الدستورية والمؤسساتية التي حدثت في الجمهورية الإسلامية الإيرانية التي تدار وفق مبدأ ولاية الفقيه، وتجذر التقاليد في مؤسسة المرجعية التقليدية التي تنأى بنفسها عن السياسة والسلطة الدنيوية، حاول البعض التمييز بينهما بأن

اعتبر الأولى مؤسسة سياسية بحلة دينية والثانية مؤسسة دينية يمكن أن يكون لها صبغة سياسية ولكن ليس بصورة مباشرة أو رسمية. وحتى داخل المرجعية التقليدية الشيعية التعددية هناك اختلافات حسب شخصية المرجع وقوته ومكانته التي تمنحه سلطته الروحية على أتباعه ومقلديه أي أن لديه سلطة معنوية، فالمرجع في العراق قوي على سبيل المثال وأحياناً أقوى من السلطة السياسية المنتخبة، في حين نجد العكس بالنسبة للمراجع الكبار في إيران الذي تطغوا عليهم سلطة الدولة وسلطة الولي الفقيه الذي أعلن نفسه مرجعاً دون أن يمتلك بالضرورة المؤهلات اللازمة لذلك.

لم يحدث تعمق أكاديمي في دراسة تطور الفكر السياسي الشيعي ما عدا بضعة دراسات جادة قام بها أحمد الكاتب، وبعض المحاولات الخجولة لرجل الدين كمال الحيدري الذين تناولوا موضوع النظرية السياسية الشيعية في أعقاب هيمنة وفرض تطبيق صيغة الإمام الخميني وعقيدته في الولي الفقيه بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، بيد أن المشكلة كانت مطروحة للنقاش قبل نشوب الثورة الإسلامية، إذ أحدثت هذه الأخيرة انعطافه حاسمة ومؤثرة وعميقة في تأريخ التشيع والعلاقة بين العقيدة والسلطة عند الشيعة. كانت سياسة التحديث والحداثة للمجتمعات الإسلامية الشيعية في إيران والعراق ولبنان ومنافسة الأيديولوجيات الدنيوية المعاصرة كالقومية والشيوعية أضعفت سلطة المؤسسة الدينية التقليدية وبدأت بوادر التراجع في سلطة المرجعية الشيعية منذ وفاة المرجع الديني الشيعي الأعلى لكل شيعة

العالم آية الله العظمى البروجوردي سنة 1961، حيث حدثت مراجعة شاملة وعميقة ولكن صامتة وخفية داخل كيان المرجعيات الشيعية في كل مكان وبرزت دعاوى التطوير والتحديث في هيكليات المرجعيات التقليدية وإدخال المناهج الحديثة في صلب دراساتها وتطوير الرؤية العقائدية والتشريعية لها والتي تتوجت بإعلان أول دولة دينية - دنيوية شيعية في تأريخ التشيع والتي دشنت مرحلة جديدة في تطور القوانين والتشريعات الإمامية.

كانت الطائفة الشيعية الاثنا عشرية، في مرحلة حضور وحياة الأئمة من سلالة النبي، تعتبر أنهم يمثلون السلطة الشرعية الإلهية والدنيوية في آن واحد لأنهم يواصلون ويربطون خط النبوة المعصومة بخط الإمامة المعصومة في ممارسة السلطة الدنيوية إلى جانب سلطتهم الدينية الطبيعية الممنوحة لهم من الله. ولكن، بغياب الأئمة، انقطعت الصلة بين الديني والدنيوي، فواصل الفقهاء ورجال الدين والمراجع الشيعة ممارسة السلطة الدينية، وتُركت السلطة الدنيوية إلى السياسيين الحداثيين، حتى جاء الإمام الخميني وأعلن قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية، على الرغم من تحفظ أو معارضة أغلب المراجع الكبار في مؤسسة المرجعية الشيعية في قم والنجف.

أسس الخميني سلطة موازية للمرجعية التقليدية المحافظة هي مؤسسة ولاية الفقيه الثورية التي يفترض أن يرأسها ويقودها رجل دين مرجع أيضاً، وهي التي وضعت نظرية جديدة لسلطة الدولة، وصفتها بالسلطة الثورية الإسلامية. من هنا، يمكننا القول إن تأسيس الجمهورية الإسلامية الشيعية في إيران كان مزعزعاً

لعمل ووظيفة ودور المؤسسات الشيعية الدينية ولتطورها العقيدي، مما حدا ببعض المرجعيات الى ممارسة دور الوصي والراعي أو المشرف عن بعد للمؤسسة الحكومية التي تقودها أحزاب دينية إسلامية شيعية كما في العراق، من دون الحاجة لممارسة السلطة السياسية الدنيوية بشكل مباشر.

يقع الكتاب في 520 صفحة. وقد نشر أواسط سنة 2013، وكرس لمناقشة العلاقة بين سلطة المرجع الدينية والسلطة الدنيوية. وقد تركزت محاوره على تأكيد دور العلماء في ممارسة السلطة كسيرورة دنيوية، حيث فرضت غيبة الإمام الثاني عشر ضرورة وجود الرعاية والإشراف على شؤون الأمة وتبني مذهب التشيع كدين رسمي للدولة الإيرانية ومأسسة التشيع وتوسيع السلطة الدينية في العهد القاجاري وبروز مؤسسة المرجعية وحدوث الثورة الدستورية الأولى واكتشاف نمط آخر من السلطة، كما تناول موضوع التحدي الدنيوي للسلطات الدينية وعلاقة الدولة المركزية بالسلطة الدنيوية وانتشار المبادئ الاجتماعية السياسية بصيغتها الدنيوية وأسس التجديد الدولتي وتهديد السلطة الدينية من نظام الدولة الدنيوي وأدلجة الإسلام وتسييس رجل الدين وتحديث المؤسسات الدينية ومناقشة مسألة هل الذي حصل كان إصلاحاً أم ثورة، ثم عالج إقامة النظام الإكليركي الديني في إيران وتبعاته الدستورية والمؤسساتية، وعلى رأسها صياغة دستور للجمهورية الإسلامية وازدواجية مؤسسة السلطة الدينية. وتعمق الكتابُ في عملية انطلاق نظريات الدولة والحكم وتعددية الحداثات السياسية الشيعية وحدوث ثورة داخل التشريع الشيعي

وثورة في عقيدة السلطة عند الشيعة وانتشار نظريات الدولة وتطوير تعددية للتحديثات السياسية الشيعية. وكذلك ألقى الضوء على مثابرة ازدواجية مؤسسات السلطة الدينية من خلال التنافس على السلطة بين المرشد الكاريزمي ومقاومة المرجعية التقليدية به، والسعي نحو الفصل بين ولاية الفقيه والمرجعية ونشوء أزمة الشرعية الدينية لنظام السلطة الإيرانية بعد وفاة الخميني، كما بحث الكتاب بعمق نظامي السلطة الدينية وثنائية السلطة الدينية والتنافس بين مرشد الدولة والمرجعية، ودراسة تصنيف مراجع التقليد. وكذلك درس العلاقة بين الحداثة وتوسيع مجال السلطة، وإدامة المؤسسات، وقدم حصيلة لعملية إصلاح المرجعية وإعادة تحديد وتعريف دورها وتوسيع مجال السلطة الدينية ونقد المؤسسات والدعوة للانفتاح، ثم اختتم برؤية تحيط بكل ما تم دراسته وآفاقه المستقبلية وإمكانيات التكيف الماثلة أمام الدولة الدينية الثيولوجية في مواجهة عصر الحداثة والحياة العصرية ومتطلباتها وتحدياتها.

إنه سفر ممتع وغني وعميق عن العلاقة بين الدين والسياسة وعن آفاق العلاقة بين الدولة الدينية والدولة العصرية.

الفصل الثاني

من دروس مدرسة اللغات الشرقية
في باريس عن تاريخ الأديان

الشيعة عبر التاريخ

Leçon 11: Le Chiisme à travers L'Histoire

أصدر خبراء غربيون في تاريخ الأديان عدة نظريات لشرح وتوضيح أصول التشيع وأسباب ظهوره، إلا أن العديد من تلك النظريات دمغت بالطابع الذاتي أو التحيز، فالبعض يعتبر أن التشيع ظهر بعد وفاة النبي، وعلى وجه أدق، في اللحظة التي اجتمع فيها جزء من أصحابه للتداول في مسألة خلافته في قيادة الأمة. فلقد امتنع عدد من المهاجرين والأنصار عن إعطاء البيعة لأبي بكر في أعقاب إنفضاض اجتماع السقيفة الشهير وإعلان أبي بكر خليفة للمسلمين كأمر واقع على المسلمين إطاعته ومنحه البيعة، في حين أبدى قسم من الصحابة رفضهم وأعلنوا انحيازهم لعلي بن أبي طالب وتفضيله على أب بكر، وكان من بينهم صحابة بارزون ومقربون من النبي من أمثال العباس بن عبد المطلب عم النبي، والفضل ابن العباس، والزبير ابن العوام، وخالد ابن سعيد، والمقداد ابن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار ابن ياسر،

والبراء ابن العازب، وأبي ابن كعب. وغيرهم. بينما أصر بعض الباحثين الغربيين على أن التشيع ظهر إبان خلافة علي ابن أبي طالب، في حين يعتقد آخرون أن التشيع ظهر كاتجاه أو جناح في الإسلام إبان خلافة عثمان ابن عفان. وهناك فئة من المتخصصين الغربيين يعتقدون أن التشيع، كطائفة واتجاه فكري ومذهبي متميز، تأسس على يد الإمام جعفر الصادق أحد أحفاد الإمام علي وهو الإمام السادس عند الشيعة. وهناك قلة من غير المطلعين جيداً على التراث الإسلامي، ممن يعتقدون أن التشيع اختلقه الإيرانيون أو الفرس للانتقام من العرب وبالتالي فهو لم ينشأ إلا لأسباب سياسية. والبعض يعتبر التشيع ملازم للمجتمع الإسلامي وينتشر وفق إيقاع التطورات التي تحدث في داخل المجتمع الإسلامي، لا سيما السياسية والعقائدية والفكرية والفلسفية والفقهية والاقتصادية، على مر العقود.

أما الأطروحة الأكثر تطرفاً بهذا الصدد والتي انتشرت واعتبرت الصيغة الرسمية في نظر المسلمين من غير الشيعة، فهي التي تقول إن التشيع جاء نتيجة لشيوع أفكر شخصية غريبة، وربما تكون وهمية مختلقة، أطلقوا عليها إسم، عبد الله ابن سبأ.

لقد ساهم النقد العلمي المعاصر ومناهج فحص النصوص والتدقيق في صحتها ومصداقيتها، في كشف ضعف هذه الأطروحة المعادية للشيعة، واثبت باحثون حياديون أن شخصية عبد الله ابن سبأ ابتكرها أعداء التشيع للنيل من الشيعة ونزع المصداقية عن ادعاءاتهم وطروحاتهم.

لقد كتب الدكتور طه حسين المفكر المصري الكبير: لقد ثبت

إهمال المؤرخين الجادين لموضوع السبأية وابن السوداء، وهو إسم آخر لعبد الله ابن سبأ، عند تطرقهم لمعركة صفين، مما يثبت أن الفكرة نشأت متأخرا، عندما نما النزاع بين الشيعة وباقي الطوائق أو المذاهب الإسلامية، فحاول خصوم الشيعة إدخال عنصر يهودي في أفكار التشيع للمس بنصاعة انتمائه للفكر الإسلامي الأصيل. فلو كان لشخصية ابن السوداء أو عبد الله ابن سبأ وجود حقيقي أو واقع ووجود تاريخي، لكان من الطبيعي والمنطقي ذكر نشاطه ودوره وتأثيره الملموس في هذه المعركة المعقدة التي حدثت في موقع صفين، ولوجدنا لها أثراً في الخلاف الذي نشب بين أتباع علي ابن أبي طالب في أعقاب التحكيم والجدال بشأن الحاكمية في الإسلام وانشقاق الخوارج عن جيش الإمام علي.

كما كتب الدكتور والباحث محمد كرد علي: إن ما يشير إليه بعض الكتاب بخصوص أصل التشيع باعتباره بدعة أدخلها عبد الله ابن سبأ المعروف باسم إبن السوداء، لهو محض خيال ودليل دامغ على جهلهم بالعقيدة الشيعية الحقيقية.

فمهد التشيع نشأ في الحجاز مسقط رأس الإمام علي وهذه الشخصية الوهمية لا وجود لها ولا قيمة لها في النصوص الشيعية المعتبرة. لكن المناوئين لهم، وهم الأغلبية الساحقة، نجحوا في بث وترسيخ هذه الشخصية الوهمية في الأذهان للطعن في صدقية الاستشهادات والنصوص التي يستشهد بها الشيعة لتبرير مواقفهم واختياراتهم السياسية والعقائدية. لكن التشيع ظل ضعيفاً ومهمشاً في الحجاز ومكة والمدينة في حين ازدهر في العراق إبان خلافة الإمام علي الذي نقل عاصمة الخلافة من المدينة الى الكوفة في

العراق. فحتى النبي محمد لم يسلم من ظاهر الدس والتدليس واتهمه بعض القريشيين بأنه تلقى تعاليمه وأفكاره من راهب مسيحي ولم يفعل سوى تكرار وترديد تلك الآراء ذات المنشأ المسيحي.

تشير مصادر إسلامية كثيرة إلى أن أطروحة التشيع، حتى قبل أن تتلبس بهذا النعت أو التسمية، تعود لفترة حياة النبي وتعود نشأتها وولادتها إلى رغبة النبي في التركيز على أهمية علي بن أبي طالب وجاهزيته وأفضليته على باقي الصحابة في تقلد منصب الخلافة بعد وفاته. من هنا يمكننا القول أنه في حياة النبي كان هناك جناحان متنافسان على الحظوة لدى النبي وربما القيادة من بعده، أحدهما يقوده عمر ابن الخطاب والآخر يقوده علي ابن أبي طالب، وكان الصحابة المقربون من علي يجدون فيه سمات الزعامة الدينية والدنيوية ويحبونه ويطيعونه وكانوا يعرفون بأتباع أو أنصار علي في زمن النبي محمد. ويعتقد أن النبي كان يعرف بذلك ويشجعه بهدوء لكنه لم يجهر به إلا في اللحظات الأخيرة من حياته، عند مرضه واقتراب أجله، وذلك خوفاً من حدوث تمرد وانشقاق في البنية القيادية للإسلام.

كتب الكاتب المصري محمد فكري أبو نصر رأيه في التشيع قائلاً: لا توجد هناك أية علاقة للشيعة بعقيدة أبو الحسن الأشعري في مجال أصول الدين ولا توجد صلة مباشرة للشيعة مع المدارس الفقهية السنية الأربعة في مجال التطبيقات العقائدية والطقوسية والشعائرية والسبب يعود لكون العقيدية الشيعية هي أقدم من كافة المدارس الفقهية الإسلامية الأخرى وبالتالي فهي

الأقرب الى روح الإسلام وجوهره، ويمكننا بهذا الصدد الرجوه الى كتاب الباحث الإسلامي أسد حيدر المعنون الإمام الصادق والمدارس الأربعة حيث يلقي الضوء على مثل تلك العلاقة. وإن ما يميزها عن بقية المدارس الفقهية الإسلامي هو تركها لباب الاجتهاد مفتوحاً لاستنباط القرارات بما يتناسب مع تطورات المجتمع وتأثره بتطورات العصر الحديث وتعقيداته.

البروفيسور المصري أبو الفا الغانمي كتب في كتاب عنوانه: «مع رجال الفكر في القاهرة» أن هناك عدد من الباحثين في الشرق والغرب، في أيامنا هذه، وفي الماضي، أعطوا أحكاماً خاطئة عن التشيع بعدم استنادهم إلى أدلة وشهادات أهل للثقة وتناقلت آرائهم العامة دون تمحيص أو مساءلة بشأن صدقيتها أو مصداقيتها. ويعود السبب لذلك التحيز المعادي للتشيع إلى أنهم لم يرجعوا إلى اية مصادر شيعية وقبولهم بلا تفكير أو تأمل بأطروحات خصوم الشيعة ونصوصهم غير الموضوعية. ولم يكن الهدف هو البحث عن الحقيقة، بل محاولة مقصودة للنيل من الشيعة وبث الفرقة بين المسلمين، ونسف أسس الإسلام وشقه.

وبعد موت النبي كان الهدف هو اختيار زعيم دنيوي يتمتع بمواصفات معينة تؤهله للقيادة السياسية الدنيوية وليس إماماً دينياً يقوم مقام صاحب الرسالة بما يمتلكه من علم وقابلية علمية ومتبحر في العلوم النبوية والدينية لمواصلة الرسالة وتطويرها فالذين كانوا في السقيفة كانوا يبحثون عن بديل للنبي لشغل مهامه القيادية السياسية الدنيوية ليس إلا ولم يتحدثوا عن بديل أو خليفة لتحمل أعباء المهام الدينية للرسالة. والحال أن أتباع علي بن

أبي طالب كانوا يعتقدون أن زعيمهم يتحلى بالصفتين أي الرئاسة الدنيوية والإمامة أو الزعامة الدينية بينما أعتقد المعسكر الآخر بقيادة عمر ابن الخطاب أن علي لم يكن مؤهلاً لتقلد الزعامة أو القيادة السياسية الدنيوية نظراً لصغر سنه وقلة تجربته في هذا المضمار.

فالنبي كان في آن واحد، مصدر القوانين والتشريعات الدينية، ومصدر القضاء وتطبيق العدالة والأحكام، ورئيس السلطة التنفيذية أي الزعامة السياسية الدنيوية التي تقوم المجتمع المدني وأيضاً قائداً عسكرياً يقود أغلب حروبه بنفسه، وهذه صفات نادراً ما تجتمع في شخص واحد من الصحابة، فيما عدا علي بنظر أصحابه وأنصاره.

الفصل الثالث

قراءة في الجذور التاريخية

للانقسام الشيعي السني في الإسلام / رؤية غربية

الإسلام ضد الإسلام

انطوان صفير

بلغ تعداد المسلمين في العالم اليوم حوالي مليار ومائتي مليون نسمة يعتقد أن 90٪ منهم من السنة و10٪ من الشيعة منهم 9٪ من الشيعة الإمامية الاثني عشرية و1٪ من باقي فروع الشيعة المنشقين عن الإمامية مثل السبعية والخوارج والإسماعيليين والزيديين والعلويين والدروز وغيرهم ممن لا يعترف بهم السنة كطوائف أساسية في الإسلام. يعود تاريخ المواجهة بين فرعي الإسلام الرئيسيين السنة والشيعة لسنة 632 ميلادية. وهو تاريخ وفاة النبي محمد الذي ترك ورائه معركة خلافة متوترة ومتأججة، وبالرغم من وجود قرآن واحد ونبي واحد هما أعمدة الاعتقاد الديني لدى السنة والشيعة على السواء، إلا أننا نرى ونلمس اليوم كأن هناك دينان أو وجهان مختلفان لدين واحد. إن الصراع المحتدم بين الشيعة والسنة في كل مكان في العالم حيث يتواجدون قد يقود إلى ما يشبه الحرب العالمية الثالثة كما يعتقد الكاتب والمحلل السياسي الفرنسي من أصل لبناني أنطوان

صفير لأن المواجهة تخاض باسم الاختلافات العقائدية والمذهبية لكلا الطرفين وهي مواجهة مشتعلة اليوم وغير قابلة للانطفاء في الزمن المنظور. ففي الباكستان على سبيل المثال لا يمر أسبوع بدون وقوع حوادث طائفية دامية بين الشيعة والسنة وبالأخص ضد أماكن العبادة العائدة للطائفتين المسلمتين. والعراق يعاني اليوم أكثر من أي وقت مضى، من مواجهات عنيفة ودامية بين الشيعة والسنة فيما يشبه الحرب الأهلية، التي تغذيها كل من إيران والسعودية وبعض دول الخليج كقطر. ونفس الشيء يحدث في لبنان ولكن بحدة أقل في الوقت الحاضر. وفي البحرين تستمر ثورة الشيعة الأغلبية على الأقلية السنة الحاكمة، وتدعمهم إيران في ثورتهم للتحرر من حكم الأقلية السنية، بينما تساعد المملكة العربية السعودية سنة البحرين بالمال والسلاح والجيوش لسحق الثورة الشيعية، هي إذن حرب إقليمية بالوكالة بين إيران والسعودية على أرض البحرين وبواسطة أبناء البحرين أنفسهم. وينتشر رذاذ الثورة وشرارتها في اليمن حيث توجد أقلية شيعية زيدية أو إمامية تساعدها إيران أيضاً في ثورتها ضد السلطات السنية المدعومة هي الأخرى بالجيش السعودي والمساعدات المالية السعودية وهي ساحة أخرى للصراع الإقليمي الشيعي السني بين إيران والسعودية بالوكالة كذلك على أرض اليمن منذ العام 2009. واليوم نرى نفس اللاعبين ونفس مفردات الصراع بين الشيعة والسنة على الأرض السورية حيث تساعد السعودية وقطر وتركيا المتمردين السنة وهم الأغلبية ضد حكم الأقلية العلوية، وهم فرع من فروع الشيعة، الذين تساندهم إيران في الحرب الأهلية الدائرة هناك اليوم. وتمتد ساحات الصراع بين المكونين الأساسيين

للإسلام إلى الصين حيث يعيش أكثر من 50 مليون مسلم بينهم أقلية شيعية تتمركز في مناطق كسينج يانغ Xinjang الواقعة غرب البلاد وفي نينجكسيا Ningxia الواقعة في وسط البلاد. إنها إذن حرب لا تنتهي بين وجه للإسلام ضد وجه آخر للإسلام، الأول سني والثاني شيعي. فالصراعات التي تهز الشرق الأوسط والعالم العربي اليوم ليست بين الديموقراطية والدكتاتورية كما يظن البعض. فالديموقراطية هي حكم الشعب بنفسه ولصالحه، في حين أن الديموقراطية اختزلت اليوم بفكرة العدد والأغلبية والأقلية والحال أن قانون العدد لا يعمل و لا يصلح في الشرق الأوسط المكون من موزاييك من الأديان والطوائف والمذاهب والتجمعات الإثنية والعرقية والقومية وبالتالي يمكننا أن نفهم على نحو أفضل تلك الصراعات من خلال منشور المواجهة الأهم بين الشيعة والسنة وما يدور حولها من تحالفات، حيث تأخذ تلك المواجهات صبغة الحرب العالمية غير المعلنة إذ نلاحظ أن أمريكا تدعم السنة وروسيا تدعم الشيعة عدا الاستثناء العراقي حيث تحولت أمريكا من دعم السنة الى دعم الاكراد والشيعة في العراق لكنها لم تتخل كليا عن السنة وبالتالي فهو تحرك وقتي أو مناورة تكتيكية إلى أجل غير مسمى. لا بد من العودة إلى الوراء لمعرفة الجذور الثيولوجية والتاريخية لهذا التعارض السني الشيعي في الإسلام، وفهم الوضع الحالي بكل تعقيداته وخطورته المرتبط بطبيعة تكوينه ونمط هذا التكوين السياسي الشرق أوسطي. عند التمعن في ظروف الصراع السني الشيعي في القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين، وغموض ولغزية العلاقات بين الغرب والشرق الأوسط، وتوسع رقعة المواجهات الشيعية السنية في العالم

الإسلامي اليوم، يجعلنا ذلك ندرك أنها تتدرج في السياق السياسي الإقليمي على ضوء الغموض الذي يعتري العلاقات بين الغرب والعالم العربي، منذ انتهاء الإمبراطورية العثمانية واتفاقيات سايكس بيكو في أعقاب الحرب العالمي الأولى، وخاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. حافظت الدول العربية المستقلة حدثاً أو في طريقها للاستقلال، على علاقات متينة مع الدول الاستعمارية وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا العظمى، حيث استمرت المواجهات والمنافسات فيما بينها بالوكالة عبر مستعمراتها العربية. حاولت الدول الاستعمارية القديمة تصدير رؤيتها لمفاهيم المواطنة والديموقراطية الغربية. لقد نجحت التجربة نسبياً على ما يبدو في لبنان وسورية ومصر بفضل المعلومات التي أوردتها بعض الأقليات الدينية في هذه البلدان وكانت هذه المفاهيم موجهة للنخبة في تلك البلدان وليس للطبقات والفئات الاجتماعية الشعبية. كان إنشاء دول إسرائيل سنة 1948 في فلسطين وفي قلب العالم العربي من قبل الغرب قد زعزع استقرار الأنظمة القائمة والموالية للغرب. فلم يعد هذا الأخير يتذرع بتصدير وإدخال الديموقراطية والحداثة للبلاد العربية المستعمرة من قبله، بل للدفاع عن المصالح الحيوية للغرب في العالم العربي بسبب الدعم الذي يقدمه الغرب للدولة العبرية الوليدة. وفي سنة 1956 جاءت حرب السويس حول قناة السويس لتطيح بقامة ومكانة الدول العظمى السابقة فرنسا وبريطانيا لصالح الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية. وسرعان ما نشبت بين القوتين الأعظمين حرباً باردة امتدت إلى الشرق الأوسط. ففي مصر جاء عبد الناصر بطل القومية العربية والداعي لوحدة الشعوب والثقافات العربية، بفكرة

تأسيس الدولة الحديثة والعصرية على غرار النموذج الغربي للدولة. والحال أن الغرب لم يختر التحالف مع الدولة العصرية المصرية بقيادة ناصر بل فضل التحالف مع العربية السعودية المعادية للنظام المصري الجديد والتي يسودها النموذج القروسطي للدولة وتطبق حدود القرآن والشريعة ولا تمتلك دستورا عصرياً بل دستورها هو الشريعة الإسلامية فقط. وفي العربية السعودية تحكم التيارات الإسلامية السلفية والأصولية التي توجهها قيم المدرسة الفقهية الثيولوجية الحنبلية. والمذهب الحنبلي هو الذي أفرز الاتجاه الثيولوجي الوهابي المهيمن على العربية السعودية وقطر اليوم. كان التحالف الأمريكي السعودي قد أتاح للولايات المتحدة الأمريكية السيطرة التامة على أول وأكبر منتج للنفط في العالم. ومن المفارقة القول أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تسيطر كذلك على ثاني أكبر منتج للنفط في العالم وهي إيران الشاهنشاهية الشيعية بزعامة الشاه محمد رضا يهلوي لغاية سنة 1979.

تفاقم المواجهة الشيعية ـ السنية:

أطاحت الثورة الإسلامية بنظام الشاه في إيران سنة 1979 وكان ذلك مؤشراً على ظهور إيران الشيعية على المسرح العربي والتي شكلت مع سورية الدبلوماسية المعارضة والمعترضة على الدبلوماسية السنية التي تقودها العربية السعودية بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية. لقد نجحت إيران في التمركز في العالم العربي باستغلالها للتشيع المنتشر في العالم العربي باعتباره الفرع الثاني للإسلام والتأثير على دبلوماسية العالم العربي بينما تولت

السعودية قيادة الفرع السني في العالم العربي بعد عزل مصر إثر توقيعها لاتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية في كامب دافيد سنة 1978. تصاعدت حدة المواجهات الشيعية - السنية وتأججت مرة أخرى منذ العام 1992 واتسمت بصبغة عالمية تعدت حدود العالم العربي. ففي سنة 1992 هاجم زعيم الحرب الأفغاني في المقاومة الأفغانية ضد السوفييت، القائد مسعود قبيلة الهازارا الأفغانية ذات الأغلبية الشيعية بنسبة 90 ٪والتي تعيش في وسط أفغانستان في إقليم باميان ويمثل الشيعة في أفغانستان نسبة 12 إلى 13٪ من مجموع السكان الأفغان وكانت قبيلة مضطهدة تاريخياً. كانت هذه الحادثة قد زادت من حدة التوتر والحقد لدى الشيعة إزاء السنة الذين لم يدينوا هذه الجريمة أو يستنكروها. لقد وقعت تلك الحوادث في ظرف غاية في الخصوصية والتميز حيث كانت أفغانستان آنذاك فريسة لحرب أهلية تدور رحاها منذ أربع سنوات 1992 - 1996 التي أعقبت مغادرة الولايات المتحدة الأمريكية لمسرح الحرب الأفغانية بعد استسلام السوفييت وهزيمتهم في أفغانستان حيث انتهت تلك الحرب الأهلية بانتصار وهيمنة الطالبان على الحكم في أفغانستان. اعتبر أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة تخلي أمريكا وانسحابها بمثابة الخيانة بعد أن قدمت له الدعم والاسناد والتسليح والتمويل ووسائل الحرب والقتال. كان بن لادن قد جعل من أفغانستان مختبراً لمشروعه لإحياء الخلافة الإسلامية، لكنه شاهد حلمه ينهار بسبب اندلاع الحرب الأهلية فتحول من حليف وعميل إلى عدو لدود للولايات المتحدة الأمريكية. هناك ثلاث محاور تتركز حولها المواجهات الشيعية السنية في العالم والتي

من شأنها أن تزعزع استقرار الإسلام برمته على لأمد المنظور. وهي محاور دينية وعرقية أو إثنية واستراتيجية وسياسية بحتة. فالمرحلة الأولى لحصول الانشقاق في الجسم الإسلامي سنة 632 ميلادية بعد وفاة الرسول وحدوث معركة الخلافة التي استمرت لعقود طويلة، انتهت باختفاء الخلافة في الأمة الإسلامية سنة 1924 على يد التركي أتاتورك، ولم تعد هناك أية سلطة دينية حقيقية قادرة على إطلاق أحكام عقائدية قطعية ملزمة من قبل جميع المسلمين حتى ولا من قبل ملوك يدعون انتسابهم للبيت النبوي مثل ملك المغرب أو ملك الأردن.

لا يمكن الفصل بين فرعي الإسلام الرئيسيين عند البحث في تطور تاريخ الفكر السياسي للإسلام وتشكيل المدار السياسي للشرق الأوسط المعاصر: فالعائلة الصفوية الحاكم في إيران اختارت المذهب الشيعي كدين رسمي للدولة وفرضته بالقوة على الغالبية السنية التي كانت سائدة في إيران قبل الحكم الصفوي في الإمبراطورية الفارسية في القرن الخامس عشر الميلادي بهدف التمييز بين الفرس والعرب. وكان ذلك بمثابة المؤشر للجغرافيا السياسية للمنطقة لاحقاً حيث الجيوبولتيك مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين. فالتداخل بين التاريخ الديني والتاريخ السياسي للشرق الأوسط هو الذي قاد باحث مثل أنطوان صفير Antoine Sfeir في كتابه الصادر باللغة الفرنسية وعنوانه: إسلام ضد إسلام الحرب الشيعية السنية التي لا تنتهي « L’Islam contre l’Islam, l’interminable guerre des sunnites et des chiites» والذي يبحث في جذور التشيع «Aux origines du chiisme» لكي يعتبر موشور الدين

أساسياً لإجراء قراءة ملائمة وكاملة للشرق الأوسط المعاصر وللعالم الإسلامي تفادياً للسقوط في رؤية غربية مختزلة ومبتورة أو مقتضبة للأحداث التاريخية والحالية التي تعصف بالمنطقة.

من المتفق عليه اليوم أن الانشقاق الذي حصل في الإسلام ليس عقائدي بل سياسي بالدرجة الأولى ويعود أساسه التاريخي إلى أواخر فترة حياة الرسول ووفاته حيث نشب صراع مستتر، في بداية الأمر بين فريقين من الصحابة، الأول يضم الارستقراطية والاغنياء والوجوه المعروفة من الوجهاء الذي تجمعوا حول عمر ابن الخطاب، والثانية تضم الفقراء وذوي الأصول المتواضعة الذي أحاطوا بالإمام علي إبن أبي طالب، صهر النبي وإبن عمه وربيبه ووارث علمه والمدافع الأول عن الإسلام في أحلك الظروف وأخطرها لا سيما معركة الخندق عندما برز للفارس المشرك عمر بن ود العامري ووصف النبي هذه المبارزة بقوله: «لقد برز الإسلام كله للشرك كله». الفريق الأول أراد أن تكون الخلافة خارج بيت النبوة وخارج عشيرة بني هاشم والفريق الثاني أرادها أن تبقى في بيت النبوة وفي شخص الوريث الشرعي الأنسب من وجهة نظرهم وهو الإمام علي، وعرفوا باسم شيعة علي أي أتباع وأنصار علي. وبسبب النزاع حول من هو الخليفة الشرعي للنبي انشق الإسلام إلى شطرين، ومن ثم ازداد الخلاف وتعمق وتحول إلى خلاف عقائدي بعد أن صار يمس طبيعة الخليفة ودور الخلافة وهل الخلافة شأن دنيوي أم سماوي منصوص عليه من الله؟ وانطلاقاً من تلك الأوضاع ظهر مفهومان للإسلام بعد موت مؤسس الرسالة سنة 632: الأول مفهوم الجماعة وهم الأغلبية والمقصود بهم أهل

السنة والثاني مفهوم أهل البيت وهم الأقلية والمقصود بهم شيعة علي أو الإمامية. دام هذا الفرز خلال فترة الخلفاء الراشدين الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ولكن على نحو مستتر وغير معلن بيد أن الاستقطاب كان واضحاً بين الفريقين. تغيرت المعادلة عند مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان إبان أحداث الفتنة الكبرى وترسخ الانشقاق الطائفي بعد اغتيال الخليفة الرابع علي بن أبي طالب سنة 661 ميلادي والذي كان يقف على قمة الهرم الشيعي واعتبر بمثابة مفتاح التشيع السياسي والديني والعقائدي الذي تم توثيقه في الكتاب الذي عزي لعلي بن أبي طالب وهو نهج البلاغة الذي يجمع خطب وأحاديث وحكم ووصايا الإمام علي. مازال تصرف النبي محمد إزاء موضوع خلافته يشكل لغزاً كبيراً فلم يكن هناك من ينازعه أو ينافسه على السلطة لا دينياً و دنيوياً أو سياسياً، وكان يعرف توازنات القوى داخل مجمع الصحابة المحيطين به وامتداداتهم القبلية، فلماذا لم يحسم المسألة علنا في حياته ويصرح باسم خليفته؟ و كذلك بسبب غياب نص ديني إلهي مقدس صريح ينص على شخص بعينه ليخلف الرسول في مهمته، كما يقول أهل السنة والجماعة بينما يدعي الشيعة أن هناك نصوص وإشارات صريحة صدرت من قبل النبي بتولية علي بن أبي طالب خاصة في خطبة الوداع في غدير خم التي قال فيها: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم والي من ولاه وعادي من عاداه الخ...» وهكذا حدث في سنة 632، وهي سنة وفاة الرسول محمد، فراغ تشريعي وقضائي لعدم وجود مؤسسات بديلة لقيادته في حال غيابه. كانت التجربة الإسلامية في طور التوسع والتنامي عند وقوع

الانقسام المميت في جسد الأمة. كانت بذور وجذور الانشقاق والانشطار موجودة حتى في حياة محمد لكنها لم تكن صريحة وعلنية بل خفية لكنها محسوسة. كان هناك إجماع بين المسلمين فيما يتعلق بسماوية الرسالة ومصدرها الإلهي باعتبارها منزلة من السماء، لكن الإجماع كان مفتقداً فيما يتعلق بشخص من سيخلف النبي وصلاحياته وشروط اختياره ومبايعته وحدود سلطته وهل هي دينية سياسية فقط أم دينية أيضاً؟ بمعني آخر، هل الخلافة أمر إلهي أم بشري؟ أعتبر قسم من المؤمنين أن الشرعية الإلهية مستمرة من خلال حقوق وشرعية آل بيت النبوة وعائلة النبي المتمثلة بابنته فاطمة وولديها الحسن والحسين وزوجها إبن عم النبي وربيبه ووارث علمه وتجربته وموضع أسراره، علي بن أبي طالب لذلك فمن البديهي والمنطقي أن يكون هو الخليفة الشرعي للنبي محمد لأنه أقرب الناس له وأول المصدقين والمؤمنين برسالته من الذكور، وأكثر المدافعين عنها بسيفه وجهاده وأفضل العارفين بأسرار الرسالة وعقائدها وتشريعاتها وظاهرها وباطنها، كما يعلن الشيعة. في حين اعتبر قسم كبير من المسلمين وهم الغالبية الساحقة، أن الجانب الإلهي من الرسالة قد انتهى بموت صاحب الرسالة وبات من الضروري تطبيق التقليد القبلي، أي اختيار من تنطبق عليه الأوصاف التي حددها النبي قبل وفاته والتي تتعلق بمكانة وشجاعة وحكمة من يتولى القيادة، وفقاً للتقاليد والعادات والأعراف القبلية التي كانت سائدة قبل الإسلام وبناءً عليه تم اختيار أبو بكر للخلافة وبويع من قبل المسلمين، عدا بنو هاشم عشيرة النبي وعلى رأسهم علي بن أبي طالب وزوجته ابنة النبي

فاطمة بنت محمد وعدد من الصحابة الموالين لعلي بن ابي طالب. وهناك روايتان تناقلتهما كتب التاريخ والتراث الإسلامي عن حيثيات وتفاصيل اختيار الخليفة، وعما جرى في سقيفة بني ساعدة من مساجلات حادة، الأولى شيعية، وفيها تفاصيل كثيرة عن مؤامرة أعدت في الخفاء قبل وفاة النبي وأثناء احتضاره لعب فيها عمر بن الخطاب دور البطولة وقام بما يشبه الانقلاب العسكري بمواصفات عصرنا الحديث بغية الحصول على السلطة بالقوة المسلحة وبالمناورات السياسية، والثانية سنية تطعن بالكثير من المصادر التي استند إليها الشيعة وتختصر ما حدث في السقيفة وما بعدها بعملية اختيار طوعية وسلسة تمت بالمحاجة والاقناع بين الأنصار بقيادة سعد بن عبادة والمهاجرين بقيادة أبو بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح نجح فيها المهاجرون بإقناع الأنصار بصدقية حججهم فمالت الكفة لصالحهم وطلب عمر من أبو بكر أن يمد يده ليباعه وتقاطر الحاضرون من الأنصار لمبايعته، على اعتبار أن مسألة الخلافة شأن دنيوي بحت يقرره المسلمون وحدهم دون الرجوع لكتاب الله ووفق حديث ردده المسلمون عن النبي أنه قال: «أنتم أدرى بشؤون دنياكم» وهو حديث قيل في ظروف مختلفة تماماً لا علاقة لها بمسألة اختيار الخليفة، وكان اختيار أبو بكر، لاعتبارات لا تمت بالشرعية بصلة عدا إمامة للصلاة في المسلمين بدل محمد عندما كان النبي مريضاً، ولأنه والد عائشة أحب زوجات النبي إلى قلبه، وأقرب أصدقائه وأخلصهم وأكبر الصحابة سناً بعد النبي، بينما لم يتجاوز عمر علي بن أبي طالب آنذاك الثلاثينات. وكان أبو بكر قد خرج على المسلمين خاطباً بعد إعلان

وفاة النبي محمد قائلاً: «من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت» وتلى عليهم الآية التي تقول: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين». لم يحكم أبو بكر كخليفة سوى سنتين كانتا مليئتين بحروب الردة وإعادة فرض هيبة وهيمنة وسلطة الدين على القبائل والشعوب المرتدة التي امتنعت عن دفع الزكاة والجزية. وكان أبو بكر يعمل على تهميش الإمام علي وبني هاشم وإبعادهم عن الشأن السياسي وحصرهم في مهمة الإرشاد والوعظ الديني البحت، بل وصادر بعضاً من حقوقهم وصادر أرض فدك من فاطمة التي ورثتها عن أبيها بحجة أنه سمع النبي يقول إن الأنبياء لا يورثون، وهو الوحيد من بين الصحابة الذي يدعي أنه سمع هذا الحديث، وإن آل بيته لا تحل عليهم الزكاة. عهد أبو بكر قبل وفاته بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب بوصية أخذن شكل الأمر القطعي الذي لا يقبل الاعتراض أو الطعن وذلك سنة 634 ميلادي، وانطلق في فتوحات في شمال أفريقيا، أي الجزائر وتونس والمغرب الحالية والشرق الأوسط، أي مصر والعراق وفلسطين والأردن وسورية ولبنان حالياً، وشبه القاره الهندية وبلا فارس أو إيران الحالية، وأسس جيشاً إسلامياً جراراً وحقق بعض الانتصارات وأغتيل سنة 644. واختار عمر ستة من الصحابة لخلافته قبل وفاته على أن يختاروا أحدهم وكان من بينهم علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان اللذين كانا يتمتعان بأفضل الحظوظ من بين باقي المرشحين، وفي لعبة محبكة تم استبعاد علي من

الخلافة واختيار عثمان بن عفان من البيت الأموي الذي كان ألد أعداء الإسلام وكان زعيم الأمويين أبو سفيان العدو اللدود لمحمد، لأن علي رفض أن يحكم بالقرآن والسنة ونهج الشيخين، أي الخليفتين السابقين أبو بكر وعمر، وأصر على الاجتهاد بنفسه في الإدارة، في حين وافق عثمان على هذا الشرط التعجيزي بالنسبة لعلي بن أبي طالب. أحدث عثمان بن عفان تغييرات كثيرة في منهجية الإدارة والحكم فحابى أبناء عشيرته وقربهم ومن بينهم مروان بن الحكم الذي نفاه النبي لسنوات طويلة، وجعل منه مستشاره الأقرب بل وأكثر من ذلك حيث كان بمثابة رئيس الوزراء في التركيبة الهرمية لسلطة الخلافة، وبيده ختم الخلافة. وعين معاوية ابن أبي سفيان والياً على الشام، أي سوريا الحالية وفلسطين ولبنان. وتصرف بحرية وبدون قيود برأس مال المسلمين أي بخزينة الدولة، وعامل بقسوة معارضيه من أجلاء الصحابة كعمار ابن ياسر وغيره. ثم قام بجمع القرآن في كتاب واحد واختار صيغة واحدة هي صيغة زيد وأحرق باقي الصيغ كصيغة ابن مسعود وغيره من كتبة القرآن وحافظيه، من باقي الصحابة. وبالطبع تجاهل صيغة القرآن التي جمعها وأعدها الإمام علي، وهذه قصة طويلة ومعقدة تحتاج لعدة مجلدات لدراستها وتحليلها. وبالطبع كان الهدف من جمع القرآن سياسياً أكثر من دينياً. لقد تنامت ضده حركة الاحتجاج ووصلت الى حد التمرد المسلح حيث طوق المتمردون على حكمه قصر الخلافة و اقتحموه وقتلوه بداخله سنة 656 ميلادي. اتهم الأمويون الإمام علي بتحريضه على قتل عثمان أو التستر على قاتليه وعدم الكشف عنهم ومحاكمتهم،

ويشاع أن من بين الثوار محمد ابن أبو بكر شقيق عائشة زوجة النبي. بل إن هذه الأخيرة نفسها كانت تحرض الناس على قتل الخليفة وتقول: «اقتلوا نعثلاً فقد كفر» وتقصد به عثمان بن عفان. والحال أن الإمام علي لم يستخدم العنف والقوة قط ضد أي من معارضيه ممن سبقه من الخلفاء الثلاثة. وبعد مقتل عثمان اختار الناس ومعهم كثير من الصحابة الإمام علي كخليفة على المسلمين وهو الخليفة الراشدي الرابع بعد مضي 24 عاماً على وفاة الرسول. وحكم أربع سنوات وتسعة أشهر 656-661 كانت مليئة بالحروب والاضطرابات التي يمكن وصفها بأنها أول حرب أهلية بين المسلمين. كان الإمام علي محارباً شديد البأس، شجاعاً وكريماً وزاهداً وتقياً وعالماً فذاً ومتكلماً بليغاً، لكنه لم يكن سياسياً ناجحاً. أسلم في عمر العاشرة ورافق النبي منذ طفولته حتى مماته وكان يعتبر نفسه الخليفة الشرعي والمنطقي للمرشد الذي رباه وعلمه وزوجه ابنته وجعل منه منبع آل بيت النبوة ولم يكن يرغب بالسلطة من أجل السلطة بل كان يرغب بمواصلة نهج الرسالة المحمدية وتوحيد الأمة. كان يرى أن مهمته دينية لأنه يمتلك ناصية العلم المحمدي وكان النبي محمد يردد أنا مدينة العلم وعلي بابها. وخلال حكمه كان يحاول تفادي الصراع المسلح مع خصومه والمعترضين على خلافته وكان يعتبر كافة المسلمين متساوين في الحقوق والواجبات وإن الانتماء للإسلام يأتي فوق أي انتماء آخر للقبيلة أو العشيرة أو العائلة وكانت أولوية علي بن أبي طالب إيجاد نوع من المواطنة الإسلامية أو الدينية كأساس لا بد منه لنشر دين محمد وتوطيد أركان الرسالة الإلهية. كان يهتم بتنظيم شؤون الأمة

أكثر من اهتمامه وحرصه على السلطة فالدولة ليست غاية بل وسيلة لتوحيد المؤمنين وكان متحمساً لدين محمد ونشره ولم يكن متحمساً لممارسة السلطة السياسية أو راغباً بتحقيق غايات ومصالح شخصية من خلال استغلال سلطة الخلافة. لم يكن هناك إجماع على خلافته لكنه كان يحظى بتأييد ومبايعة الغالبية العظمى من المسلمين في المدينة. تفاقمت التوترات الداخلية في جسد الأمة الإسلامية وتزايدت الصدامات والتمردات ونقض البيعة في عهده والطعن بشرعية خلافته من قبل عدد من الصحابة تتقدمهم زوجة النبي عائشة بن أبي بكر وكانت لديه ثلاثة أهداف رئيسية وهي فرض السلام على حدود الدولة الإسلامية وهيبتها وتأمين الاستقرار السياسي وكشف قتلة عثمان ومحاكمتهم وهذا هو تسلسل أولياته.

كان أبرز الصحابة المتمردين على خلافة علي بن أبي طالب هما طلحة والزبير بن العوام في شتاء 656 حيث شكلا جيشاً كان على رأسه عائشة وهي تحرض المقاتلين ضد علي وجيشه في البصرة من على ظهر جمل محمي بالرجال والسلاح المحيطين بهودجها. كانت عائشة تكره علي منذ سنوات طويلة بسبب رأيه بتطليقها من النبي في أعقاب الشبهات التي حامت حولها في حادثة الأفك الشهيرة في تاريخ الإسلام، وظلت تحقد عليه وتتآمر ضده بل وحاربته عسكرياً عندما أصبح خليفة على المسلمين في موقعة الجمل الشهيرة التي راح ضحيتها آلاف المسلمين الذين كان يتحاربون ضد بعضهم البعض وهم من نفس العشيرة بل ومن نفس البيت ونفس العائلة. انتصر علي في هذه الحرب الأهلية وأعاد

عائشة الى المدينة معززة مكرمة، وعفا عن بقية المقاتلين المتمردين ضده مما اثار حفيظة جزء من مقاتلي جيشه. انتقل علي من المدينة الى الكوفة في العراق التي نقل اليها مقر الخلافة ليكون في أقرب نقطة ممكنة من قوات معاوية ابن أبي سفيان الأموي والي أو حاكم سورية والمتمرد الآخر على خلافة علي بحجة الأخذ بثأر عثمان باعتباره من عشيرته بنو أمية. ولقد سبق لمعاوية أن اتهم علياً بمعرفة قتلة عثمان وإخفائهم والتستر عليهم بل وتحريضهم على قتل عثمان، وبهذه الذريعة الواهية أعلن معاوية الحرب على علي بن أبي طالب الخليفة الشرعي بعد فشل كل المفاوضات بين الاثنين وتعنت معاوية ووقعت المواجهة المسلحة سنة 657 بعد عام من واقعة الجمل في صفين بالقرب من منطقة الرقة الواقعة على الحدود العراقية السورية. تجمع أكثر من 70000 مقاتل ودارت حرب شعواء بين الجانبين وقع فيها كثير من القتلى والجرحى لا سيما بين صفوف جيش معاوية وكاد النصر أن يتحقق لعلي لولا اللجوء الى الخديعة عندما رفع المقاتلون الشاميون صفحات القرآن على الرماح وطالبوا بالتحكيم والقبول بالهدنة والاحتكام لكتاب الله ولم يتمكن علي من منع وقف المعركة ومواصلة القتال واضطر للقبول بالتحكيم مما أثار امتعاض جزء كبير من جيشه. غادر جزء لا بأس به من الجيش معسكر علي وجزء آخر من معسكر معاوية ممن لم يقبلوا بالتحكيم وشكلوا ما عرف فيما بعد بحركة الخوارج وكان ذلك بمثابة أول انشقاق صريح في الإسلام ورفعوا شعار لا حكم إلا لله. وكانوا متشددين ومتعصبين سياسياً وعقائدياً، لم يبق منهم الكثير في أيامنا هذه سوى عدد قليل في سلطنة عمان وقليل

منهم يعيش في تونس والجزائر. وكان ممثل علي في التحكيم أبو موسى الأشعري قد تنازل عن خلافة علي وخلعه فيما تشبث فيها عمرو بن العاص ممثل معاوية في التحكيم وثبت معاوية خليفة للمسلمين ومن ثم سيطر معاوية على مصر ووضع عمرو بن العاص والياً عليها وتابعاً له، فيما ظل علي خليفة على باقي الولايات الإسلامية في المدينة ومكة واليمن والعراق وشمال افريقيا الخ.. نظم الخوارج ثلاث عمليات إرهابية انتحارية ضد علي ومعاوية وعمرو بن العاص في نفس الوقت ففشلو ضد عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان الذي تعرض لجروح طفيفة ونجحوا في اغتيال علي لأن قاتله عبد الرحمن ابن ملجم ضربه على رأسه بسيف مسموم وتوفي الإمام الخليفة بعد ثلاثة أيام متأثراً بجراحه. أختار أتباع علي الحسن بن علي ابن ابي طالب خلفاً لأبيه لمنصب الخلافة ولكن من دون توصية من قبل علي، ومن وجهة نظر شيعية يكون الحسن قد ورث عن أبيه الإمامة والمنصب الديني وقبل باختيار المسلمين له للمنصب السياسي أي الخلافة. زحف معاوية بجيش جرار على الكوفة مقر خلافة الحسن لكن موازين القوى عسكرياً لم تكن تميل لصالح الحسن بعد تخلي جزء كبير من جيشه عنه ورفضهم القتال معه ضد جيش معاوية المدجج بالعدة والسلاح والخيل فوافق الحسن على الصلح مع معاوية والتنازل عن الخلافة مقابل مردود مادي منتظم ووعد بأنه سيصبح الخليفة القادم بعد وفاة معاوية. استمرت خلافة معاوية من 661 الى 750 ميلادية وكان رجل دولة وداهية ومتأثراً بنمط الحكم البيزنطي والروماني وقام بنقل مقر الخلافة من الكوفة الى دمشق والحط

من قيمة مدينة النبي يثرب العاصمة الإسلامية الأولى سابقاً فأسس دولة حديثة مبنية على الملكية الوراثية وصك النقود وفرض الضرائب وشكل جيشاً محترفاً. وكان يضع كل السلطات الدينية والمدنية والعسكرية والاقتصادية بين يديه، أي كان حاكماً مطلقاً على غرار القياصرة. وقبل وفاته قام بتسميم الحسن على يد زوجته جعدة التي وعدها بتزويجها لابنه يزيد ثم تنصل عن وعده وقتلها بعد أن قتلت الحسن بالسم. وصار يراقب آل البيت ويحصي عليهم أنفاسهم ويضيق عليهم الخناق ويطارد اتباعهم بالقتل والتعذيب والتشريد ويشتم الامام علي من على منابر المساجد ويحط من قيمته ودوره ويشوه تاريخه وكان اتباع علي يتنكرون لمعتقداتهم باستخدام التقية واخفاء مشاعرهم ومواقفهم الحقيقية خوفاً من بطش معاوية. توفي معاوية سنة 680 ميلادية بعد أن أخذ البيعة لولده يزيد بالقوة وبالاغراءات المالية والمادية للصحابة والتابعين وهنا بدأت المرحلة الثانية من تكون التشيع ككيان متميز داخل الإسلام، خاصة عندما أعلن الإمام الحسين بن علي ابن أبي طالب رفضه مبايعة يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان خليفة للمسلمين وأعلن الثورة عليه من المدينة التي غادرها الى مكة، في البداية، ومن ثم من العراق التي وصلها بصحبة 72 من أتباعه المخلصين وآل بيته. حوصر من قبل جيش يزيد في منطقة تسمى كربلاء في العراق وخير بين الموت أو الاستسلام ومبايعة الخليفة يزيد إلا أنه رفض وقاوم حتى قتل هو وأصحابه وأفراد عائلته فيما عدا الأطفال والنساء وأحد أبنائه الذي كان مريضاً هو علي بن الحسين السجاد. اعتبر الشيعة موقف الحسين نموذجاً للثورة ضد

الظلم ورمزاً للمقاومة والإباء والحفاظ على الكرامة وصيانة الرسالة النبوية. لكن تخطيطه العسكري لم يكن موفقاً ولم يأخذ بالاعتبار توازنات القوى والخلل في الميزان العسكري بين جيشه وجيش خصمه يزيد بن معاوية، حتى لو فسر الشيعة ذلك على نحو بطولي وتراجيدي بأنه كان يعرف مصيره مسبقاً وأنه سيستشهد لا محالة ومع ذلك لم يتردد أو يذعن أو يتنازل. وهكذا بني الفكر الشيعي على سيرة شخصيتين محوريتين هما الإمام علي والإمام الحسين وصارت الأماكن المقدسة الشيعية هي مراقد الشهداء في العراق، علي في النجف والحسين في كربلاء. وابتعدت الشعائر والطقوس الدينية الشيعية رويداً رويداً عن الممارسات السنية وصار الشيعة يستذكرون بألم وأسى ذكرى موقعة الطف في كل سنة في عاشوراء بينما لا يعيرها السنة نفس الاهتمام. ثم دخل مفهوم التقية والاجتهاد عند الشيعة وهما مفهومان دينيان غريبان وغير محبذان عند أهل السنة. وتمكن الشيعة من تأسيس مؤسسة دينية منظمة ومستقلة أشبه بالفاتيكان الكاثوليكي المسيحي ألا وهي مؤسسة المرجعية الدينية الشيعية وهي غير موجودة في الممارسات والمؤسسات الدينية السنية، ويقابلها الجامع الأزهر الشريف في مصر والذي أسسه الفاطميون الشيعة في الأساس. وعلينا أن نتذكر أن الاجتهاد قد توقف عند السنة في القرن الحادي عشر الميلادي عند أربعة مدارس فقهية في المذهب السني وهي المالكية التي أسسها مالك إبن أنس ومنتشرة في شمال أفريقيا ومصر والسودان، والشافعية التي أسسها الإمام الشافعي المتبعة في مصر وأندونيسيا وماليزيا واليمن وسلطنة بروناي، والحنبلية التي

أسسها أحمد إبن حنبل والمتبعة في العربية السعودية وقطر ومنها انبثقت المدرسة الوهابية المتشددة والمدرسة الحنفية المنتشرة في العراق. وكلتا الطائفتين الرئيسيتين في الإسلام تدعيان أنهما الفرقة الناجية التي تحدث عنها النبي محمد في حديث مشكوك في صحته.

خلافات عقائدية وخصوصية التشيع:

أهم ما يميز الفكر الشيعي عقائديا وسياسياً هو مفهوم الإمامة التي جعلها الشيعة من الأصول و كذلك طبيعة الإمام الذي اعتبروا أنه منصوص عليه من الله بالنص وبالتالي فهو معصوم عن الخطأ، أي أضافوا مفهوم العصمة، وإن الإمامة متوارثة حيث ينص كل إمام على من سيخلفه بالاسم الصريح تفاديا للإشكال الذي حدث بعد وفاة النبي وادعاء اهل السنة والجماعة ان النبي لم يسمي احداً بالاسم الصريح وبالنص المكتوب لكي يخلفه، وإن الأمر يبقى محصوراً بنسل النبي وذريته من فاطمة ابنته وعلي صهره زوج ابنته وابن عمه وربيبه ويستمر في نسل الحسين بن علي حصراً وهذا ما ثبته منظر الشيعة واشهر أئمتها جعفر الصادق 703-765 وهو ابن محمد الباقر ابن علي ابن الحسين السجاد ابن الحسين بن علي ابن ابي طالب، وهو الإمام السادس من الأئمة الإثني عشر الذي قال إن النص ووراثة الإمام ناجم عن إرادة إلهية خفية أو مستترة لا يعرفها إلا الأئمة المعنيين أنفسهم، بينما لا يعني الإمام في الفقه السني سوى الشخص الذي يؤم الناس في صلاة الجماعة فهو الذي يقود صلاة الجماعة يوم الجمعة. كما أضاف الشيعة

مبدأ التقية، أي إخفاء إيمانهم وإظهار ما يخالفه علناً حماية للنفس من القتل والأذى، ولقد مارسوا هذا المبدأ منذ وفاة علي الخليفة الراشدي الرابع، وذلك خوفا من بطش معاوية وباقي الخلفاء الأمويين الممارس ضد الشيعة. وهناك مبدأ البداء ومفهوم الغيبة وهي جزء جوهري من عقائد الشيعة وغير موجودة عن أهل السنة. فالبداء يعني أن الله أراد شيئاً وبداء له بعد ذلك شيئاً آخر فالإمام السادس جعفر الصادق عين ابنه البكر إسماعيل إماماً يخلفه حسب نص إلهي عليه كما أخبر أتباعه إلا أن إسماعيل توفي قبل أبيه جعفر الصادق ومن المفروض أن تبقى الإمامة في نسل إسماعيل لذلك انشق الشيعة بعد وفاة جعفر الصادق وظهرت الطائفة الإسماعيلية، نسبة لإسماعيل ابن جعفر الصادق وابنائه واحفاده ونسله، احتجاجاً على اختيار جعفر الصادق 703-765 بديلاً لإسماعيل في شخص موسى الكاظم 745-799 الذي حبسه الخليفة العباسي الشهير هارون الرشيد سنين عديدة ومن ثم اغتاله بالسم، واعتبر الشيعة الإثني عشرية موسى الكاظم بمثابة الإمام المعصوم السابع بينما اعتبر الإسماعيليون إسماعيل المتوفي قبل والده هو الإمام السابع وتوقفوا عنده وسموا بالشيعة السبعية واعتبر بعضهم ان إسماعيل هو المهدي المنتظر. فبعد استشهاد الإمام الحسين في كربلاء على يد جيش الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، تعاقب تسعة أئمة وشكلوا القاعدة الإيمانية والعقائدية للشيعة الإثني عشرية. وتنتهي سلسلة الإمامة عند الإمام الثاني عشر محمد المهدي ابن الحسن العسكري الذي اختفى وغاب عن الأنظار بأمر إلهي سنة 874 ميلادية. ويعتقد الشيعة بضرورة وجود

الإمام، حاضراً أم غائباً لإدارة شؤون الأمة الإسلامية والعالم. ولقد كان هناك انشاق طائفي آخر في نسيج المذهب الشيعي عند وفاة الإمام السجاد علي ابن الحسين 658-713 فانحاز بعض الشيعة نحو ابنه زيد ابن علي الثائر ضد الحكم الأموي الذي اعتبره بعض اتباعه انه لم يستشهد بل غاب وانه هو الامام المنتظر، بينما التفت الأغلبية حول شخص الإمام محمد الباقر 676-743 الذي اختاره السجاد خلفاً له. وسمي اتباع زيد بن علي بالزيدية الذين ما يزالون الى اليوم متواجدون في اليمن الحالي. وخلف الإمام علي الرضا 765-818 والده موسى الكاظم وأعقبه ابنه محمد الجواد 810-835 باعتباره الإمام التاسع ومن بعده علي الهادي 827-868 باعتباره الإمام العاشر وخلفه في الإمامة الإمام الحادي عشر الحسن العسكري 846-874، الذي يتبعه العليون من خلال ابن نصير لذلك سموا النصيرية، وأخيرا الإمام الثاني عشر محمد المهدي الذي يدور حوله لغط كبير وغموض، حتى أن البعض أنكر وجوده وإنه لم يولد أصلاً في حين اعتبره الشيعة الإثنا عشرية الامام الغائب الذي سيعود في آخر الزمان ليملأ الأرض قسطاً وعدلا بعد أن ملئت ظلماً وجورا. يقول الشيعة الإثني عشرية أن الإمام الثاني عشر المهدي غاب مرتين الغيبة الصغرة والغيبة الكبرى وبين الغيبتين كان يتصل بسفراء له كان عددهم طيلة الغيبة الصغرى أربع سفراء. وبوفاة آخر السفراء غاب غيبته الكبرى التي ما تزال مستمر الى يوم الناس هذا، منذ سنة 874 ميلادية. يستند الشيعة في عقائدهم الى نفس المصادر الأساسية للدين ألا وهي القرآن والسنة النبوية والأحاديث ولكن مصادرهم ورجالات

الحديث عندهم يرجعون للأئمة ولآل البيت النبوي أكثر من رجوعهم للصحابة ناقلي أحاديث النبي وبالتالي لهم صحاحهم الخاص الذي يختلف عن صحاح أهل السنة، وعنوانه الكافي. فتجسد الله ورؤيته يوم القيام يكون مجازياً عند الشيعة وواقعياً عن السنة، كما يعتقد الشيعة أن الإنسان حر في اختياراته ومسؤول عن أفعاله، عكس مقولة القضاء والقدر بصيغتها الأورثوذوكسية الإسلامية. وهناك طوائف شيعية أخرى انسلخت عن الجسد الشيعي على مر الأزمان كالفاطميين والدروز والعلويين الخ..

ترسخ الخلاف الفقهي والعقائدي بين السنة والشيعة في الإسلام أكثر فأكثر خاصة بعد أن أغلق السنة باب الاجتهاد وتركه الشيعة مفتوحاً إلى يومنا هذا وظهرت طبقة من علماء الدين الشيعة، بدرجات ومراتب هرمية من طالب حوزة إلى ملا ومن ثم حجة الإسلام والمسلمين ومن ثم مجتهد، وهناك مجموعة كبيرة من المجتهدين وحولهم الكثير من المقلدين ومن بينهم برزت مجموعة من العلماء يحملون مرتبة آية الله وآية الله العظمى ومن بين هؤلاء تكونت المرجعية الدينية الشيعية التي تضم عدة مراجع ومن بين هؤلاء في هذه التركيبة الهرمية المراتبية يتم اختيار المرجع الأعلى بما يمكن مقارنته بمؤسسة الفاتيكان المسيحية الكاثوليكية ويمارس الفقهاء والعلماء ورجال الدين الشيعة بدرجة آية الله العظمى والمرجع أغلب مهام وصلاحيات الإمام الغائب وليس كلها. وكانوا في غالبيتهم الساحقة يرفضون ممارسة السلطة السياسية الدنيوية لأنها من حق الإمام الغائب المهدي المنتظر فقط ولا يعترفون بشرعية السلطات والأنظمة الدنيوية التي تحكم العالم

الإسلامي. إلى أن ظهر مرجع كبير هو آية الله العظمى روح الله الخميني الذي قلب هذه المعادلة ونادى بسلطة الولي الفقيه في نظرية ولاية الفقيه والحكومة الإسلامية التي يقودها مراجع الدين تمهيداً لظهور الإمام المهدي، وانقسم رجال الدين الشيعة بين مؤيد لهذه النظرية ومعارض لها. ولا وجود لمثل هذه المؤسسة الدينية المستقلة في الفقه السياسي والديني السني، هناك بعض الشيوخ المتخرجين من جامعة الأزهر ومثيلاتها في العالم الإسلامي يجري تعيينهم من قبل الأنظمة الحاكمة كموظفين في الدولة للقيام بمهماد الارشاد والتوجيه الديني ولإمامة صلاة الجمعة وإلقاء الخطب والمواعظ. ولا يوجد عالم مجتهد سني اليوم فهم جميعاً مقيدون بالنص القرآني حرفيا وبالأحاديث والتفاسير الموجودة لأن باب الاجتهاد أغلق منذ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. يتحسس السنة من بعض الممارسات الطقوسية والشعائرية الشيعية والممارسات الاجتماعية مثل التعزية التي تقام في عاشوراء لمدة عشرة أيام ويجري فيها تسيير مواكب عزاء ولطم الصدور وجلد الظهور بالسلاسل وضرب الرؤوس بالسيوف الخ.. وإباحة ما يسمى بالزواج المؤقت أو زواج المتعة التي يحرمها أهل السنة ويعتبرونها نوعاً من البغاء المشرع والتي حرمها عمر كما يقولون بينما يعترض الشيعة على تحريمها ولكنهم وضعوا لها الضوابط والقيود والتشريعات اللازمة.

يشكل الشيعة نسبة 10٪ من عدد المسلمين في العالم، أي أن هناك 90٪ من المسلمين من أهل السنة. يشكل الشيعة أكثر من 98٪ من سكان إيران و70٪ من سكان البحرين و65٪ من سكان العراق

ويعتقد أن عدد الشيعة في الخليج يصل إلى 70٪ منهم 10٪ في السعودية وفي الكويت تصل نسبتهم الى 25٪ وفي قطر 20٪ من مجموع سكان البلدين، وهم أكثر من ثلث السكان في لبنان وتوجد نسبة كبيرة منهم في اليمن وسورية وفي الهند والباكستان وأفغانستان والصين وأذربيجان وتركيا لكنهم ليسوا فقط من الشيعة الاثني عشرية بل من طوائف شيعية متنوعة كالزيدية والاسماعيلية والعلوية والدرزية. وبعض الشيعة في دول الخليج مضطهدين كما في السعودية والبحرين وقطر، إلا أن ظروفهم وأحوالهم أفضل قليلاً في الإمارات العربية المتحدة والكويت.

لم يذق الشيعة طعم السلطة إلا لفترة قصيرة في عهد الدولة الفاطمية التي سقطت سنة 1171 ميلادي. ونزح الكثير منهم إلى المناطق الجبلية والنائية للاحتماء من بطش السلطات لهم كما فعل الدروز والعلويين في سورية ولبنان وتركيا. أما في إيران فوضعهم مختلف. ففي سنة 1501 ميلادية فرضت السلطة الصفوية، المنحدرة من قبائل تركية من آسيا الوسطى، والحاكمة في إيران ذات الأغلبية السنية، مذهب الشيعة الإمامية كدين رسمي للإمبراطورية الفارسية، في محاولة لخلق ثقل موازي للسنة المهيمنين على العالم الإسلامي وتم تشييع السكان بالقوة أحياناً وبالترهيب والترغيب أحياناً أخرى وبالإقناع والتبشير في كثير من الأحيان في حملات منظمة تقودها الدولة. وبقيت بعض الأقليات التركمانية والكوردية والبالوتشية على مذهبها السني وقاومت حملة التشييع. وفي القرن الثامن عشر الميلادي، بوصول سلالة القاجاريين للسلطة في إيران، تبلورت فكرة تأسيس المؤسسة

الدينية المنظمة المتمثلة بالمرجعية وبالحوزات العلمية في قم ومشهد وفي النجف وكربلاء وسامراء والحلة وكلها تتمتع بالاستقلال التنظيمي والمالي، إلى درجة أنها شكلت قوة موازية ومنافسة لقوة الدولة خاصة في نهاية القرن التاسع عشر مع تآكل وانحسار سلطة القاجاريين ولقد نظمت المرجعية سنة 1890 انتفاضة شعبية ضد قرار الشاه بمنح امتياز احتكار تجارة التبغ لانجلترا وظهر مراجع الشيعة بصورة المدافعين عن مصالح الوطن والمسلمين. وفي بداية القرن العشرين نشب صراع على النفوذ بين السلطة الدنيوية الشيعية الحاكمة الممثلة بالشاه والمؤسسة الدينية الممثلة بالمرجعيات والحوزات أو المدارس الدينية وتراجع نفوذ رجال الدين سنة 1906 بفعل الإصلاحات الليبرالية التي سنها الشاه على غرار النموذج الغربي خاصة بعد انقلاب الشاه رضا خان بهلوي سنة 1921 وكان من المعجبين بمصطفى أتاتورك في حركة التحديث والعصرنة وإنهاء الخلافة الإسلامية السنية.

التشيع العراقي:

ولد التشيع، بمعناه الحديث والمنظم، في العراق، بعد أن كان موجوداً بصورة هلامية أو غير مباشرة في الأيام الأخيرة من حياة الرسول، وعلى نحو خفي أو مستتر، ثم برزت ملامحه في فترة الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل، وتجذر في فترة الخليفة الراشدي الرابع على ابن أبي طالب الذي نقل عاصمة الخلافة إلى الكوفة في العراق وبذلك أصبح العراق هو موطن التشيع الأول منذ ذلك الحين. يبلغ عدد الشيعة في العراق اليوم ما يقارب الـ 65٪ من

مجموع السكان الإجمالي الى جانب العرب السنة والاكراد السنة، هناك ايضاً أكراد شيعة يسمون الفيليين، وهناك تركمان شيعة وتركمان سنة وهناك مسيحيين آشوريين وكلدان وأزيديين وشبك وصابئة الخ. كان العراق خاضعاً للإمبراطورية العثمانية التي لم يعترف بحكمها الشيعة لأنهم كان يعاملون على أنهم مواطنين من الدرجة الثانية أو تبعية فارسية.

وبعد الحرب العالمية الأولى وتفكيك الإمبراطورية العثمانية أسس البريطانيون العراق الحديث بحدوده الحالية من جمع ولايات البصرة والموصل وبغداد في كيان سياسي واحد ووضعوا على رأسه أحد أبناء الشريف حسين شريف مكة وهو الأمير فيصل الأول الذي توجوه ملكاً على العراق، وهو سني رغم انحداره من العائلة الهاشمية التي تنتسب لبني هاشم قبيلة النبي والإمام علي وآل البيت. كان تأسيس العراق على يد بريطانيا هو لإتمام وتأمين الطريق البري نحو المستعمرات البريطانية الهندية ولكبح جماح آل سعود، وضم العراق الحديث فسيفساء سكاني متنوع المكونات الرئيسية الثلاثة فيه هي الشيعة والسنة والأكراد ومجموعة أخرى من الطوائف والأديان والقوميات المختلفة.

في سنة 1920 ثار شيعة العراق ضد الاستعمار البريطاني لكن الانجليز أخمدوا الثورة بالحديد والنار بالتعاون مع حلفائهم الهاشميين ومنحوا العراق استقلالاً شكلياً سنة 1930 ونصبوا على العراق ملكاً هاشمياً من أبناء الشريف حسين هو الأمير فيصل الأول من أهل السنة ومعه أغلبية المراكز الرئيسية السيادية في الدولة الجديدة من الأقلية السكانية السنية العربية. لم يفلت

العراق الجديد من لعبة المنافسات الدولية إبان الحرب الباردة بين الكتلتين الاشتراكية والرأسمالية وتحول الى عنصر ضغط ومناورة لتطويق الاتحاد السوفيتي باعتباره أحد الموقعين على حلف بغداد سنة 1955. وفي سنة 1958 تفجرت أول ثورة على يد الجيش قلبت نظام الحكم وحولته من الملكية إلى الجمهورية بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم وتحالف هجيني بين عدد من الأحزاب والقوى السياسية العراقية المتنافرة من بينها الحزب الشيوعي وحزب البعث والحزب الوطني الخ. وفي تلك الفترة بدأت هجرة واسعة من الريف الى المدينة في جميع انحاء العراق قام بها الشيعة الفقراء بحثاً عن لقمة العيش وتشكيل طبقة من الفقراء والكادحين المهملين من قبل السلطة المركزية السنية الأمر الذي استثمره الحزب الشيوعي لتعبئة الشارع الشيعي وضمه لصفوف الحزب وتحويل هذه الأعداد الهائلة من البروليتاريا الى مناضلين اشداء مما أثار حفيظة المرجعية الدينية الشيعية في العراق وخشيتها من تغلغل الفكر الإلحادي الشيوعي بين صفوف الشيعة عبر عدة أجيال فبادرت النخبة الشيعية في الحوزة بقيادة آية الله محمد باقر الصدر بتأسيس حزب الدعوة الإسلامية سنة 1957 لبث الوعي السياسي الديني بين الشباب الشيعي. وتحالفوا مع حزب البعث لإطاحة الجنرال قاسم وحليفه الحزب الشيوعي العراقي سنة 1963.

قام الجيش العراقي بقيادة الجنرال عبد السلام عارف بحركة انقضاض على حزب البعث أو على جناحه المدني وابعاده عن السلطة سنة 1964 ثم عاد حزب البعث الى السلطة بانقلاب

عسكري سنة 1968 وناصب الشيعة العداء وحارب بشراسة وعنف لا مثيل له حزب الدعوة الإسلامية الشيعي وأعدم الآلاف من منتسبيه خاصة بعد احتكار صدام حسين لجميع السلطات والمناصب المدنية والعسكرية في الدولة سنة 1979. حاصر نظام صدام حسين الدكتاتوري ذو الطبيعة الاستخباراتية المجتمع الشيعي العراقي برمته وخاصة الحوزة الدينية والمرجعية، ثم قام بإعدام مؤسس حزب الدعوة المرجع الديني آية الله العظمى محمد باقر الصدر سنة 1980 وشن حرباً شعواء ضد إيران الشيعية بعد اندلاع الثورة الإسلامية بقيادة آية الله العظمى الإمام الخميني أستاذ المرجع الديني العراقي آية الله الصدر. لقد غيرت الثورة الإسلامية في إيران كافة المعطيات الجيوسياسية والجيواستراتيجية في المنطقة وكان تأثيرها كبيراً على توازنات القوى الاجتماعية في العراق. وخاف نظام صدام حسين من ظهور وعي سياسي ومطالبي لدى الشيعة في العراق على غرار من حدث في إيران فزج الشيعة في حرب تدميرية عبثية ضد إيران كان شيعة العراق هم وقودها وفي الصفوف الأولى في جبهات القتال.

جيوبولتيك التشيع في الوقت الحاضر:

كانت سنة 1977 قد شكلت انعطافه في حياة الدولة الإيرانية يمكن أن نسميها ربيع طهران الذي انطلقت شرارته في أعقاب رسالة مفتوحة بعثها علي أصغر حاج سيد جوادي لشاه إيران، وكانت المفاجأة أن هذا الباحث الجريء لم يعتقل أو يسجن ولم يتعرض للتعذيب والملاحقة كما هو حال الآلاف من المثقفين

الإيرانيين، مما شجعهم على التحدث والنقاش والنقد على خلفية وصول جيمي كارتر لسدة الرئاسة في الولايات المتحدة الأمريكية الذي تم انتخابه بفضل برنامجه لصالح حقوق الانسان. اسند نظام الشاه مهمة قمع المعارضين للبوليس السري السافاك وادعى أنه لم يكن يعلم بالتجاوزات والانتهاكات التي ارتكبها هذا الجهاز القمعي الرهيب على يد عناصر منفلتة وغير منضبطة. وكلما تصاعدت وتيرة القمع والممارسات القمعية الدموية وعمليات التعذيب اللاإنسانية، كلما تفاقمت حركة الاحتجاجات الجماهيرية. وفي شهر شباط فبراير 1978 تعبأة الجماهير الشيعية في تبريز بمناسبة مراسم العزاء الدينية في عاشوراء وهوجمت مقرات السلطة ومؤسساتها الحكومية وأحرقت رموز النظام الامبراطوري الشاهنشاهي ورموز الحضارة الغربية المنحطة برأيهم كدور السينما ومحلات الموضة الفاخرة ومحلات بيع الكحول الخ..، وكانت بمثابة شرارة انطلاق الثورة الإسلامية. لم يستطع البوليس وقف التظاهرات والتمرد الجماهيري فاستعان بقوات الجيش الذي فتح النار على المتظاهرين وكانت الحصيلة سقوط مئات الضحايا من المدنيين والمتمردين من قادة التمرد الجماهيري. التحق البازار الإيراني وطبقة التجار بحركة التمرد وأعلنوا الإضراب العام احتجاجاً على القمع الدموي والفساد المستشري في جسد النظام الامبراطوري. اقتنص الإمام الخميني المعارض للشاه منذ العام 1963 والمنفي منذ ذلك الوقت في العراق الفرصة ليقود المعارضة من منفاه العراقي لكن صدام حسين أرغمه على مغادرة النجف حيث كان يعيش ويدرس في

الحوزة فاتجه الى فرنسا في نوفل لوشاتو. أعلن النظام الإيراني حالة الطوارئ وفرض الاحكام العرفية وأطلق الجيش النار على المتظاهرين في الجمعة السوداء في 8 أيلول سبتمبر 1978. كانت الولايات المتحدة مرتبكة وتخشى فقدانها حليفها الاستراتيجي شرطي الخليج كما كانوا يسمونه. كانت الجمعة السوداء تمثل الضربة القاصمة بالنسبة لنظام الشاه ولم يعد ممكنناً العودة الى الوراء وتبلورت مطالب المتظاهرين وتصلبت وصارت تطالب بإسقاط الشاه وانتشرت حركة الاحتجاج وامتدت الى الطبقة الوسطى وهي العمود الفقري للنظام وأعلن الاضراب العام وتوقف صادرات النفط وهي تطورات شلت البلاد كلياً، وأمر الإمام الخميني الناس الصعود الى سطوح المنازل والبنايات في الساعة الثامنة مساءا والصراخ بنداء الله أكبر وليسقط الشاه فلبى الناس هذا النداء. شعر النظام بالهزيمة والخذلان داخليا وخارجياً ونزل للشوارع أكثر من ملوني متظاهر في شوارع طهران بمناسبة عاشوراء في 10 و11 ديسمبر 1978 وشعرت السلطة بعجز تام عن وقف هذا المد الجماهيري وتفاقم الوضع فغادر الشاه إيران ودخل الإمام الخميني منتصرا حيث استقبلته الملايين بحفاوة وهم يرددون استقلال حرية جمهورية إسلامية، وهي رسالة مبطنة للعلمانيين بأن العهد القادم سيكون إسلامياً بامتياز. هرب آخر رئيس وزراء للشاه وهو المعارض السابق شاهبور بختيار وحل محله أول رئيس وزراء للثورة الإسلامية وهو المهندس مهدي بزركان في ظرف بالغ الصعوبة والخطورة والتدهور اقتصادياً وأمنياً وعسكرياً بعد تفكك الآلة العسكرية

وهروب أو مقتل القادة العسكريين والأمنيين. وتم تأسيس حزب الجمهورية الإسلامية بعد الثورة مباشرة الذي صار يطارد أتباع الشاه ويصفيهم ثم التفت لمحاربة الليبراليين والعلمانيين والشيوعيين ابتداءاً من عام 1980 وقتل منهم أكثر من 10000 شخص. ودفع الآلاف من اليهود والبهائيين والمسيحيين والسنة للهجرة والمنفى. تبنت إيران رسميا صفة الجمهورية الإسلامية في الأول من نيسان أبريل 1979 في أعاقب استفتاء شعبي أجري وكان مؤيداً بنسبة 98٪ وهكذا نشأت أول دولة شيعية رسمياً منذ 1501 سنة وتمت الموافقة في 12 ديسمبر من نفس العام على أول دستور للجمهورية الإسلامية عبر الاستفتاء العام. واستند النظام السياسي الإيراني الجديد على الإسلام الشيعي وحكومة يقودها الولي الفقيه المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية وهو آية الله العظمى المرجع الديني روح الله الخميني مع وجود مظاهر للنظام الجمهوري مثل الانتخابات العامة لرئيس الجمهورية، الذي حددت ولايته بأربع سنوات تجدد مرة واحدة، وانتخابات للسلطة التشريعية والبرلمان أو مجلس الشورى، إلا أن القائد الحقيقي للنظام هو المرشد الأعلى الولي الفقيه. وانتشر ممثلو الإمام القائد في كل مكان في الجامعات والمؤسسات الحكومية العامة وفي كل مفاصل الدولة وألغي الاختلاط بين الجنسين وفرض لبس الحجاب على النساء وتم تشكيل ميليشيات مسلحة بموازاة الجيش والشرطة تمثلت بحراس الثورة والباسيديج أو المتطوعين لحماية النظام وفرض أحكامه قسراً وبالقوة على الناس. وعلى صعيد السياسة الخارجية أعلنت إيران مبدأ لا شرقية ولا غربية

إلا أن العلاقات مع الاتحاد السوفيتي السابق كانت طبيعية وودية في حين أنها تدهورت وتشنجت مع الولايات المتحدة الأمريكية والغرب وإسرائيل ووصف الخميني الولايات المتحدة الأمريكية بالشيطان الأكبر وإسرائيل بالشيطان الأصغر. وفي 4 نوفمبر 1979 هاجمت مجموعة من الطلاب والشباب السائرين في خط الإمام مبنى السفارة الأمريكية واحتجزوا 52 دبلوماسياً أمريكياً كرهائن. كان ذلك الحدث فريداً على صعيد العلاقات الدولية واستمرت محنة الرهائن لأكثر من عام وكانت بمثابة صفعة وإهانة كبيرة لهيبة الولايات المتحدة الأمريكية وللرئيس جيمي كارتر، ولقد قررت إيران إطلاق سراح الرهائن في يوم انتخاب رونالد ريغان رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية خلفاً لجيمي كارتر. قطعت الجمهورية الإسلامية على الفور العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل وكان أول زعيم سياسي تتم دعوته رسمياً من قبل النظام الإيراني الجديد هو ياسر عرفات وحولت السفارة الإسرائيلية الى مقر لمنظمة التحرير الفلسطينية. كانت الجمهورية الإسلامية في إيران تطمح في تصدير ثورتها للعالم الإسلامي برمته مما جعل دول الخليج العربية التي تضم أقليات شيعية بين صفوف شعبها، تخشى من عدوى النموذج الإيراني وشعرت بتهديد الثورة الإيرانية الشيعية عليها. مما دفعها لحث وتشجيع نظام صدام حسين السني على مهاجمة إيران في سنة 1980 ودعمه بالمال والسلاح ودعم وتشجيع وتأييد علني أو مبطن من قبل الدول الغربية. لكن العراق فشل في زعزعة نظام الجمهورية الإسلامية ناهيك عن إطاحته، ودامت الحرب الدموية

ثمانية أعوام تسببت بمقتل مليون شخص وأكثر من ذلك من الجرحى والمصابين والمعوقين والأسرى واستنزاف للقدرات البشرية والاقتصادية للبلدين لكنه نجح في منعها من تصدير ثورتها للدول العربية ولم تنجح إيران في تعبئة الأقليات الشيعية الموجودة في دول الخليج ولا الأغلبية الشيعية في العراق وتلبية نداء المرشد الأعلى للثورة الإسلامية للثورة على الأنظمة القائمة في الوطن العربي ولم تنجح إيران سوى في تأسيس حزب الله اللبناني.

اتخذ التنافس السني الشيعي في العالم الإسلامي في القرن العشرين الطابع السياسي الحزبي المنظم منذ تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في مصر في بدايات القرن المنصرم وانتشارها في سورية والعراق، وظهور الحركة الوهابية في العربية السعودية، بالرغم من وجود قضايا مشتركة بينهما كالقضية الفلسطينية، على الأقل ظاهرياً. وبالرغم من كون الشيعة أقلية في العالم الإسلامي، إلا أن لهم حضور ملموس ومتميز بالرغم من قلة عددهم الذي يقارب 140 مليون من مجموع مليا ر ونصف المليار مسلم في العالم. وهم لا يتجاوزون نسبة العشرة بالمائة، فهم يشكلون نسبة 98٪ من مجموع سكان إيران و 80٪ من سكان أذربيجان و 75٪ من سكان البحرين و 65٪ من سكان العراق من العرب والكورد والتركمان و 30٪ من سكان لبنان و 25٪ من سكان الكويت 20٪ من سكان تركيا ونفس النسبة في أفغانستان والباكستان و 10٪ من سكان العربية السعودية، بعضهم ثار وتمرد على أوضاعهم المزرية ومعاملته كمواطنين من الدرجة الثانية

وربما أدنى من ذلك، والبعض الآخر يتحين الفرص وينتظر الوقت المناسب، وبعضهم وصل للسلطة في ظروف خاصة كما في العراق أو فرض وجوده بقوة السلاح كما في لبنان وثاروا على تهميشهم الاجتماعي والسياسي.

لم ينقطع الصراع السني الشيعي الدائر منذ قرون عديدة لكنه تجذر منذ تبني الصفويين للمذهب الشيعي في إيران كمذهب رسمي للدولة في القرن السادس عشر الميلادي وتحولت الى ما يشبه الفاتيكان الشيعي، الأمر الذي يفتقد إليه السنة رغم غالبيتهم السكانية. في سنة 1979،وبعد الغزو السوفيتي لأفغانستان وتفجير الثورة الإسلامية في إيران، تحققت انطلاقة هائلة للإسلام الراديكالي بشقيه الآيديولوجي التبشيري والجهادي التكفيري ذي الممارسات الإرهابية والعنفية، ولقد برز في هذا الإطار شخص مهم كان وراء الكثير من التطورات عالم الإسلام الجهادي التكفيري وهو الأمير تركي الفيصل بن عبد العزيز الذي قاد المخابرات السعودية لعقود طويلة في المملكة العربية السعودية وكان وراء التحول الجذري في الباكستان سنة 1977، من المدرسة الحنفية المعتدلة الى المدرسة الحنبلية المتشددة التي أفرزت الحركة الوهابية المستندة الى تعاليم إبن تيمية ومحمد عبد الوهاب والتي أصبحت المذهب الرسمي في السعودية وقطر وزحفت بفعل المال وشراء الذمم الى كافة بلدان العالم الإسلامي كالخلايا السرطانية، ولقد أسس تركي الفيصل، بذريعة تحرير أفغانستان، الفرقة الإسلامية العالمية المقاتلة التي تجند أفرادها وقادتها من جميع الدول الإسلامية بفضل المال

السعودي والسلاح الأجنبي والسوق السوداء حيث يتم تحشيد وتعبئة وتجهيز المتطوعين وارسالهم الى أفغانستان لمحاربة السوفييت وكان على رأسها الفلسطيني عبد الله عزام ثم أعقبه بعد اغتياله خلفه المليارديـر السعودي من أصل يمني أسامة بن لادن سنة 1982 الذي تم تجنيده لهذه المهمة لمساعدة الأمريكيين في حربهم غير المباشرة ضد السوفييت وقام هذا الأخير بوضع قاعدة بيانات وسجلات ووثائق بالمقتلين والمال والسلاح الموجود تحت تصرفه لذلك سميت منظمته فيما بعد بالقاعدة. دفعت السعودية ودول الخليج ومن خلفهم الغرب صدام حسين لشن حرب ضد إيران سنة 1980 وكان الريس العراقي يعتقد أن مهمته ستكون بمثابة نزهة عسكرية لكنه تورط في حرب دامية ومنهكة استنزفت موارده المالية والعسكرية والبشرية طيلة ثمان سنوات دامية خرج منها مثخن بالجراح وغارق في مستنقع الديون ورمالها المتحركة. وبعد نهاية الحرب طالب صدام حسين حلفائه العرب الخليجيين المقابل المادي لحمايتهم من الخطر الإيراني لكنهم رفضوا شطب أو إلغاء ديونه وامتنعوا عن تقديم ما يحتاجه من أموال لإعادة بناء ترسانته العسكرية فشن حملة عسكرية سنة 1990 وغزا الكويت وسرق منها كل ما وقع بين يديه وهدد العربية السعودية عند ذلك اقترح بن لادن وضع مقاتليه في تنظيم القاعدة تحت تصرف المملكة العربية السعودية ومهاجمة قوات صدام في الكويت وإخراجه منها لكنهم رفضوا هذا الاقتراح ولجأوا للحماية الأمريكية الأوروبية الغربية مما أثار سخط بن لادن عليهم. ومنذ سنوات التسعينات خاضت إيران دبلوماسية

الاعتراض على سلطة أحادية القطب العالمية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية وحدها بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وبالتحالف مع الحليف السوري وحركات المقاومة اللبنانية والفلسطينية ممثلة بحركتي حزب الله وحماس المدعومتين من إيران. خاصة. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية قد سحبت يدها من الشأن الأفغاني تاركة أفغانستان نهباً لحرب أهلية. في ذلك الوقت هاجمت قوات تحالف الشمال الأفغانية السنية المدعومة أمريكيا بقيادة شاه مسعود قبائل الهازارا الشيعية في أفغانستان وارتكبت مذابح بحقهم سنة 1992 لأسباب مذهبية بحتة. وفي مصر حسني مبارك كان النظام المصري المتحالف مع الولايات المتحدة يعيش حالة من الترهل والجمود والفساد الذي تتوج بمشروع لتوريث لجمال مبارك خلفاً لأبيه مما أثار حفيظة المصريين ودفعهم للثورة في شباط 2011 في أعقاب الشرارة التونسية فيما عرف فيما بعد بالربيع العربي. ومن ثم قفز الإسلاميون في جماعة الاخوان المسلمين بالتحالف مع السلفيين وبقايا الجهاديين الى السلطة إثر انتخابات آيار مايو 2012، لكنهم فقدوها بثورة شعبية عارمة بعد سنة من الممارسات الخاطئة ومحاولتهم أخونة مصر ومؤسساتها فانقلب عليهم الجيش مؤازراً الغضب الشعبي المتفجر بنزول 33 مليون مصري في الساحات والشوارع مطالبين بتنحية محمد مرسي الرئيس الإخواني المنتخب الذي في عهده تم إعدام أربعة مواطنين شيعة وسحلهم في الشوارع والتمثيل بجثثهم، كما تململ الشيعة العليون الذين تصل نسبتهم إلى 17٪ من حكم الإخوان المسلمين الأتراك بقيادة

رجب طيب آردوغان خاصة بعد تدخل تركيا السنية بالشأن السوري على نحو وقح ومباشر وتحريضهم لسنة سوريا على الأقلية العلوية التي ينتمي إليها أغلب قادة النظام السوري(*).

(*) بلغت عدد صفحات الكتاب 250 صفحة وصدر في أواسط عام 2013 عن منشورات غراسيه وتضمن ثلاثة أقسام حيث كرس القسم الأول لأصول وجذور التشيع تاريخياً وهو الذي عرضناه أعلاه في مقالتين، بينما كرس القسم الثاني لبحث الخلافات العقائدية ولخصوصية التشيع باعتبار التشيع تيار رئيسي وفي نفس الوقت أقلية في المجتمع الإسلامي وتميزه بممارسات وشعائر وطقوس خاصة مثل التعزية وطقوس عاشوراء وغير ذلك مع لمحة سريعة لتطور التشيع تاريخياً منذ الأصول إلى يومنا هذا. أما القسم الثالث فقد خصصه المؤلف لجيوبولتيك التشيع في الوقت الحاضر من خلال الحديث عن الثورة الإسلامية في إيران وتنامي الفكر الشيعي وانتشاره وتوزعه الجغرافي وطبيعة السلطة الإيرانية وهل يجب أن نخشى إيران. مع مجموعة من الوثائق والخرائط والمصطلحات. وسنكرس المقالات القادمة لعرض القسمين الثاني والثالث من الكتاب.

أنطوان صفير كاتب ومحلل سياسي فرنسي من أصل لبناني مدير ومؤسس مجلة كراسات الشرق ورئيس مركز دراسات وأبحاث الشرق الأوسط:

Centre d’Etudes et de Recherche sur le Proche-Orient (CERPO).

وهذا هو آخر كتبه المعنون: «الإسلام ضد الإسلام L’ISLAM CONTRE L’ISLAM» الصادر سنة 2013 عن الحرب الدائمة بين السنة والشيعة والحائز على جائزة كتاب حقوق الإنسان في نانسي سنة 2013.

الفصل الرابع

قراءة في كتاب:

السنة والشيعة لماذا يتقاتلون؟

Sunnites Chiites Pourquoi ils s'entretuent?

مارتين غوزلان

وهي كاتبة وصحافية متخصصة بالعالمين العربي والإسلامي. نشرت عدة كتب منها: «الإسلام والجمهورية سنة 1994» و«لنفهم التشدد الإسلامي سنة 1995 والطبعة الثانية المنقحة للكتاب نشرت سنة 2002» و«جنس الله سنة 2004» و«الرغبة في الإسلام سنة 2005» وأعيد نشره في طبعة ثانية في سلسلة كتب الجيب سنة 2008. وهي تعمل اليوم رئيسة تحرير مجلة ماريان الأسبوعية.

يتصدر الكتاب إهداء إلى الصحافية والشاعرة والروائية العراقية الشهيدة التي قتلت غدراً في 22 شباط 2006 بعد أن خطفت على يد الإرهابيين التكفيريين من تنظيم القاعدة،أطوار بهجت مراسلة قناة العربية الفضائية وهي من أم شيعية وأب سني ومن مواليد مدينة سامراء.

في المقدمة التمهيدية للكتاب ركزت الكاتبة على حادثة اغتيال

الإعلامية العراقية الشهيدة أطوار بهجت وتطرقت إلى تفاصيل كثيرة ودقيقة عن ظروف عملية الاغتيال وأسبابها وخلفياتها في أعقاب تفجير مرقدي الإمامين العسكريين المقدسين الشيعيين في سامراء مسقط رأس الصحافية حيث انطلقت من هناك بوادر حرب أهلية - طائفية مدمرة وانفتح جرح لم يندمل منذ قرون وكاد أن يغرق العراق ببحر من الدماء. حيث صار يذبح كل فرد من أبناء الطائفتين يقع بين أيدي المسلحين من الطائفة الأخرى لا لشيء إلا لأنه يحمل اسم عمر أو عثمان، علي، أو حسين.. وتساءلت الكاتبة في مقدمتها إلى متى يعود تاريخ هذا الحقد الدفين بين الطائفتين؟ ولماذا يتقاتل أبناء محمد فيما بينهم؟ ولو عاد نبي الإسلام إلى الحياة هل سيصبح سنياً أم شيعياً؟ ولماذا يدفع أبناء الإسلام الأبرياء ضريبة الدم هذه ولمصلحة من؟ خاصة وأن هذا الأمر لا يقتصر على العراق بل يوجد مثيلاً له في كل مكان يتواجد فيه شيعة وسنة في لبنان والباكستان وأفغانستان والهند ولبنان ومصر والسعودية والبحرين والكويت وسوريا واليمن ودول الخليج الخ.. ولكن بدرجات متفاوتة.

ومنذ البداية وجهت الكاتبة أصابع الاتهام لهذا الصراع المذهبي الدامي إلى التنافس والتناحر الشديد بين قطبي الإسلام المعاصر وهما إيران والعربية السعودية وكيف يقوم الأمير بندر بن سلطان سفير المملكة السابق في واشنطن بتمويل الجماعات السنية المسلحة لمواجهة المد الشيعي، ومسؤولية الأيديولوجية الوهابية المتشددة والمتعصبة في تأجيج الصراع منذ عقود طويلة. وتطرقت الكاتبة إلى أمثلة عديدة على ذلك في العراق ولبنان وسورية والباكستان وأفغانستان. وكانت هذه المقدمة غنية ومليئة بالأمثلة

والأرقام والإحصائيات والأدلة والشواهد الحية المعاصرة والتاريخية.

الفصل الأول حمل عنوان: إلى متى يعود عهد هذه القطيعة؟

وبالتالي فالكاتبة تفترض مقدماً أن هناك قطيعة شبه نهائية قد حصلت في جسم العالم الإسلامي منذ بدايات الرسالة. وتذكر بالتحديد تاريخ يوم من أيام شهر حزيران سنة 632 وتقول أنه يوم الاثنين بينما يقول بعض الشيعة أنه يوم خميس وسمي بيوم الرزية. في ذلك اليوم اندلع الانشقاق والاختلاف عندما كان نبي الإسلام ومؤسس الرسالة وقائد الأمة يحتضر على فراش الموت في غرفة زوجته الشابة والمفضلة عائشة بنت أبي بكر الصديق، حسب رواية المؤرخ الإسلامي الطبري، الذي استندت إليه الكاتبة. وكانت شرارة السباق على الخلافة قد انطلقت بعنف وقوة وسط أجواء مشحونة وتوتر ينطوي على استعداد لحسم الموقف بقوة السلاح كما يلخصها الطبري في كتابه تاريخ الطبري، وفي الجزء الثالث منه الذي كان بعنوان «محمد خاتم الأنبياء» المترجم إلى اللغة الفرنسية من قبل هيرمان زوتنبيرغ والمنشور سنة 1989. وكان مؤلف السيرة، الإمام الطبري قد كتب كتابه بعد مضي قرنين على ذلك الحدث أي وفاة الرسول. وحاول المؤرخ أن ينتزع من هنا وهناك نتفاً من الحقيقة الضائعة عن بداية هذا الدين السماوي التوحيدي الثالث وتسليط الضوء على اللحظات الأولى للمواجهة العنيف بين أتباع هذه الطائفة أو تلك للحصول على الخلافة.

وحتى لحظة الوفاة وأثناءها وبعدها كان الجو ينذر بالخطر وقد بقي جثمانه بعد الوفاة ثلاثة أيام قبل دفنه وهو أمر غريب في عرف ذلك الزمن وفي مناخ شديد الحرارة تتفسخ فيه الجثث بسرعة لذلك تدفن في نفس يوم الوفاة. لأن الجميع كان منشغلاً بأمر الخلافة عدا الإمام علي ابن أبي طالب، صهر النبي وابن عمه، الذي كان يهتم بأمور التغسيل والتكفين والدفن وطقوس الصلاة على الميت بينما تتواجه القبائل والزعامات والشخصيات الطموحة، من أنصار ومهاجرين، في المدينة التي فقدت وحدتها وتآخيها وأخلاقها وقيمها التي أرساها مؤسس الإسلام، وحدد فيها كل شيء تقريباً، من حقوق وواجبات على كل مسلم ومسلمة، ماعدا مسألة الخلافة كما يدعي جزء كبير من المسلمين الذين يعرفون اليوم بأبناء السنة والجماعة. بينما يؤكد خصومهم ومنافسيهم المعروفين اليوم بالشيعة أن النبي لم يرحل عن الحياة قبل حسم هذا الأمر الشديد الأهمية واختار علياً وصياً وخليفة له لاسيما في خطبة الوداع في غدير خم لهداية أتباعه والمؤمنين برسالته.

تطرقت الكاتبة في هذا الفصل إلى جميع الأحداث والتفاصيل التاريخية التي كانت سائدة في المدينة في ذلك الوقت العصيب خاصة فيما يتعلق بأهل البيت وأصحاب الكساء أي فاطمة وعلي والحسن والحسين، ولديهما الصغيرين آنذاك، الملتفين حول جثة الحامي الأول لهم والذي فقدوه والحزن يلفهم بينما كان الآخرون يجتمعون في سقيفة بني ساعدة للتفاوض بشأن مصير الإسلام ومستقبله وهم الصف الأول من الصحابة الطامحين

للحصول على السلطة بأي ثمن حتى لو كان بقوة السلاح في أجواء تشبه ما يحدث اليوم إبان الانقلابات العسكرية. كان الأنصار يرفضون قيادة منفردة من المهاجرين تتسلط عليهم ويطالبون بقيادة ثنائية، أو شخص يختاروه هم، وكان الشخص الوحيد الذي يمكن أن يرضي قواعد الطرفين الشعبية هو علي ابن أبي طالب وهو أول من أسلم من الذكور وعمره عشر سنوات والذي قاتل واستبسل من أجل الإسلام في كل معاركه وتقلد سيف الرسول ذو الفقار.

ثم تناولت الكاتبة بأسلوب النقد والتعليق حيثيات ما جرى في السقيفة وكيف تمكن أبو بكر والد عائشة زوجة النبي، وبمساعدة عمر ابن الخطاب، من فرض الأول كخليفة للمسلمين وأخذ البيعة له بالقوة وكيف حاول أبو سفيان عدو النبي اللدود في معسكر المشركين قبل فتح مكة أن يلعب على هذا الانقسام ويستغله ويكيد للإسلام عندما ذهب لعلي ليغريه بالتمرد على خلافة أبو بكر واستعداده لجمع جيش جرار من قبائل مكة تحت قيادة علي للإطاحة بسلطة أبو بكر وعمر إلا أن علي رفض التحالف مع أبو سفيان وفضل السكوت على مضض حماية للإسلام من الانشقاق والتفتت والتشرذم، وهو يعلم أن أبو سفيان لديه مصالح شخصية، ويكن كرهاً دفيناً للإسلام، وتتملكه رغبة في الانتقام، ولا يهمه صالح الإسلام والمسلمين. وعندما لم يجد أبو سفيان آذاناً صاغية لدى علي بن أي طالب تحالف مع أبو بكر وعمر بشرط أن تعطى ولاية الشام لأحد أبنائه وهكذا حصل. اتفق رهط من الصحابة على منع أهل البيت من الجمع بين النبوة والخلافة حتى لا يحدث

تقليد يحدد الخلافة حصراً ببيت النبوة وسلالة النبي. اللغز الكبير الذي ظل بلا جواب هو لماذا صمت الإمام علي على حقه إذا كان مقتنعاً بأنه منصوص عليه من السماء؟ إن ذريعة المحافظة على الوحدة الإسلامية وتماسك الدين غير كافية لتبرير هذا الموقف المسالم، والدليل أن الإسلام انشق على نفسه، ووحدته تعرضت ومازالت تتعرض للخطر منذ 1500 عام. ثم استعرضت الكاتبة خطوات الخليفة الأول لترسيخ سلطته وشنه لحروب الردة يساعده في ذلك الرجل الثاني في النظام وهو عمر ابن الخطاب. ومحاولة الثاني إرغام العائلة العلوية على المبايعة ولو بالقوة واستغناء أبو بكر عنها طالما كانت فاطمة بنت النبي محمد على قيد الحياة، لاسيما بعد رفض الخليفة منحها إرثها من أبوها في منطقة فدك، وهي ملكية يهودية آلت إلى النبي بعد دحر اليهود كغنيمة أورثها لفاطمة لكن أبو بكر صادرها بحجة أن ألأنبياء لا يورثون أو هكذا ادعى أنه سمع النبي يقول وهو الوحيد الذي كان مصدرا لهذا الحديث الذي لم يسمعه غيره من الصحابة.

وهكذا برز مفهومان للإسلام، الأول يقف إلى جوار الفقراء والضعفاء والآخر يقف مع الأغنياء الارستقراطيين والأقوياء، الأول يتزعمه قائد قريب من الموت وزاهد في الدنيا ولا يسعى إلى السلطة بأي ثمن والثاني نقيضه تماماً. كانت سلطة الخلافة الأولى براغماتية واستفرادية أو إقصائية تحابي بعض الصحابة وتهمل البعض الآخر، وكانت دنيوية بحتة التف حولها القادة العسكريون وقادة الفتوحات والأغنياء من الصحابة وابتعد عنها المستضعفون والمثاليون من أمثال أبو ذر الغفاري وعمار ابن ياسر

وسلمان الفارسي والمقداد ابن الأسود وغيرهم. وقد كرست الكاتبة صفحات كثيرة للحديث عن فاطمة الزهراء ومكانتها عند النبي ودورها قبل وبعد وفاة النبي حيث توفيت بدورها بعد الرسول بستة أشهر ودفنت سراً بناءاً على طلبها حتى لايشارك في تشييعها ودفنها باقي الصحابة لكسب رضاء الرب والنبي وشفاعة أبوها الرسول، حيث ماتت وهي غاضبة على أبو بكر.

كما استعرضت الكاتبة حقبة الخلافة الراشدة الأولى والثانية في عهدي أو بكر وعمر وروت تفاصيل وملابسات حكم عثمان ابن عفان ومسرحية انتخابه المتقنة الصنع والإعداد ووقائع الفتنة الكبرى حيث كانت السلطة بيد التيار الموالي للخلفاء الثلاثة الأوائل قبل أن تطبق عليهم تسمية أهل السنة. ولكن بعد مقتل الخليفة الرابع عثمان آلت الخلافة بالإجماع في أول وهلة للإمام علي سنة 656، ولكن سرعان ما تمرد عليه عدد من الصحابة لاسيما الأثرياء منهم والطامعين بالخلافة إلى جانب زوجة الرسول عائشة بنت أبو بكر التي تكره علياً منذ فترة حادثة الأفك التي اتهمت فيها عائشة بالزنا ولكن بدون دليل إلى أن ثبتت براءتها بآية قرآنية وكان علي بن أبي طالب قد اقترح على النبي محمد تطليقها فلم تغفر له ذلك الموقف وظلت تحقد عليه إلى 'خر حياتها. فكانت أول من خرج على خلافة الإمام علي عسكريا بجيش جرار وخاضت ضده معركة دامية سميت بمعركة الجمل لأنها كانت تركب جملاً وتشجع المقاتلين على محاربة جيش الإمام العلي الذي يوجد من بين قادته أخوها محمد أبو بكر. وكان معها صحابة كبار من العشرة المبشرين بالجنة كطلحة والزبير اللذين قتلا في المعركة. ثم تمرد معاوية ابن أبي سفيان على خلافة

علي وخاض ضده معركة صفين التي كاد أن يخسرها لولا لجوئه لخدعة رفع المصاحف على أسنة الرماح واقتراح خدعة التحكيم. ثم تمرد جزء من جيش الأمام على علي بن أب طالب لقبوله بالتحكيم رغم شرعية حكمه وخلافته وسموا بالخوارج الذين حاربوا الإمام علي في معركة النهروان وتمكن أحدهم من اغتيال الخليفة الراشدي الرابع سنة 661 فانتهى عهد الخلافة الراشدة وبدأ عهد الحكم الملكي الوراثي الذي أرسى دعائمه معاوية ابن أبي سفيان في الشام وكانت بداية العصر الأموي الذي دام قرناً كاملاً.

فبعد اغتيال الخليفة الرابع الإمام علي كان من الطبيعي، في نظر أتباعه، أن يخلفه ابنه الكبير الإمام الحسن إلا أن هذا الأخير لم يجد معه قوة كافية لخوض مواجهة عسكرية مع معاوية والي الشام الطامع بالخلافة فتنازل له عنها بشروط لم يحترمها ولم يطبقها الخليفة الجديد الذي حول الخلافة إلى ملكية وراثية وظل يلعن الإمام علي من على منابر المسلمين في كل أرجاء الدولة الإسلامية. مات الإمام علي ولم يورث لعائلته سوى 700 درهم بينما كانت الملايين في بيت مال المسلمين تحت تصرف مؤسس الدولة الأموية معاوية ابن أبي سفيان ينفقها كما يشاء وكيفما يشاء. ولم يكتف معاوية بتنازل الحسن عن الخلافة بل اغتاله بالسم بواسطة إحدى زوجات الحسن بعد أن وعدها بتزويجها من إبنه الخليفة القادم يزيد. بيد أنه لم يف بوعده كعادته واغتال الزوجة المجرمة لتفادي خطورتها عليه وعلى إبنه. وحتى بعد وفاة الحسن بالسم أسيء إليه وعارضت عائشة زوجة جده دفنه بالقرب من قبر جده وأعلنت معارضتها علناً على ظهر جمل بحجة أن الأرض هي ملكية خاصة

لها وصوب حراسها السهام والنبال ضد نعش الحسن أثناء تشييعه وقبل دفنه، كما سبق لها أن حاربت والده علي من على ظهر الجمل وتسببت بمقتل آلاف المسلمين لذلك فإن لدى الشيعة مرارة خاصة من تصرفات عائشة ولا يضعها أحد منهم في قلبه ولا يحبها أحداً منهم. وهذه ليست سوى إحدى مظاهر سوء المعاملة التي لاقاها أهل بيت النبوة. وبقي أمام الخصوم والأعداء هدف أخير هو التخلص من عميد العائلة الهاشمية الباقي وهو الإمام الحسين وتصفيته جسدياً أو إرغامه على الانصياع والاستسلام والمبايعة ليزيد وهو ذليل وخانع. وهذا الكلام ورد نصاً كما هو في كتاب الباحثة الفرنسية التي واصلت رسم اللوحة السياسية ـ التاريخية لجذور الصراع العسكري المسلح بين شيعة الإمام علي وعموم أهل السنة الذين التفوا حول الخلافة الأموية الجديدة وأيدوها . وهكذا تم تمهيد الطريق أمام وصول يزيد إلى عرش الخلافة بعد وفاة والده معاوية. وأول هدف قرر يزيد تحقيقه هو التخلص من حفيد النبي محمد الإمام الحسين ابن علي رغم كثرة أنصاره ومؤيديه في جميع الحواضر الإسلامية عدا دمشق. خرج الحسين من المدينة بعد أن أصبح وجوده فيها يشكل خطراً على حياته ولجأ إلى الكوفة لكثرة الأنصار المؤيدين له والمعارضين للحكم الأموي، بعد أن تلقى منهم الرسائل التي تدعوه للقدوم ليكونوا مجندين تحت إمرته وقيادته. وقد وعد المسلمون في العراق بتجهيز 120 ألف مقاتل لنصرته وإطاحة مغتصب الخلافة المرتد وإبن الطلقاء يزيد إبن معاوية. بيد أن يزيد تمكن بالحيلة والمال وشراء الذمم وقتل وتصفية زعماء المتمردين أو سجنهم قبل وصول الحسين إلى الكوفة، من تفتيت التمرد وتطويق الحسين وعزله في

موقع يسمى كربلاء بالقرب من الكوفة وحال بينه وبين مياه نهر الفرات وبذلك غدا العطش أحد أبطال التراجيديا الكربلائية، كما قطع عليه طريق العودة بقوات عسكرية جرارة، وذلك في العشرة الأولى من شهر محرم حيث استشهد الإمام وأفراد عائلته الذكور وأتباعه المخلصين خلالها من اليوم الأول حتى اليوم العاشر من محرم الذي سقط فيه الحسين نفسه شهيداً ومضرجاً بدمه. وهي المأساة التي يحيي ذكراها الشيعة في العالم في كل عام إلى يومنا هذا ويوزعون الماء السبيل مجاناً في هذه المناسبة منذ قرون. وهي الطقوس التي منعها صدام حسين لسنوات طويلة وقصف قبر الحسين بالصواريخ أثناء الانتفاضة في آذار 1991 بعد حرب الكويت وقبل سقوط نظامه عام 2003.

ثم تمضي الكاتبة في عرض تفاصيل واقعة كربلاء بقلم موضوعي محايد ينشد الحقيقة وكيف تحدت السيدة زينب الخليفة يزيد في مقر خلافته في الشام التي توفيت فيها ودفنت هناك حيث رمم الإيرانيون قبرها ووسعوا مزارها ليغدو قبلة للزوار الشيعة من جميع أنحاء العالم. واعتبرت المؤلفة أن مأساة كربلاء هي الفعل المؤسس للتشيع المعاصر والمهد الدامي للثيولوجيا الشيعية. حيث وقع ذلك الحدث بعد أقل من نصف قرن من وفاة الرسول. ومنذ ذلك التاريخ انشطر الإسلام إلى شطرين متخاصمين وغير متكافئين بالعدد.

الجرح لم يلتئم بعد فالشيعة يعتبرون أن دم الحسين قد أريق من أجل بقاء رسالة الإسلام حية بينما يعتبره السنة حدثاً سياسياً ليس إلا دفع فيه الحسين ثمن تمرده على الخليفة.

وتحت عنوان فرعي هو: «القرآن الرهينة» تقرر مارتين غوزلان في كتابها أن الحرب الأهلية داخل الإسلام أخذت نص القرآن رهينة لديها. وأبحرت في قضية جمع نصوص القرآن وما رافقها من مشاكل وتحديات وتفسيرات ومشاكل عويصة حيث كانت توجد عدة صيغ وقراءات لسور القرآن المبعثرة في الصدور والذاكرة الجمعية وعلى العظام والجلود وسعف النخيل. وتذكر أن أتباع علي ابن أبي طالب أوجدوا في ذلك الوقت آيات يوصي فيها النبي بتسليم المهمة لابن عمه وصهره علي وقد أثارت تلك الحادثة الخليفة الثالث عثمان ابن عفان الذي شعر، لأسباب استراتيجية، بضرورة فرض صيغة موحدة للكتاب في كل أمصار العالم الإسلامي. فقد شكل الخليفة الثالث لجنة من الصحابة لجمع القرآن ومواجهة هذا التحدي والرهان الكبير مما أثار جدالاً واسعاً وخلافات كبيرة فالمعركة بشأن القرآن هي معركة الشرعية. وكان أتباع أهل البيت يبحثون في نصوص القرآن قبل جمعه سنة 650 ميلادية عن براهين ومبررات شرعية لمطالبهم مما يتيح لهم التنظير لإيديولوجيتهم فأقل حركة أو فاصلة أو نقطة أو سياق يمكن أن يغير المعنى المراد كلياً. وكانت طرق التدوين والكتابة في ذلك الوقت توفر مثل هذه الفرصة. أكد بعض الشيعة في ذلك الزمن أن الصيغة التي اختارها الخليفة الثالث كانت ناقصة ومحرفة، وهي صيغة الصحابي زيد واستبعاد بقية الصيغ والنسخ كنسخة إبن مسعود ونسخة علي ابن أبي طالب. وقالت تلك الأطروحة إن علي ابن أبي طالب وحده، الوريث والمتربي في كنه النبي وأقرب المقربين له، وهو الذي يمتلك النصوص الكاملة للكتاب المنزل حسب تصريح الباحث الإيراني المعاصر محمد علي أمير معزي ومعه

الفيلسوف والمستشرق كريستيان جومبيه اللذين كرسا سنوات طويلة من البحث والتقصي وسط تلك الغابة من النصوص والمصادر الشيعية القديمة. فالقرآن الحقيقي حسب هذين الباحثين هو أكبر ثلاث مرات من حجمه الحالي وأن الصيغة الأصلية الطويلة للقرآن كانت لدى علي ابن أبي طالب والذي أخفاها وانتقلت سراً من إمام إلى آخر إلى أن وصلت إلى الإمام الثاني عشر الذي غاب عن الوجود واختفى معه إلى الأبد النص الكامل للقرآن والمسؤول عن هذه الإشكالية وحيثياتها هم غالبية أصحاب النبي والشخصيات المؤثرة في قريش وعلى رأسهم أبو بكر وعمر الذين رفضوا قبول كافة النصوص الأصلية ووافقوا على الاستقطاعات للأجزاء الأهم من تلك النصوص التي كان يتضمنها القرآن الأصلي إلا أن أئمة الشيعة المتأخرين أمروا بالتغاضي عنها وعدم ذكرها بل والتخلي عنها والقبول بالصيغة الرسمية للقرآن التي فرضها الخليفة الثالث وأحرق غيرها من الصيغ والنسخ التي جمعها قراء آخرين كابن مسعود وغيره واختيرت صيغة زيد، وكان ذلك القرار الشيعي قد جاء خوفاً من ردة فعل السنة واتهامهم الشيعة بالزندقة والهرطقة والانحراف والخروج عن الدين كما فعل اليهود والنصارى الذين حرفوا كتبهم المقدسة. فعلى الصعيد الأيديولوجي تستند هذه النظرية إلى قول النبي بتحريف نصوص الأنبياء السابقين له على يد أتباعهم ومريديهم وينطبق ذلك على التوراة والإنجيل. وقد تنازل الشيعة عن معتقد تحريف القرآن كجزء من أصولهم وعقائدهم باسم البراغماتية والرغبة في التعايش النسبي المشترك مع باقي المسلمين لاسيما في القرن العاشر الميلادي إبان الحكم البويهي الشيعي في بغداد والحكم

الفاطمي الشيعي في مصر. حيث صدرت أوامر عليا بتبني النص المتداول حالياً كنص وحيد وكامل يرجع إليه المسلمون كافة شيعة وسنة، وبالتالي سيتركز الاختلاف في مجال التفسير والتأويل للنصوص الموجودة فيه. وقد اختلف المسلمون الأوائل في تسلسل السور والآيات، فوضعها بعضهم حسب تسلسل نزولها، ومعها حواشي تشرح أسباب النزول، وبمن نزلت، ولماذا، وكان منها مصحف فاطمة ومصحف علي إلا أنها اختفت كلها ولم يعد يذكرها أحد. وكتعويض عن هذا الجانب المهم في الطرح الشيعي لجأ الشيعة إلى التأويل والقول بالمعنى الظاهر للقرآن والمعنى الباطن الذي أصبح أرفع غاية للمعرفة الإسلامية، واقتصر فهم واستيعاب وإدراك المعنى الخفي للنص القرآني مقتصراً على الأئمة الإثني عشر من نسل فاطمة المعصومين الذين خصهم الله بالعلم اللدني وسبر أغوار القرآن ومعرفة أسراره الخفية. فالحقيقة تكمن في القرآن الباطن مثلما كان الحال مع الكابلا والمتصوفة اليهود فيما يتعلق بالتوراة.

وفي ختام الفصل استشهدت الكاتبة بشروحات الفيلسوف والمستشرق الفرنسي المتخصص بالإسلام الشيعي الإيراني هنري كوربان الذي ختم بالقول: «على عكس الإسلام السني، ذو الغالبية الساحقة في العالم الإسلامي، والذي يقول أن البشرية لاتنتظر شيئاً جديداً بعد الرسالة السماوية الأخيرة التي جاء بها النبي محمد، يترك الشيعة المستقبل مفتوحاً أمام العقيدة الإسلامية حتى بعد مجيء خاتم النبوة فهناك خاتم الولاية الذي يواصل مهمة بعث الرسالة. فالإمام علي قال بنفسه بعد معركة صفين ورفع المصاحف على أسنة الرماح: «إن القرآن حمال أوجه وهو نصوص

خفية بين دفتي الغلاف، ليس فيه لسان ناطق ويحتاج للتأويل» وهي المهمة التي سيتصدى لها الشيعة ويتخصصون فيها نحو مهمة إنقاذية أو خلاصية جديدة ترتبت على ما آلت إليه أحوال المسلمين بعد فاجعة كربلاء الأمر الذي يرفضه السنة جملة وتفصيلاً.

يختلف كثير من المؤرخين حول البداية الحقيقية للشيعة، والذي يشتهر عند الناس أن الشيعة هم الذين تشيعوا لعلي بن أبي طالب في خلافه مع معاوية بن أبي سفيان، ولكن هذا لا يعني أن أتباع علي بن أبي طالب هم الشيعة، وأتباع معاوية بن أبي سفيان هم السُنَّة. فهناك جزء مهم من السُنَّة يعتقدون أن الحق في الخلاف الذي دار بين الخصمين كان في جانب علي، وأن معاوية اجتهد ولم يصل إلى الصواب في المسألة، وعليه فانحياز فكر السُنة إلى علي بن أبي طالب في هذه القضية واضح.

ومن المؤرخين من يقول: إن بداية الشيعة كانت بعد استشهاد الإمام الحسين. وهذا رأي وجيه جداً، فقد عارض الحسين خلافة يزيد بن معاوية، واتجه إلى العراق بعد أن دعاه فريق من أهلها إليها، ووعدوه بالنصرة، ولكنهم تخلَّوا عنه في اللحظات الأخيرة، وكان الأمر أن استُشهد الحسين في كربلاء كما ذكرنا في القسم الأول من العرض، فندمت المجموعة التي قامت باستدعائه، وقرروا التكفير عن ذنوبهم بالخروج على الدولة الأموية، وحدث هذا الخروج بالفعل، وقُتل منهم عددٌ كبير، وعُرف هؤلاء بالشيعة. وهذا يفسِّر لنا شدة ارتباط الشيعة بالحسين بن علي. ومع ذلك فنشأة هذه الفرقة لم تكن تعني إلا نشوء فرقة سياسية تعترض على الحكم الأموي، وتناصر فكرة الخروج عليها، ولم يكن لها مبادئ

عقائدية أو مذاهب فقهية مختلفة عن أهل السُنَّة عدا موضوع الإمام الذي اعتبره الشيعة من الأصول. وبالتالي لا بد أن نفهم أولا نظرية (الإمامة) كما كان يقول بها المتكلمون الإماميون الأوائل الذين أسسوا لها. تقول نظرية (الإمامة الإلهية): ان الأرض لا يجوز أن تخلو من إمام (أي من حكومة ودولة) وان الإمام، أي الرئيس أو الخليفة أو القائد الأعلى، يجب أن يكون معصوما ومعينا من قبل الله، وان الشورى باطلة ولا يجوز انتخاب الإمام من قبل الأمة، وتقول النظرية الموسوية، المتفرعة عن الإمامية: إن الإمامة تتسلسل بشكل وراثي عمودي في ذرية علي والحسين إلى يوم القيامة. وهل يوجد مفهوم حقيقي ومعاصر لمصطلحي: «الشيعة» و«السنة»؟

أم إن هذه مفاهيم ومصطلحات تاريخية قديمة وجوفاء؟ وان الأمة الإسلامية اليوم قد تجاوزت الخلاف التاريخي القديم الذي حدث بين المسلمين في القرون الأولى حول شروط الخلافة ومواصفات الخليفة ومن هو أحق بها. وذلك بعد مضي أربعة عشر قرنا على ذلك الخلاف، وعدم وجود مصاديق خارجية لأهل البيت أو الأئمة المعصومين الذين قال الشيعة الامامية بانحصار الحق الشرعي في الخلافة بهم، من جهة، وكذلك انقراض الخلفاء العباسيين أو العثمانيين الذين قال السنة بحقهم في الخلافة، من جهة أخرى.

وإذا كان ثمة في التاريخ السحيق معنى معقول للخلاف الذي حدث بين المسلمين الأوائل حول الخلافة، فان ذلك الخلاف، لاشك، قد انطوى مع الزمن، ولم يعد له أي معنى جدي أو حيوي معاصر، ولم يعد يتمثل اليوم سوى في بعض المخلفات والقشور والعادات والطقوس والرواسب التاريخية.

ومـن هنـا فـان الأمـة الإسـلامية - شـيعة وسـنة - بـأمس الحاجـة اليوم لمراجعة ذلك الخلاف التاريخي ودراسته بدقة من اجل التخلص من رواسبه السلبية، والتحرر من مخلفاته التي قد لا تزال تشدخ الوحدة النفسية للمسلمين.. أو تؤجج بعض المعارك الوهمية بينهم.

وفي الحقيقة ان كلا من الشيعة والسنة بحاجة الى دراسة الأسس والعناصر التي كونت كلا من المذهبين السياسيين التاريخيين «التشيع» و«التسنن» وملاحظة التطورات الجذرية التي طرأت على المذهبين عبر التاريخ، ومعرفة العناصر المنقرضة والمظاهر المتبقية.. لعلهم يدركون أنهم لا يتمسكون اليوم سوى بأسماء وهمية وشعارات فارغة.. وأن الخلاف الجوهري بينهما قد ذهب مع التاريخ.

عودة إلى ما ورد في كتاب: السنة والشيعة لماذا يتقاتلون؟ لمارتين غوزلان

الفصل الثاني حمل عنوان: «هل هناك إسلامان؟»

إن الفكر العقائدي السني يحاول أن يدعم ويقوي ركائزه الأيديولوجية والعقائدية كونه مهووساً بهاجس التنافس الشيعي الذي يتعقب كل معنى خفي وكل إشارة وكل تفسير باطن يختفي وراء كل كلمة وآية في القرآن والأحاديث. فالفكر الثيولوجي السني يفضّل الترديد على البحث والتعمق والتقصي. فالمعلقين الأورثوذوكس السنة لايعلقون أو يجتهدون في التفسير والتأويل بل يكتفون بإعادة إنتاج وترديد النصوص السلفية القديمة. فكل شيء قيل وثبت وشهد

وتمت معايشته وكتب مرة وإلى الأبد وساد ذلك الفهم طيلة الحقبتين الأموية والعباسية. فالحاضر هو ترديد وقراءة مكررة للماضي وبالتالي لا يجب أن يتحرك، لذلك وجه «الإصلاحيون» المعترضون على السكون والجمود جل نشاطهم وطاقاتهم وتعطشهم للتغيير، نحو الماضي كالوهابيين في القرن الثامن عشر الميلادي والأخوان المسلمين في الربع الأول من القرن العشرين. فالإصلاح الممكن والمرغوب والمطلوب ليس ذلك الذي يعجل ويسرع الزمن، بل الذي يتسلق الزمن ويتقهقر نحو الماضي التليد. فالتقدم عند الإسلامويين يتمثل بالمضي على الأعقاب أي بخطوات إلى الوراء وليس إلى الأمام. ويتهمون أبناء السنة المعتدلين والتقليديين بأنهم تطورا كثيراً باتجاه شيطاني وتلوثوا بالبدع. فالعربية السعودية، التي جسدت السكون البدوي ـ الفاشي من خلال تبني المذهب الوهابي السلفي المتشدد والمتعصب، أفرزت معارضيها من داخلها وكانوا أكثر تشدداً وتعصباً وانحرافاً من مناصري وأتباع أسامة بن لادن والقاعدة والطالبان. وصاروا ينتقدوها ويلوموها على خنوعها وامتثالها للإملاءات والأوامر الأمريكية وحداثتها الشيطانية التي خانت الإسلام وشرائعه.

أما الجد الروحي للسلفيين المتعصبين والتكفيريين المنتشرين اليوم في كل مكان في العالم، فهو إبن تيمية، وهو واعظ متطرف ومتعصب سوري عاش في القرن الثالث عشر وجلب للمذهب السني بصمته السوداء. فتهجماته وتحريضاته ضد الشيعة متعددة وكثيرة لاتحصى. وهو يدين نزوعهم للباطنية ويعتبرهم من أتباع الباطن والنزعة الماورائية في الإسلام ويردد السلفيون اليوم في كل مكان أقواله وتراثه وكتاباته بتقديس فهي تدور وتنتشر عبر مواقع الانترنيت

اليوم كما لوكانت قد كتبت في الوقت الحاضر وهذا مقطع من نص مقتبس من إبن تيمية ومنشور ومأخوذ من موقع إسلاموي فرنسي تحت عنوان «رسالة من مجاهد في العراق إلى الأمة الإسلامية» وهو نص يفيد في خدع النفوس الضعيفة بين الجهاديين السنة المغرر بهم ومليء بالحقد الطائفي الأعمى، في معمعة الاقتتال الطائفي الدموي الذي نشب على ضفتي دجلة، يقول النص المقتبس من إبن تيمية: «إن قلب الشيعة مليء بالحموضة والحرقة واللؤوم والمرارة والحقد والضغينة ضد المسلمين الصغار والكبار، الطيبين والسيئين، وإن قمة إيمانهم واعتقادهم هي لعن المسلمين، من أولهم إلى آخرهم، وهم الأكثر اندفاعاً وضراوة في تمزيق وحدة الأمة الإسلامية، ويعتبرون أفضل القادة المسلمين كالخلفاء الراشدين، أبو بكر وعمر وعثمان، وعلماء المسلمين، مرتدين ويوجهون إليهم التهم الباطلة والسباب والإهانات».

كان إبن تيمية قد أصيب بالصدمة من سقوط بغداد إثر هجمات الغزاة المنغول سنة 1258 وكان قد عزا حدوث هذه الكارثة إلى تحالف الشيعة مع المنغول. وفي الواقع كان الشيعة مضطهدون ومطاردون من قبل السنة السلجوقيين الأتراك الذين تمركزوا في عاصمة العباسيين وحكموا في بغداد منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي لذلك انحاز الشيعة للخلاص من ظلم السلجوقيين إلى زعيم المنغول هولاكو تنفيذا لفتوى أعلنها المرجع الديني للشيعة آنذاك إبن طاووس وتقول: «الحاكم الكافر والعادل أفضل من الحاكم المسلم الظالم» ويبدو أن سيناريو الغزو الأمريكي للعراق سنة 2003 قد أعاد لأذهان السنة ذلك التحالف البعيد. فشيعة العراق كانوا يأملون

ويتمنون أن تخلصهم أمريكا من ظلم صدام حسين وقمعه وبطشه «أي الحاكم المسلم الظالم» المتمثل بصدام، الذي أبادهم وطاردهم حتى في أماكنهم المقدسة في النجف وكربلاء ولم يرعوي في قصف مراقد الأئمة الشيعة العظام في عام الانتفاضة 1991 و 1999، بيد أن أخطاء وتجاوزات واشنطن وعنجهيتها واحتقارها الاستعماري الجديد للشعب العراقي هو الذي ابعد عنها الجماهير الشيعية لأنها لم تمثل الحاكم الكافر والعادل بل كانت ظالمة ومتجبرة هي أيضاً إضافة إلى كفرها، لذلك التحق الكثيرون من أبناء الشيعة بميليشيات جيش المهدي التابعة لمقتدى الصدر تحت ذريعة محاربة قوات الاحتلال. إن هذه المواجهة الشيعية - السنية اليوم وعلى صفحات الويب وشبكة الانترنيت العنكبوتية قد عبأت الشباب السنة الفرنسيين ومن أصل عربي مسلم إلى حد التعصب بفعل الخطاب السني السلفي المثير للجدل والقادم من العصور الوسطى الذي أنتجه إبن تيمية، والذي اعتبر الشيعة أسوء من الضالين والمشركين وأحق بالقتل والإبادة من الخوارج والمرتدين وأعداء السنة. وكان إبن تيمية متخلفاً على كل الصعد فهو يكره ويحقد على المرأة ويعتبرها عورة وحرم على النساء لبس الحلي والمجوهرات والزينة واستخدام العطور على عكس ما كان يقول به الإمام علي صهر النبي وبطل الإسلام الذي كان مرهفاً ورحيماً بالأمة وبالنساء.

فهو فحل وله قدرة جنسية هائلة ويحب النساء كما تشير بعض المصادر الشيعية التي تبالغ في صفاته وتغالي في مقامه بينما يحتل عمر ابن الخطاب موضوع التقديس والإعجاب المفرط لدى إبن تيمية والذي لاتحبه النساء وكان يغار من جاذبية علي للنساء كما تقول

مارتين غوزلان في كتابها عن الصراع بين السنة والشيعة. فالإمام علي البطل المقدام والشجاع والفحل والأسد أو حيدر الكرار كما يسميه الشيعة، الكريم والرؤوف والعالم الذي يخطب بالمسلمين بالقول الجريء «سلوني قبل أن تفقدوني»، يكرهه صاحب المدونة الفرنسي السلفي الذي تمتلىء مدونته بأقوال وكتابات إبن تيمية ويسمي نفسه أبو أيمن ويدعي أنه يرسل رسائله من العراق ويبث الكذب والافتراء مدعياً أن الشيعة تغلغلوا وتسللوا كالأفاعي للسيطرة على مناصب الجيش والشرطة والمخابرات، أي القوة العسكرية الضاربة وأداة السلطة الحقيقية، مع سيطرتهم على النشاط الاقتصادي على غرار سادتهم اليهود وينمون يوماً بعد يوم آمالهم بخلق دولة رافضية - يسمي أهل السنة الشيعة بالرافضة أي الذين يرفضون خلافة الخلفاء الثلاثة الأوائل بعد النبي أبو بكر وعمر وعثمان - التي تمتد من إيران مروراً بالعراق وسورية ولبنان وانتهاءاً بالإمارات الكارتونية في الخليج، ولنا في حادثة احتجاج النواب الكويتيين السلفيين على إقامة الواعظ الشيعي الإيراني في الكويت بتهمة سبه للصحابة والمطالبة بطرده أو محاسبة رئيس الحكومة داخل البرلمان، نموذج واضح اليوم لهذا التوتر القائم بين السنة والشيعة في كل مكان في العالم الإسلامي. هذه هي الخلفية التاريخية المريرة التي خلقت حالة التشكك والتوجس والحذر وانعدام الثقة بين الشيعة والسنة سيما في العراق والباكستان، وإلى حد ما في لبنان، التي تنتقل فيها المواجهة إلى صراعات مسلحة دامية في أغلب الأحيان بين الجانبين مما يعيق تحقيق الوحدة الإسلامية إلى أمد طويل.

الفصل الخامس

من الانتداب الأول إلى الانتداب الثاني:

إنهيار نظام ما بعد الاستعمار

بقلم بيير جون لويزار(*)

يعيش العراق منذ أكثر من ثلاثين عاماً تعاقب مريع للمآسي: كان هناك نظام يستخدم القمع بصورة لم يسبق لها مثيل، وخاض ثلاث حروب مدمرة، الأولى ضد غيران بين 1980 و1988، الثانية ضد قوات تحالف دولية قادتها الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1991 إثر غزو العراق للكويت، الثالثة سنة 2003 إثر إصرار الولايات المتحدة الأمريكية على الانتهاء مرة وإلى البد من نظام كان قد خدمها، يضاف إلى الهزيمتين العسكريتين في 1991 و 2003 إنتفاضة عارمة قام بها الشعب العراقي ضد نظام صدام حسين في أعقاب الحرب الثانية التي شنتها قوات التحالف الدولية ضد نظام صدام حسين وتدمير الجيش والبنى التحتية في شباط - آذار1991 مما قاد إلى وضع العراق تحت الوصاية الدولية بين 1991 و 2003، وأخيرا عودة نظام الاحتلال العسكري الغربي للبلدالذي أضفي عليه شرعية دولية بعد

(*) باحث في المركز اوطني للبحوث العلمية مجموعة علم اجتماع الأديان والعلمانية.

التصويت بالإجماع من قبل المجموعة الدولية على القرار رقم 1483 الصادر عن مجلس الأمن في أيار 2003. وهكذا ساهمت ثلاثون عاما من الأحداث المشتعلة في إخفاء الصلة الموجودة بين كافة الأحداث التي عاشها العراق. والحال، لايمكن تفسير ظاهرة نظام صدام حسين وماجره على البلد من ويلات إلاّ بالعودة إلى التاريخ. إن مثل هذه العودة تقودنا إلى التمعن بالظروف التي أحاطت بتأسيس الدولة العراقية الحديثة. ينبغي التذكير بأن هذه الدولة هي من صنع الاستعمار وإن القوة الاستعمارية البريطانية المنتدبة على العراق هي التي وضعت أسس هذه الدولة سنة 1920 رداً على أهم وأكبر ثورة شهدتها المنطقة ضد الاحتلال الأوروبي. عكست ثورة العشرين رفض العراقيين بالإجماع للانتداب الذي منحته عصبة الأمم، الأصل السابق لمنظمة الأمم المتحدة الحالية، لبريطانيا العظمى على بلدهم. وبالرغم من هزيمة الثورة بفعل قوة الأسلحة البريطانية إلاّ أن تلك الحركة نجحت بإقناع لندن بإستحالة حكم العراق بصفة مباشرة من خلال إدارة عسكرية بريطانية. لذلك فإن الدولة العراقية أستحدثت لتكريس الهيمنة البريطانية على البلد. وقد بنيت الدولة العراقية على غرار النمط الأوروبي للدولة القومية أو الدولة ـ الأمة وهي لاتشابه ولا تلائم أي من الهويات الغالبة في البلاد. وبالأخص شيعة العراق الذين شكلوا، تحت قيادة رجال الدين والمراجع العليا المقيمين في المدن المقدسة، رأس الرمح في النضال من أجل الاستقلال. فبالنسبة لهم الإسلام والعروبة لايتضادان أو لايتعارضان، وكان لدى الاستعمار البريطاني المهيمن لازمة أو نتيجة طبيعية تتمثل بالنخب المنحدرة من الأقلية العربية ـ السنية التي اتجهت نحو خدمة الأسياد الجدد للبلاد

والتي أعتبرت الدولة الجديدة ملكيتها المحتكرة. وقد أستبدلت هذه النخب بسرعة مذهلة ولائها الإسلامي للسلطان - الخليفة العثماني ومنحته لقوة «كافرة» وأنتقلت بسهولة وبلا مقاومة من العثمانية إلى العروبية. نجحت بريطانيا في قهر الحركة الدينية بإسم مفهوم قومي عربي لايشكل الإسلام فيه سوى مجرد صنف أو مكون ثقافي من مكونات العروبية. إن عروبية الدولة العراقية الجديدة أختزلت الشعور بالانتماء العربي لدى غالبية العراقية إلى مجرد أيديولوجية إثنية أو عرقية حصرا لايجد، لا الشيعة ولا الأكراد، أنفسهم فيها. الدولة العراقية بنيت ضد مجتمعها وأضفت المسحة المؤسساتية على علاقة الهيمنة الطائفية للسنة على الشيعة، قبل الهيمنة الإثنية أو العرقية للعرب على الأكراد. وهذا الجانب الأخير من المسألة العراقية أصبح ملموسا إبتداءاً من ضم ولاية الموصل إلى العراق من قبل عصبة الأمم سنة 1925 بإلحاح من بريطانيا الطامعة بنفط كركوك. أستبعد الشيعة والأكراد الذين يشكلون ثلاثة أرباع السكان العراقيين من السلطة طيلة القرن العشرين وكان نظام صدام حسين آخر كارثة لنظام التمييز الطائفي والعرقي الذي وصل إلى مداه. إن الحرب الأخيرة التي شنتها الولايات المتحدة الأمريكية أطاح بهذا النظام السياسي الذي أسسه حلفاؤها البريطانيون منذ أكثر من ثمانين عاماً مضت. وكان ذلك بإسم مباديء تحررية أوانعتاقية عرفت بدمقرطة العراق. كيف يمكننا أن نشخص تكرار التاريخ لنفسه؟ ما هي أوجه المقارنة التي يمكن أن نقيمها بين الوضع الحالي والوضع الذي كان سائداً بين 1917 و 1920، وهي فترة الاحتلال العسكري البريطاني المباشرة السابق للانتداب؟ ما هي أوجه التشابه والاختلاف بين

الفترتين؟ إن محاولة الإجابة على هذه التساؤلات سيعطينا الفرصة لتحديد آفاق ونوايا الإدارة الأمريكية الحالية في العراق.

1ـ إحتلال عسكري من قبل قوة غربية بدون شرعية دولية:

إن هذه العودة المدهشى للاحتلال العسكري الغربي للعراق هي ربما الظاهرة ألكثر جذبا للانتباه لماذا؟ لأنها تبدو وكأنها لاتعبأ بقرن كامل من المفاهيم المعادية للاستعمار والتي تجعل من الاستقلال والسيادة حجر الأساس لأي سياسة تنمية وتكريس للديموقراطية في المنطقة. لقد تعبأت أجيال كاملة من العراقيين في نضال مضني ضد الانتداب وضد المعاهدات البريطانية ـ العراقية المفروضة قسراً. كانت هناك عملية إطاحة الملكية الهاشمية سنة 1958 وتدفق الحقد ضد رجال الانجليز وأعوانهم، وهي التي وسمت تطلعات لايمكن كبحها من أجل الاستقلال والسيادة. ففي أذهان رجال ذلك العهد لايمكن الفصل بين الاستقلال والسيادة وهما مرتبطتان بصورة وثيقة بالاصلاح الاجتماعي. كان القرن العشرين مليئاً بمعالم الحركات التي تظهر بجلاء إلى أي حد تجذرت في العراق ما عرف بروحية معاداة الاستعمار وقد أنصرفت هذه النزعة بصفة خاصة عبر الحركة الدينية الشيعية والحرزب الشيوعي والأحزاب القومية العربية.

وبعد أربعة وثمانون عاماً هبطت القوات البريطانية مرة أخرى في آذار 2003 في ميناء الفاو في أقصى الطرف الجنوبي للعراق جنوب مدينة البصرة. كانت المرة الأولى في 6 تشرين ثاني

1914. الولايات الثلاثة الرئيسية التي خصصت لتشكيل مملكة العراق كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية آنذاك. أستغرقت القوات البريطانية في ذلك الوقت عامين ونصف العام للوصول إلى بغداد التي لم تتمكن من احتلالها إلا في 11 آذار 1917. وفي هذه المرة سلكت القوات الأمريكية نفس المسار. الذي قطعته القوات البريطانية بين 1914 و 1917 على طول نهري دجلة والفرات باتجاه الشمال العراقي، وبلغ الأمريكيون العاصمة العراقية في ثلاث أسابيع من المعارك فقط.

لم يشك البريطانيون سنة 1914 بضراوة الحرب التي تنتظرهم والتي يتعين عليهم خوضها للسيطرة على البلاد. كانت أكثر الحملات الاستعمارية التي قادتها بريطانيا دموية في أرض الإسلام. وكان في مواجهتم الجيش العثماني، وكذلك جيش من المجاهدين الشيعة، والمقاتلين من العشائر العربية الذين أستجابوا لنداءات قادتهم من رجال الدين والعلماء «للدفاع عن دولة المسلمين ضد الكفار» كان جهاد سنوات 1914 ـ 1916 هو الحركة المسلحة الأكثر ضراوة وسعة التي شهدها الشرق الأوسط ضد غزو أوروبي. ففي الشعيبة خلال معركة كبرى بين الجيش النظامي العثماني والبريطانيين قرب البصرة (11 – 14 نيسان 1915) كان المجاهدون الشيعة أكثر عدداً من القوات العثمانية التي جاءوا لدعمها. كانت الهزيمة العسكرية الوحيدة للبريطانيين واستسلامهم بدون شروط في الكوت في 29 نيسان 1916 يعود الفضل فيها مباشرة لنشاط هؤلاء المقاتلين المؤمنين الذين كانوا يقاتلون إلى جنب الجيش العثماني الذي غالباً ما كان يسيء معاملتهم. تم احتلال الموصل سنة

1918 بعد أيام قليل من وقف إطلاق النار الذي فرضته قوات الحلفاء على الامبراطورية العثمانية والذي كرس تفتيتها. ولو قمنا بعملية مقارنة لبدت لنا الحرب الأخيرة وكأنها سريعة كالبرق بالقياس إلى سابقتها. فقد بدأت في 20 آذار 2003 وأنتهت باحتلال بغداد في 10 نيسان.

إبان عمليات الجهاد بين 1914 - 1916، أعترف البريطانيون بمايقارب مائة ألف ضحية (من بينهم 15000 قتيل) خلال سنتين ونصف من القتال. في حين تسببت الحرب الأخير بموت أقل من 200 قتيل أمريكي وبريطاني. حوالي 160 عسكري أمريكي وبريطاني قتلوا في المعارك مقابل عدد غير معروف من الضحايا العراقيين جلهم من العسكريين (فنظام صدام حسين لايقدم أبدا احصاءات دقيقة عن عدد خساءره من الرجال) ونحتاج لوقت طويل لمعرفة هذه الحسابات المرعبة والمحزنة بدقة، لكن عدد الجنود العراقيين الذين سقطوا في المعارك يقدر اليوم بين 12000 و 30000 عسكري عراقي في حين أن الخسائر المدنية العراقية محدودة وتقدر بين 2000 و 4000 ضحية. كان عدد الضحايا بين صفوف المجاهدين الشيعة والسكان العراقيين عموماً في معارك الجهاد في سنوات 1914 - 1916، يقدر بحوالي 25000 ضحية من مجمل مجموع سكان العراق الذي كان يبلغ آنذاك 3 مليون نسمة. أما الخسائر التركيةفبلغ عدد القتلى 2000 جندي قتلوا في المعارك. مما يثير الدهشة هو انخفاض عدد قتلى جيش الاحتلال اليوممقارنة بالمائة ألف ضحيية في حرب 1914 ـ 1916. أما فيما يتعلق بالخسائر البشرية العراقية خلال ثلاثة أسابيع من الحرب

فهو يعادل إن لم يكن أكثر من مجموع خسائر العراقيين والأتراك معا طيلة سنوات حرب الاحتلال الأولى بين 1914 - 1916. إذن لدى الولايات المتحدة القدرة اليوم على دحر أي بلد مع أقل عدد من الخسائر بين جنودها. ومن هنا يمكننا القول أن الحرب الأخيرة كانت أكثر دموية بالنسبة للعراقيين من الحرب العالمية الأولى.

ثلاث سنوات من الغزو من قبل البريطانيين في ذلك الوقت وثلاث أسابيع من قبل الأمريكيين. مما لاشك فيه أن القوة العسكرية البريطانية لم تكن آنذاك إبان الحرب العالمية الأولى بنفس القوة والحسم الذي تتمتع به القوة العسكرية الأمريكية اليوم، ولكن هناك سبب آخر لهذه النتيجة وهو أن الزعماء الدينيين الشيعة أختاروا هذه المرة عدم مقاومة غزو العراق من قبل الولايات المتحدة الأمريكية. فمنذ نهاية عام 2002 أتى آي الله العظمى السيد السيستاني عدة فتاوي أوصى فيها بعدم شن الحرب على النظام العراقي وعدم مساعدة الأمريكيين في حربهم ولكن في نفس الوقت عدم مقاومتهم. إن هذه الحيادية الغامضة التي أبدتها السلطات الدينية الشيعية في العراق إبان المواجهات العسكرية لم تخف جيداً المزاج العام الذي كان سائداً بين العراقيين والذي مفاده: إن القوة الوحيدة في العالم القادرة على إطاحة النظام القائم في العراق هي نفسها التي أتاحت له، عكس ما كان متوقعاً منها، له بالبقاء عندما سمحت واشنطن لصدام حسين بسحق انتفاضة شباط ـ آذار الشعبية سنة 1991 بالدم. وبدون الغرق في الأوهام حول المخططات والنوايا الأمريكية في العراق كان الشيعة ينتظرون قبل كل شيء التخلص من كابوس نظام شرس. وإن هذه الازدواجية أتاحت

لقوات التحالف الأمريكية ـ البريطانية إحراز النصر السريع، على عكس الاحتلال البريطاني السابق الذي اصطدم بالجهاد العام الذي أعلنه المجتهدون الشيعة العظام سنة 1914.

وعلى عكس ما حصل سنة 1914، فإن القيادة الدينية الشيعية، التي تضعضعت وقتل الكثير من أبرز رجالها من جراء عشرات السنين من القمع والاضطهاد في العراق، وواجهت رهانات فترة مابعد النظام الإسلامي في إيران، باتت ممثلة اليوم بالاتجاه الأكثر هدوءا وانعزالية عن السياسة بإسم مفهوم تقليدي للسلطة الدينية، وهي تعارض انخراط رجال الدين في الشؤون السياسية ونحن نعرف أن هذا التوجه ينحو دائما نحو التعايش مع قوة الاحتلال.

كان ذلك هو واقع الحال إبان الاحتلال العسكري الأول للعراق من قبل البريطانيين. فقد كان المرجع الشيعي الأعلى آنذاك في السنوات العشرة الأولى من القرن المنصرم وهو السيد كاظم اليزدي (1831 – 1919)، يعارض بقية المجتهدين الحركيين المناضلين، من أمثال محمد تقي الشيرازي (1853 – 1920) و مهدي الخالصي (1861 – 1925) المؤيدين لمقاوم الاحتلال البريطاني بقوة السلاح. وعند وفاة كاظم اليزدي سنة 1919، أعتلى قمة القيادة الدينية الاتجاه النضالي خاصة إبان ثورة العشرين حيث كانت القيادة المطلة التي لايعترض عليها أحد بيد المجتهدين المناضلين. ولكن في سنة 2003، فإن الشيعة والأكراد الذين يشكلون أكثر من ثلاثة أرباع السكان في العراق، لم يعارضوا ولم يقاوموا زحف قوات التحالف الأمريكية ـ البريطانية حتى لو لم يستقبلوها بالود والترحاب والزهور.

أعطى احتلال عام 2003 مرة أخرى الأولوية لمصلحة المحتل في إجراء المصالحة بين القوى المحلية، سواء أكانت قبلية، أو دينية، أو تلك القائمة من بقايا النظام القديم. في سنة 1917 أستند البريطانيون لسلطة شيوخ العشائر وللنخب العربية السنية، التي كانت تؤمن استمرارية الحكم العثماني. فوزعت قوة الاحتلال البريطاني بكرم سندات الملكية للأراضي الواسعة على رؤساء العشائر الذين تحولوا إلى ملاكين كبار واقطاعيين وأصبحوا مدينين لهم وتابعين لأوامرهم أو بالأحرى خدم لهم. واليوم أعاد البريطانيون التجربة وذلك بإدارتهم البصرة من خلال مجلس عشائري – ديني.لكن الفشل هذه المرة قاد إلى عودة الإدارة البريطانية المباشرة. في حين لجأ الأمريكيون محليا إلى القوى المتواجدة على الساحة التي تمثل التضامن العفوي، والعرقي أو الإثني،، والطائفي، والعشائري، أو المتعلقة بالحي أو المنطقة.وبعد عشرات السنين من القمع والاضطهاد تبدو تلك القوى وكأنها الوحيدة القادرة اليوم على مليء الفراغ والحد من الفوضى.وهكذا نشأ وضع يشبه الوضع الذي كان سائدا في لبنان على أرض الواقع السياسي العراقي، ونتيجة للبراغماتية (الذرائعية) الأمريكية التي تكشف بسرعة عن نية في إراق الأحزاب السياسية العراقية في طوفان من المطالب الجماعاتية الأكثر تناقضا فيما بينها. وبات من الصعب من الآن فصاعدا رأب الصدع ونسج صلة وطنية أربيل الكردية، والموصل التي يديرها مسؤولون بعثيون سابقون متحالفين من الأئمة السنة، والنجف وكربلاء اللتان تديرهما القيادة الدينية الشيعية، والبصرة الواقعة تحت الإدارة البريطانية. أما بغداد

فتوضح بجلاء الترجمة السياسية على الأرض لهذا التشظي للمشهد السياسي العراقي:مدينة صدام (مدينة الثورة في الأصل) والتي أعيدت تسميتها بمدينة الصدر إحياءا لذكرى آية الله محمد صادق الصدر الذي أغتاله نظام صدام حسين سنة 1999، يديرها اليوم زعماء محليين انبثقوا من الأحياء الفقيرة فيها حيث أضفيت سلطتهم نصف المافيوية شرعية من قبال رجال دين شيعة مغمورين أو مجهولين وصغار السن ليس لهم قيمة أو مكانة في المراتبية الشيعية الحقيقية في سلم المرجعيات المعترف بها والذين يلصقون انفسهم بمقتدى الصدر إبن آية الله الشهيد محمد صادق الصدر. إن سياسة الـ (اللبننة) التي شجعها الأمريكيون قد حلت مكان السياسة العشائرية للبريطانيين بين 1914 - 1920، وبالأخص نمط التحالف الحصري للقوة المحتلة مع النخب العربية - السنية.

ومع ذلك فإن إحتلال اليوم، كما في الأمس، أثار ردود فعل السكان المتمسكين بثقافتهم. أصطدم البريطانيون في 1914 - 1920 بالعشائر وبزعماء الأحياء الأزمة الاقتصادية التي أوجدها الاحتلال، مع تضخم متصاعد وانتهاء أو توقف االاتجار مع الدول المحيطة، وتوقف تدفق الزوار للعتبات المقدسة الشيعية، أثار بسرعة مقاومة سلبية للاحتلال ثم أخذت هذه المقاومة ملامح عنيفة كما حدث في المدن الشيعية المقدسة إبان ثورة النجف في آذار 1918. الحركة الوطنية في بغداد جمعت السنة والشيعة لرفض الانتداب والمطالبة باستقلال البلاد .وكما هو حال الأمريكيين اليوم، وجد البريطانيون أنفسهم بالأمس أمام شعب يرفض الخضوع والخنوع وامتهان كرامته على يد المحتل، وهيمنة سلطة الاحتلال، والمراقبة الشديدة والتفتيش

المستمر، وغياب الآفاق السياسية. يبدو أن الفوضى كانت خياراً متعمداً من قبل الأمريكيين لتبرير تأجيل أية إعادة بناء سياسية للبلد. لكن هذا الخيار سرعان ما تحول ضدهم، فلم يعد العراقيون يتحملون، بعد ثلاثة أشهر من سقوط النظام السابق، عدم إعادة الخدمات العامة الأساسية والضرورية جداً (كالماء والكهرباء والاتصالات الهاتفية والنقل وفتح المطار الدولي) وفوق ذلك كله انعدام الأمن مما يجعل الحياة لاتطاق.يبدو أن حل الجيش العراقي كان بمثابة عنصر إطلاق شرارة المقاومة المسلحة والمتنامية. فقد وجد 350000 عسكري أنفسهم في بطالة قسرية مفروضة عليهم، بلا معاشات أو مداخيل شهرية ولا تقاعد، بينما كانوا يمثلون نخبة البلد المرفهة وذا الامتيازات الكثيرة، على القل على الصعيدين التقني والعلمي.وكل واحد من هؤلاء العسكريين يعيل مالايقل عن خمسة أشخاص في أسرته كمعدل متوسط،وهذا يعني أن 10 بالمائة من السكان العراقيين يعيشون في عوز تام، بدون أي أمل في إعادة الاندماج في المجتمع. في الاحتلال الأول احتاجت المقاومة المسلحة إلى سنة كاملة قبل أن تعلن عن نفسها، ولكن في هذه المرة،حتى قبل انتهاء الحرب في الأول من ايار بدأت عمليات المقاومة الأولى ضد الجنود الأمريكيين (في الموصل في 15 نيسان، وفي الفلوجة في 28 نيسان) مفتتحين دوامة من العنف بلا نهاية من الهجمات والردود الانتقامية.

بين 1914 و 1920 كان العراق يدار من قبل دائرة الهند البريطانية. وكان آرنولد ت ويلسون هو المقيم الدائم أو المندوب السامي البريطاني الدائم في بغداد، وكان المقصود هو دمج العراق

في الامبراطورية البريطانية في الهند من خلال الاحتلال العسكري المباشر.منتهكين بذلك الوعود التي قطعوها لحلفائهم العرب، ولم يكن واردا آنذاك تشكيل حكومة عراقية ولا تقرير مصير. ومع ذلك أجري استفتاء بين 1918 - 1919 بهدف استشارة العراقيين بشأن مستقبل بلدهم.ولكن لم يشر أي سؤال من الأسئلة المطروحة إلى نهاية الاحتلال واستقلال العراق. ماهي أوجه التشابه بين المقيم الدائم البريطاني آرنولد ت ويلسون و رؤوساء الإدارة المدنية الأمريكيين جي غارنر أو بول بريمر؟ الأثنين الأخيرين وعدا منذ البداية بإعادة الحكم للعراقيين. وعلى عكس ما حصل عام 1910، فإن علاقاتهما مع العرب السنة متوترة، بين يتموضع الشيعة والأكراد في حالة من الانتظار.ولكن الاحتلال في الحياة اليومية يبقى احتلالاً. ففي البداية أنكرت واشنطن أن تكون قوة احتلال يقع على عاتقها واجبات ومسؤوليات. وهذا ما يلومهم عليه العراقيون الذين يرفضون ترميم الخدمات العامة حيث لاتوجد دولة وبالتالي يتعين على الأمريكيين ويقع على عاتقهم هم إعادة الحياة والعمل للخدمات العامة المتوقفة وترميم ما قاموا بتدميره.

2ـ بإسم المباديء التحريرية أو الانعتاقية التي تستلهم مباديء عصر الأنوار

بالأمس كان المبدأ الأساس «حق الشعوب في تقرير مصيرها» واليوم «الدمقرطة أو نشر وتطبيق الديموقراطية» هذه المباديء هي التي أشهرتها بريطانيا سنة 1917 والولايات المتحدة الأمريكية سنة 2003. وهذه كلمات توني بلير رئيس الوزراء البريطاني قالها في 8

نيسان 2003: «قواتنا هـي قوات صديقة ومحـررة للشعب العراقي وليست قـوات غازيـة». وبـدت وكأنهـا صـدى لتلـك الـتي نطقهـا الجنرال البريطاني الغازي ستانلي مود في خطـاب لـه وجهـه لسكان لأهـالي بغـداد في 19 آذار 1917 وقـال فيـه: «لم تـأت جيوشـنا في مدنك وقراكم وأريافكم كقوات غازيـة أو عـدوة، بل جاءت محـررة». وواصـل خطابـه قـائلاً: «تكلـم الأتـراك عـن إصـلاح لكـن الخـراب والـدمار والتبـذير ألا تـشهد علـى تفاهـة وابتـذال تلـك الوعـود وبطلانهـا؟»: «تـذكروا يـا أهـالي بغـداد أنـه خـلال 26 جـيلاً، أنكـم عانيتم بسبب طغاة أجانـب» وبعـد 86 عامـاً مـضت يعلن المنتصرون في الحـرب الأخيرة جـورج بـوش وتـوني بلير في رسـالة رسميـة في 10 نيسان 2003 موجهة للشعب العراقيقالا فيها: «أنتم تستحقون ماهو أفضل من الطغيان والاستبدلد والفساد وغـرف التعذيب. سيكون وطنكم قريبـا حـرا» بـل ذهـب تـوني بلير إلى حـد التطـرق إلى فكـرة إجراء استفتاءريما لم يعد يتذكر سابقة أعوام 1918 - 1919؟ وقد أستحوذ الزعمـاء الـشيعة علـى تلـك التـصريحات للمطالبـة بإنهـاء الاحتلال البريطـاني، وذهبوا إلى حد مناداة الرئيسالأمريكي تومـاس وودرو ويلــسون لكــي يــساعد العــراقيين لتحقيــق أمنيتــهم في الاستقلال. وأخيرا اثار البريطانيون عرائض ومطالب مضادة مؤيـدة لاحـتلالهم للعـراق، صـادرة عـن أقليـة مواليـة لبريطانيـا خـدعت السلطات البريطانيـة لكـي تعتقـد بقـدرتهم علـى توجيـه الـرأي العـام العراقي. وبما أن بريطانيا جاءت لتحرير العراقيين وجلب الحضارة والمدنية والتقدم لهم، فـإن مـن يعارضـون ذلـك لايمكـن إلا أن يكونـوا رجعيين ومتعصبين.كانـت أمريكـت ورئيـسها في نظـر العـرب بمثابـة

المنقذ والملجأ لهم أمام أطماع الاستعماريين البريطانيين والفرنسيين. وفيما بعد عند خروها من حياديتها والانحياز إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية ضد ألمانيا والامبراطوريات الوسطى كالامبراطورية العثمانية، عرضت الولايات المتحدة الأمريكية رؤية رئيسها، المعلنة في نقاطه الأربعة عشر الشهيرة التي أعلنها أما الكونغرس الأمريكي في يناير 1918.

هل يمكن إيجاد صلة أو مقارنة بين شخصيتي الرئيسين الأمريكيين توماس وودرو ويلسون (1856 - 1924) وجورج دبليو بوش، اللذين تحركهما رؤيتهما الإنجيلية الميسيانية الأمريكية،؟ الأول إبن لباستور (راهب) كالفاني (إحدى الطوائف المسيحية البروتستانتية) مشبع بهذه الثقافة الشمالية ـ الشرقية معجون بالصرامة والاستقامة والطهرانية الكالفينية، أما الثاني فهو معتنق حديث للاتجاه المسيحي المتطرف، عضو الكنيسة المنهاجية ذات الحساسية الانجيليكية، وهو الممثل الأفضل للاتجاه المحافظ السائد في الجنوب الأمريكي. ويمتلك الرئيسان رؤية عالمية للدور الأمريكي في العالم، الذي يحمل رسالة كونية وهي رسالة الحرية. كان الرئيس ويلسون يدعو إلى غلبة السيادة وحق الشعوب في تقرير مصيرها، بينما يدعو جورج بوش للديموقراطية، ولكن لايمكن دفع المقارنة بينهما إلى أبعد من ذلك: فالرئيس ويلسون حمل المجموعة الدولية على أسس معمدانية، حيث يبدو جورج بوش الإبن أنه سيكون دفانها . في الرؤية والويلسونية، تبدو أمريكا بحاجة إلى المجموعة الدولية المؤلفة من دول كبرى ديموقراطية ليحمل رسالته إلى العالم. فعصبة الأمم أسست تحت رعاية هذا

الرئيس الأمريكي سنة 1920، تستلهم كثيرا من النقاط الأربعة عشر الشهيرة التي أطلقها الرئيس ويلسون آنذاك. أما جورج دبليو بوش فبالعكس، تشكل الأمم المتحدة بالنسبة له عائقا أمام طموحات ومخططات الولايات المتحدة الأمريكية. فقد زج بلده في حرب خارج حدود أية شرعية دولية وضد رأي غالبية أعضاء مجلس الأمن الدولي. وعلى الضد من توماس ويلسون، يبدو جورج بوش الإبن أنه لم يقدم مبرر الديموقراطية في العراق إلا لعدم وجود ذرائع أخرى مقبولة، بعد أن استهلك كافة الحجج التي سمحت له بخوض الحرب بسرعة (مثل ترسانة أسلحة الدمار الشامل العراقية والروابط بين النظام العراقي وتنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن المتهم بتفجيرات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001).وحيث يبدو مبدأ ويلسون إنسانيا، لايخفي مبدأ جورج دبليو بوش إرادة لا تقاوم في بسط الهيمنة بحيث تكون نية «دمقرطة» العراق ليست سوى حجة واهية أملتها الظروف.

كانت الحرب على العراق مناسبة لإعادة اكتشاف أمريكا، أول واكبر ديموقراطية في العالم، من قبل الرأي العام الأوروبي الذي غالبا ما كان منذهلا منها. ففي حين أن عملية طغيان النزعة الدنيوية العلمانية على الشعوب الأوروبية، القديمة بالأساس، تتعاظم كل يوم أكثر فأكثر،إلى درجة جعلت من القارة العجوزة حيزا لامكان فيها للمسيحية الحاكمة، نجد أن الدين مايزال هو الذي يحكم ويتحكم بالسياسة في ما وراء المحيط الأطلسي أي في أمريكا الشمالية. وقد أستولت هذه المسألة على عناوين الصفحات الأولى من وسائل الإعلام والصحف اليومية والأسبوعية الكبرى في العالم.

المقارنة والموازاة قد طرحت بين «جهاد بن لادن» من جهة و«الحملة الصليبية لجورج دبليو بوش» من جهة أخرى. وصرخة «ألله أكبر» أصبحت صدى لجملة «في الله نثق» والتوضيحات حول هذه الـ «أمريكا الجديدة»، المختلفة جداً عن صورة الديموقراطية، أتخذت اتجاهات مختلفة ومتناقضة.

فبالنسبة للبعض، إن الوضع الحالي في الولايات المتحدة الأمريكية ظرفي ومرتبط بجملة عوامل وظروف مختلفة يعود بعضها إلى التعادل الحاصل لأول مرة بين معسكر المحافظين ومعسكر التقدميين، والتعادل بين الحزبين الكبيرين المتنافسين في أمريكا، الجمهوري والديموقراطي، أتاح للأقلية المحافظة والرجعية اليمينية في الجنوب الأمريكي الوصول إلى السلطة. وهي حالة قابلة للإنعكاس والتغيير بفعل التناوب على السلطة،رغم مايشكله ذلك من علامات تنذر بالخطر أو بمثابة أغنية البجع بالنسبة لعنصرية مجتمع الجنوب قبل غرقه بموجة هجرة من أصل أمريكي لاتيني. أما بالنسبة للبعض الآخر فبالعكس، إن الوضع الحالي يمثل توجه خطير، موسوم بانبثاق دين جديد حيث ينبغي على أمريكا توسيع ونشر نموذجها وفرضه على العالم كله، حتى لو كان ذلك بواسطة الحرب والقوة.إنه إنتصار لدين مدني حيث تحل الرية الجديدة أو الآلهة الجديدة وهي أمريكا محل الإله المسيحي في الرؤية «الإنقاذية ـ الميسيانية» أو «الخلاصية» لجورج دبليو بوش.

وكما يؤكد سيباستيان فاث أن الشعار الذي يمكن أن ينطقه بوش هو «في المسدس نثق». إن الدين المدني و الدنيوي لن يكون ناتجاً عن تأثير الكنائس، كما نعتقد غالبا في فرنسا بالذات، بل

بالعكس هو تعبير عن إضعافها التدريجي.ففي الواقع أن أمريكا، ومنذ سنوات الستينات، أقل فأقل تديناً وأكثر فأكثر دنيوية. وفيما عدا الكنيسة الميثودية، «المنهاجية» الجنوبية الباتستية التي تضم 16 مليون عضو، ومجموعة من الانجليكيين، فإن غالبية الكنائس الأمريكية، بما فيه الكنيسة التي ينتمي إليها الرئيس بوش الإبنالكنيسة الاتحادية الميثوديةأو المنهاجية، كانت مناهضة للحرب.وقد تجاهل الرئيس الأمريكي موقف الكنائس وقد رفض استقبائل ممثليها وهذه سابقة لم تحدث مع رئيس أمريكي سابق في حالة حرب وقد أتخذ أتحاد الكنائس الأمريكية موقفا مناوئا للحرب كذلك. وبذلك أصبح الرئيس الأمريكي نفسه، بشكل ما، راعي أو راهب وزعيم كبير لدين جديد رقي إلى مصاف دين الدولة. وفرض هذا الدين المدني على صيغة التقوى الجماعية بإسم الخير الذي يمثله بوش ضد الشر. لقد انفصلت النزعة الانقاذية أو الخلاصية لجورج بوش الإبن عن الصيغة الطائفية المعهودة «فالإله الذي يذكره بوش ليس بإله المسيحية، بل نموذج المجتمع الأمريكي الذي قدم باعتباره نموذج الألفية الثالثة المقترح على مجمل الكرة الأرضية. وظيفته هي إضافاء الشرعية وشد لحمة الأمة الأمريكية وترسيخ ترابطها على نسق من العناية الإلهية وهذا ما يتجاوز ويتألق فيما يتعدى الطوائف المسيحية التقليدية. لقد سبق لهذه النزعة الخلاصية الميسيانية أن أعلنت في فيلم «يوم الاستقلال» حيث يأتي «الحل أو المخرج المريح للضمير فقط من التكنولوجيا العسكرية المتقنة والمتقدمة جداً» من جانب «شعب مختار من أرض قدر لها أن تكون المنقذ أو منبع

الإنقـاذ والخـلاص للبـشرية»، لـذا لايمكـن لأمريكـا أن تفلـت أو تتـهرب أو تـتملص مـن مهمتـها في بـث الحيـاة والتجديـد في أمـم مـشركة أو كـافرة أسـتبدلت المنقـذ بنمـوذج مجتمـع ليـبرالي وغـازي يريـد أن يفـرض علـى العـالم نمـوذج الـسلام الأمريكـي. «أمريكـا المنتصرة تقوم مقام عودة المسيح كأفق محـرر للبـشرية». مـن هنـا فإن معارضة الحرب ستفسر بأنها خيانة لأمريكا ولأفكار الحريـة والليبرالية في مواجهة «محور الشر».

ألايمكننا الحديث عن «الخـروج علـى الديموقراطيـة» بعـد منـع النقـاش الـديموقراطي حـول صـحة شـن الحـرب ومـسوغاتها القانونية؟النقاش بهذا الصدد لم ينته بعد .ولكن يبدو بالرغم من ذلـك أن شـيئا مـا غـير قابـل للارتـداد أو الانعكـاس قـد حـدث في أمريكـا: المناهـضون للحـرب لم يتمكنـوا مـن إسمـاع أصـواتهم بـشأن خيـار أساسـي وجوهـري وتم خلق أمر واقع في العراق حيث لايمكننـا أن نـرى كيف يمكن إصلاح ذات البين بين المجموعة الدولية وواشـنطن وإعـادة نـسج الخيـوط الـتي تربطهمـا بـالرغم مـن التظـاهر الزائـف بإضـفاء مصداقية على فكرة الإجماع بينهما بعد انتهاء الحرب. لاشـيء جديـد في هذا الموضوع كما يقال. لو كانت هذه الحرب الأخيرة حربا بـالمعنى المتعارف عليه، فإن الأفكار الانعتاقية والتحـريرية كانت دائمـا المحـرك الأيديولوجي للمشاريع والمخططات الاستعمارية. فمنـذ حملـة نـابليون بونابارت في مـصر، في نهايـة القـرن الثـامن عـشر، كـان المطـروح دائمـا هو «تحـرير» الشعوب الخاضـعة للطغـاة والأنظمـة الاسـتبدادية وجلـب الأنوار والتقدم والنهضة إليها . يمكننا الإشارة أيضاً إلى تبرير وتمجيـد جـول فـيري،الأب الـشرعي للمدرسـة العلمانيـة الفرنـسية، للمـشاريع

الاستعمارية الجمهوريون لم يكونوا أقل حدة من الرهبان ورجال الكنيسة لاستعمار وتدمير ثقافات الشعوب المستعمرة انطلاقا من حقدهم على الدين على الأغلب.

قام الفرنسيون والانجليز بإعلان مشترك في 8 نوفمبر 1918، أعلنا فيه التزامهما في مساعدة شعوب الشرق الأوسط للتحرر من ربقة الحكم العثماني ونيل الاستقلال. ولكن من كان يعلم مسبقاً أن السيد سايكس عن بريطانيا العظمى والسيد بيكو عن فرنسا كان قد أتفقا سرا في آيار مايو 1916 على تقاسم منطقة الشرق الأوسط بينهما كمناطق نفوذ وتأثير تابعة لكل منهما؟ وهكذا تحولت الأفكار الانعتاقية إلى ذرائع لإضفاء الشرعية على مشاريع الهيمنة. ولكن أليست هذه هي سمة العصرنة والحداثة وهي أن تكون غازية ومهيمنة؟ أليس الاستعمار قبل كل شيء عبارة عن صدام بين مجتمعات متطورة وحديثة بمجتمعات أقل منها تطوراً وحداثة؟ ألا يثبت ذلك أن المشاريع الاستعمارية كانت دائما قادمة عموما من الدول «الديموقراطية» أو ماقبل الديموقراطية، وهل من المنطقي القول والحالة هذه أنه يمكن تصدير الديموقراطية عن طريق الحرب، علما بأنها مدفوعة دوماً بالنزعة القومانية؟

3 ـ إضفاء الشرعية من قبل المجموعة الدولية:

في سنة 1920، كما في سنة 2003، كانت هناك شرعية مسبقة ومضمونة للاحتلال العسكري للعراق من قبل المجموعة الدولية. كان ذلك بموجب قرار عصبة الأمم في 25 نيسا 1920، حيث منح حق الانتداب على العراق لبريطانيا العظمى، و في 22 آيار / مايو

2003 سمح التصويت على القرار 1483 في الأمم المتحدة للولايات المتحدة الأمريكية بإدارة العراق ومصادره وثرواته. قبل عام 1920 لم تكن هناك مجموعة دولية منظمة، بل مجرد قوى عظمى تخوض حرباً عالمية. وفي نادي المنتصرين كانت تجلس بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية .وكانت هناك عدة مؤتمرات دولية (في مودروس لوقف إطلاق النار في 30 أكتوبر 1918، وفي باريس في 29 يناير كانون الثاني 1919، وفي فرساي في 28 حزيران 1919، وفي سيفر في 10 آب 1920، وفي سان ريمو في 25 نيسان 1920، وفيس لوزان في 24 تموز 1923) لتنظيم وحل إشكاليات وتبعات فترة مابعد الحرب العالمية وشروط تمزيق الإمبراطورية العثمانية وذلك بفوز الأطماع الاستعمارية لبريطانيا العظمى وفرنسا التي حاولت واشنطن كبحها .بدأت عصبة الأمم نشاطها بسياسة الانتدابات، فمنحت انتداب لكل القوى العظمى التي دخلت في عملية احتلال فعلي للأراضي التي حصلت على شرعية دولية لاحتلالها . إن سياسة الانتدابات المستوحاة في كثير منها من مبادئ الرئيس الأمريكي توماس دبليو ويلسون ونقاطه الأربعة عشر الشهيرة، تستند إلى فكرة أن على الديموقراطيات أن تواكب وترافق الأمم الناشئة على طريق السيادة وحق تقرير المصير. ولكن في سنة 2003 شنت الحرب بالضد من إرادة الأمم المتحدة. بل حتى أسوء من ذلك، حيث أبعدت الولايات المتحدة المنظمة الدولية من الدول التي احتلتها كأفغانستان والعراق، رافضة حتى عودة المفتشين الدوليين عن أسلحة الدمار الشامل في العراق أو إنهاء إدارة شؤون النفط العراقي من قبل الأمم المتحدة. فبرنامج «النفط مقابل الغذاء» كان

في الحقيقة المجال الوحيد الذي تشرف فيه المجموعة الدولية على العراق. لكن المجموعة الدولية، بعد أن تعرضت للتحقير والتجاهل والإهانة بل وحتى التكزز والشلل، بفعل القوة الأمريكية، أرغمت المجموعة الدولية في نهاية المطاف على منح أمريكا حق إدارة العراق وثرواته لفترة مبدئية مدتها 12 شهراً قابلة للتمديد. وهكذا وبعد مرور أكثر من 80 عاماً لم تنعتق ألمجموعة الدولية أو تتحرر من علاقات القوة السائدة في العالم.

إنهيار الحكومة الإسلامية وحلول نظام مابعد الاستعمار:

لكل مقارنة تأريخية حدودها. فالحرب وسقوط نظام صدام حسين قد غير وقلب الرهانات في المسألة العراقية. لأن نهاية النظام العراقي لم يكن مجرد نهاية حكومة، بل وسم إنهيار الدولة العراقية منذ كما كانت موجودة منذ تأسيسها على يد قوة الانتداب العظمى البريطانية سنة 1920. ففي الاحتلال البريطاني الأول 1914 - 1917 كان القصد هو قهر ودحر إمبراطورية مسلمة ذات سيادة، حتى وإن كانت قد أضعفت تدريجياً ووضعت تحت ضربة القوى الأوروبية. ولكن في الوضع الحالية، فإن نظام صدام حسين هو النهاية القصوى لنظام سياسي تأسس سنة 1920 على يد بريطانيا العظمى.وقد أتاح هذا النظام إمكانية هيمنة بريطانيا على العراق لغاية 1958،مع اللازمة الطبيعية المرافقة له، أي النخب المنبثقة من الأقلية العربية ـ السنية. إن باقء ذلك النظام، خارج أي منطق ملموس، يعود إلى إنتصار عامل خارجي في العراق، ابتداءا من سنوات الثمانينات، مع أول بداية لسياسة أمريكية تجاه العراق.

وعلى عكس الوضع في سنوات 1917 - 1920، كان هناك نظام تمتع لوقت طويل بدعم وإسناد واشنطن، حيث قام الأمريكيون أنفسهم بإطاحته. وفي سلسلة الدول العربية التي خلقتها القوى الأوروبية العظمى غداة الحرب العالمية الأولى، كانت الدولة العراقية هي الحلقة الأضعف بينها. لكن إنهيارها هو أيضاً إنهيار نظام بأكمله نلمس نتائجه وتبعاته في كل مكان، من الجزائر إلى ساحل العاج، والذي يمكن أن يعلن عن عهد جديد ألا وهو الإنهيار الشامل لكل الأنظمة مابعد الفترة الكولونيالية - الاستعمارية.

ما هو المشروع الأمريكي للعراق؟

ماهي أسباب تغيّر السياسة الأمريكية تجاه صدام حسين؟ يجيب السيد محمد حسين فضل الله، المرشد الروحي السابق لحزب الله في لبنان، قائلا: «من عادة الولايات المتحدة الأمريكية أن تساند ديكاتوراً، ومن ثم إطاحته عندما تنهي مهمته، لفرض ديكتاتور آخر تحت غطاء ديموقراطي». من وجهة نظر المصالح الأمريكية المفهومة،كانت الحالة السادة في سنوات التسعينات مثالية ونموذجية بالفعل. فبدون أن تكون في الخطوط الأولى، لأنها كانت محمية بقرارات الأمم المتحدة، فرضت أمريكا على العراق وصاية دولية سمحت لها، بفضل إبقائها لنظام صدام حسين المنهزم في الحكم على عراق مندحر ومدمر، بإحكام سيطرتها المباشرة على هذا البلد الغني بالوقود والنفط الخام. بعد هزيته سنة 1919، ومعرفته بأنه مدين ببقاءه على قيد الحياة هو ونظامه للخيار الأمريكي بتركه في السلطة، قايض صدام حسين وبثمن بخس وبالتدريج أساس سيادة

بلده مقابل بقاءه في السلطة، حيث وضع العراق منذ عام 1990 تحت الحظر والحصار الأشد قسوة وضرواة.و سواء في العراق نفسه أو في المنطقة، كانت فوائد ومردودات واشنطن مدهشة وتكاد تكون ثابتة ودائمية. فلماذا إذن دخلت الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب؟ كانت أحداث وتفجيرات 11 أيلول / سبتمبر بالنسبة لأمريكا كلها بمثابة صدمة، لم تقدر حق قدرها من قبل الرأي العام الأوروبي. فقد أصبحت أمريكا منذ تلك اللحظة في حالة حرب دائمة وعالمية ضد «الإرهاب».

لقد سمح حدث الحادي عشر من ايلول لآلاف من المحافظين الجدد بالظهور على مقدمة المسرح السياسي الأمريكي، الأمر الذي كان مستحيلا قبل بضعة شهور سابقة. حتى أن البعض صار يتحدث عن مفاجأة سماوية ومقارنة حدث الحادي عشر من أيلول / سبتمبر بحريق الرايشتاغ، ومهما يكن الأمر، فإن الحرب الوقائية والاستبباقية أصبحت عقيدة رسمية للولايات المتحدة الأمريكية مع كل ماينطوي على ذلك من دمار وتخريب بالنسبة للقانون الدولي وللمجموعة التي تستند إليه مع كل مايترتب على ذلك من خروج على العقلانية في السباق بلا نهاية نحو القوة والتفوق. المبررات التي قدمها الزعماء الأمريكيون والبريطانيون للدخول في الحرب ضد العراق، كاسلحة الدمار الشامل، والعلاقات المفترضة لنظام بغداد مع تنظيم بن لادن، لايمكن إلا أن تكون ذرائع بالنسبة للمطلعين على واقع وحقيقة الملفين المذكورين. ولكن في حالة الاستحالة والعجز التام عن مناهضة أمريكا ومناقضتها، تظاهرت المجموعة الدولية باقتناعها بوجود تهديدات لايصدقها أحد حقاً. تبع ذلك لعبة من الخداع

والملفات، يستطيع أي واحد فبركتها واختلاقها والتي تحولت إلى سباق ديبلوماسي لاينتهي في إطار الأمم المتحدة. وقد وصل الاستخفاف والصلافة إلى حد أن واشنطن أعلنت أنه لايهمها نتيجة عمل المفتشين الدوليين على أسلحة الدمار الشامل العراقية فالحرب أصبحت على اية حال واقعة لامحالة ولايمكن تفاديها إن هذه اللاعقلانية نفسها افقدت واشنطن إدراك ما كانت تعتبره قبل الحادي عشر من سبتمبر / ايلول بأنه مصالحها الحيوية ووضعت نهاية للوضع السائد في العراق الذي كان قد خدمها جيداً حتى ذلك الحين. ليس لدى واشنطن، التي أصبحت القوة الموكلة والمنتدبة لإدارة العراق، أي مشروع دقيق وملموس لهذا البلد . فالنفط، رغم أهميته، لم يكن العامل والحافز الأول لحرب واحتلال تقررا في نطاق منطق القوة البحت ليس إلاّ .وفي مثل هذه الظروف أي إعادة بناء سياسي يمكن أن ترى النور تحت نظام الاحتلال الأمريكي للعراق؟

هناك أولا حالة الفوضى التي مددت والتي كانت ربما خيارا مقصودا ومتعمداً من قبل الأمريكيين. لكن انبثاق مقاومة مسلحة فور انتهاء عملية الاحتلال العسكري، أقنعت المسؤولين الأمريكيين في شهر تموز، بضرورة الإسراع بإعادة البناء السياسي الذي تعمدوا تأجيله لغاية اليوم. وسواء كانت هناك وقاحة واستخفاف أم براءة وسلامة نية: فإن ظهور الوعي المفاجيء بأن الأيام القادمة ستكون صعبة، قادت واشنطن للبحث عن دعم من جانب الأمم المتحدة لكي ترسل هذه الأخيرة إلى العراق قوات من جنسيات أخرى لحفظ الأمن والنظام وبالأخص قوات من فرنسا وألمانيا، وهما بلدان كانا قد وقفا ضد الحرب على العراق. إن النظام السياسي الذي سيشيده

الأمريكيون في العراق، لو كانت لديهم الإمكانية. - وهو أمر غير مؤكد - سيكون بالتأكيد محتلف كليا عن ذلك الذي تخيلته مدام غيرترود بيل تحت رعاية السير بيرسي كوكس سنة 1920 إذ توجد اليوم قاعدة لم تكن معرفوة آنذاك من التقارب بين قوة الاحتلال الأمريكية والشيعة. فهؤلاء الشيعة الذين كان رأس الرمح في النضال من أجل استقلال العراق ضد الهيمنة الأوروبية على مدار التاريخ المعاصر للبلاد هم اليوم شركاء مفترضون لأمريكا من أجل إعادة البناء السياسي المعلن. الطابع الحتمي الذي لايمكن تجاوزه أو تفاديه للطائفة الشيعية، نظراً لثقلها السكاني، وتقاليدها السياسية المتجذرة، قد فرض نفسه بسهولة على السلطة المؤقتة للاحتلال أكثر مما كان للعرب السنة الذين فقدوا احتكارهم للدولة المنهارة، والذين صاروا يتحدون اليوم سلطة الاحتلال علناً. وبعد فقدانهم للدولة التي تماهوا معها، استدار العرب السنة بصورة متنامية للإسلام، متخلين بمجملهم وللمرة الأولى في تاريخهم عن الأيديولوجيات (القومية العربية) الدنيوية نوعا ما. تبدو السياسة ألأمريكية وكأنها تنحو نحو «لبننة» العراق، وفي هذا الإطار، منح الشيعة تمثيلية أوسع وأكبر على أسس طائفية. ومن ثم فصل شيعة العراق عن إيران باستخدام حوزة النجف ضد نظام طهران، وهو هدف يبحث عنه الأمريكيون منذ انتصارهم على نظام صدام حسين. وهذا، بنظرهم، الشرط الأساسي والضروري لأي شراكة مع بعض الشيعة العراقيين، ونقول «بعض» الشيعة لأن اللعبة مازالت مفتوحة ولم تغلق بعد.

ماهي النتائج السياسية الممكنة في العراق نفسه، علي الصعيد الإقليمي وعلى المستوى الدولي لمثل سياسة الـ «لبننة» هذه

للعراق؟ هل يمكن لشيعة العراق أن يصبحوا حلفاء مفضلين لقوة احتلال غربية بعد أن كانوا الخصوم منذ قرون؟ إن هذا التحول في الوضع الذي جعل العرب السنة يناضلون ضد أمريكا والشيعة يؤيدونها، يستدعي عدة تعليقات وتوضيحات.

لن يصبح الشيعة العراقيون ابداً معتمدين على قوة محتلة كما كان العرب السنة، الذين، وبسبب طابع الأقلية العددية الذي يميزهم، لم يكن لديهم خيار آخر سوى الخضوع التام أو الهروب إلى الأمام في مغمرات عسكرية وقمع داخلي. كانت النخب العربية السنية دائما المدخل المفضل للتاثيرات الغربية بسبب ضعفها. من الصعب علينا تخيل الشيعة يكونون «زبائن» مطيعين كما كان العرب السنة الذين خدموا الانتداب البريطاني.

إن ثقلهم السكاني، وكذلك تقاليدهم السياسية تجعل منهم دائماً المدافعين الغيورين والشامخين عن الاستقلال العراقي.

لماذا لانشهد تحولا في التحالفات على الصعيد الإقليمي: الحركة السلفية أو الصولية السنية تموضعت اليوم في موضع العدو الرئيسي لأمريكا، فهل سيصبح الشيعة على صعيد الشرق الأوسط الأقلية الطائفية الموالية والحليفة للأمريكيين؟ إن مثل هذا السيناريو يستند إلى حقيقة أن إيران، القوة الشيعية الكبرى، هي اليوم بمثابة الاستثناء: في محيط سني حيث المجتمعات معادية لأمريكا والزعماء والحكام موالين لأمريكا، في حين أن لإيران مجتمعاً متعطشاً للإنفتاح وقادة معادين لأمريكا.

نحن نعلم أن الشيعة أنفسهم لم يجربوا الحكم بأنفسهم إلاّ في إيران، إلاّ أنهم وجدوا أنفسهم في مرحلة مابعد الإسلاموية أو الإسلام

السياسي الذي تسلم تقاليد الحكم والذي يهيمن اليوم كقوة شيعية كبرى في إيران. من هنا، وبناءاً على ذلك، لايوجد من بين القادة الشيعة في العراق من يدعو للثورة الإسلامية على الطريقة الإيرانية.لذلك لم يعد هناك أمام إمكانية تخيّل ظهور «محور» «واشنطن - الشيعة» ضد الطالبان والإسلاميين السنة المتطرفين، سوى خطوة واحدة سبق للبعض في واشنطن أن خطاها. ولكن قد نكون قد تسرعنا في استنتاجاتنا وتجاهلنا ثقل التاريخ. فالإيرانيين، من كافة اتجاهاتهم السياسية، متمسكين باستقلال إيران وهم غير مستعدون للعودة إلى فترة الهيمنة الأمريكية. أما بالنسبة لشيعة العراق فهم كاليتامى اليوم ويفتقدون لزعامة هي في آن واحد سياسية ودينية.الطابع الجماهيري للحركة، الذي ينتمي إلى آية الله محمد صادق الصدر، الذي أغتاله نظام صدام حسين سنة 1999، يؤشر جيدا إلى هذا الفراغ أو حالة افتقاد الزعامة السياسية ـ الدينية التي تجسدت في شخص الشهيد الصدر، والحال أن هذه الحركة لم تشرك في عملية إعادة الإعمار السياسية التي ترعاها واشنطن في العراق. يتأرجح شيعة العراق دائما بين الهوية الطائفية التي لها ترجمتها السياسية المحدودة «الطائفية» وبين الرؤية الأكثر إسلامية، والتي هي رؤية المرجعية الحركية المكافحة في بداية القرن العشرين والتي تجسدت أفضل تجسيد أخيرا في شخص الإمام الخميني. وبما أنهم ـ أي شيعة العراق ـ يعتبرون أنفسهم في قلب الهوية العراقية، فهم يكتفون في الحالة الأولى بنوع من التوازن في السلطة لصالحهم، على الطريقة اللبنانية، وفي الحالة الثانية، يريدون أن يكونوا المبادرين لمقاومة الهيمنة الغربية بإسم وحدة إسلامية تشمل

السنة أيضاً. لقد بدأ سباق في السرعة، من جهة، بين عملية إعادة البناء السياسي، التي يتأخر الأمريكيون في تحقيقها وإطلاقها فعلياً، في محاولتهم الاستفادة بأقصى حد من حالة الفوضى السائدة في البلاد، ومن جهة أخرى دوامة رفض الاحتلال وتداعياتها والتي يتعذر كبحها كما يبدو. وأخيرا يبدو أمراً حتميا، أن المصالح الأمريكية في العراق سوف تصطدم، في وقت ما، بإرادة غالبية الشيعة بتأسيس عراق جديد، حيث ليس فقط لايكونون فيه ضحايا التفرقة والتمييز فحسب، بل وكذلك أن تكون فيه دولة مستقلة وذات سيادة.

إن إعادة البناء السياسي وتأسيس دولة جديدة تحت نظام الاحتلال الغربي، يبدو في نظر الشيعة العراقيين وكأنه تكرار للتاريخ. ألم يكن ذلك هو الفخ الذي وقعوا فيه بين 1920 و 1924، حين كان البريطانيون يحاولون إضفاء الشرعية بلا انقطاع على انتدابهم واحتلالهم للبلاد عبر مؤسسات ذات مظهر عراقي؟ كان البريطانيون يريدون انتخاب جمعية تاسيسية عراقية، وإقرارها لدستور يعترف بشرعية الانتداب وغلق العراق داخل دولة ـ أمة ذات إثنية عربية. وبإسم العروبية شن البريطانيون وحلفائهم السنة حملة ضد العلماء الشيعة «الفرس». كان المرجع آية اللّه العظمى السيد مهدي الخالصي واعياً لهذا الخطر مما حدا به لإصدار فتوى سنة 1922 يحرم فيها على المسلمين المشاركة في أية انتخابات، خاصة في انتخابات الجمعية التأسيسية، تجرى تحت الاحتلال. وقد اقتفى أثره كافة المراجع الكبار آنذاك بإصدارهم فتاوى مشابهة لفتوى الخالصي. وبعد أن تأكد البريطانيون من استحالة تنظيم أية عملية اقتراع طالما مايزال المراجع الكبار موجودون في العراق، قررت السلطات البريطانية نفيهم

إلى إيران سنة 1923 .وبغياب المعارضين الرئيسيين لهم، وتحت تهديد السلاح، جرت انتخابات الهيئة التأسيسية حيث كان أول إجراء أتخذته هو تبني وإقرار الدستور، وهو الأول في العراق المعاصر.فالمسألة العراقية التي شهدنا اليوم حلها الدموي، كانت قد ولدت في ذلك اليوم. ويتذكر تلك السابقة يذكّر بعض الزعماء الشيعة بفتاوى عام 1923 ويعيدونها إلى الصدارة اليوم حيث أفتى آية الله العظمى علي السيستاني بمنع أي مشاركة في انتخابات أو مجالس سياسية تحت هيمنة ورعاية الأمريكيين، وقد حذر المراجع الشيعة الحاليين في العراق الشعب العراقي من العواقب الأليمة لدروس الماضي، موضحين لهم أنهم بمجرد تصويتهم على الدستور تحت نظام الاحتلال فسوف يفوت الأوان وسيجد العراقيون أنفسهم من جديد مسجونين داخل نظام سياسي مخصص لإدامة الهمينة الأمريكية على العراق.إن سابقة عام 1924 تعطيهم كل الحق في مثل هذا التشخيص. لكن الغالبية لم تتبع هذه النصيحة، لأنهم متعبون من المآسي الكثيرة التي مروا بها، وغير راغبين في شن حرب جديدة. أنخرط الزعماء الشيعة العائدون من المنفى هذه المرة في حوار مع الأمريكيين، مع إصرارهم على ضرورة تسليم العراقيين بأسرع وقت لإدارة شؤونهم بأنفسهم وتقرير مصيرهم. وإذا حدث عكس ذلك، فأن هؤلاء الزعماء الشيعة سوف يدعون للمقاومة السلمية. وهكذا أنخرط الأمريكيون والمعارضون الععراقيون السابقون لنظام صدام حسين في مباراة يمكن وصفها بلعبة البوكر الكذاب، بدون وجود ثقة بالآخر، وكل واحد من الطرفين يعتقد بإمكانية فرض إرادته على الآخر.

إنه سباق سرعة بين منطقين. منطق الفوضى الذي أتاح للأمريكيين تأجيل إعادة البناء السياسي إلى أقصى حد ممكن، والذي اثار بالمقابل مقاومة مسلحة متنامية، ومنطق بول بريمر الذي بدأ على عجل بتشكيل مايشبه الحكومة المؤقتة من خلال مجلس الحكم العراقي المؤقت، والبدء فعليا بعملية إعادة البناء السياسي للبلاد. المخاطرة إذن كبيرة بالنسبة للأمريكيين في رؤية تلاقي هذين المنطقين في حركة مسلحة مناوئة للاحتلال. عندما ستتعثر عملية إعادة البناء السياسي بسبب مسائل أساسية وجوهرية مثل مدى استقلال الحكومة العراقية، ووضع النفط العراقي ومستقبله في ظل ظروف الاحتلال الأجنبي والسيطرة على منابع الثورة الوطنية الطبيعية حيث ليس واردا على الاطلاق ولا بأي شكل من الأشكال أن تخرج إدارة النفط العراقي من بين أيدي العراقيين، وكذلك موضوع العلاقة مع إسرائيل، ولو حصل الصدام بين العراقيين والأمريكيين حول مثل هذه المواضيع، فإن الحركة التي أختارت الطريق السلمي يمكن أن تلتحق بالحركة التي أختارت السلاح للمقاومة وهنا مكمن الخطورة. إذا كانت الربة المقدسة التي أنطلق الأمريكيون من أجلها في حربهم هي أمريكا، فلماذا لايتبع العراقيون نفس الطريق ويحاربون من أجل العراق؟

الفصل السادس

المسألة العراقية

بقلم بيير جون لويزار

بيير جون لويزار واحد من أنزه الباحثين الفرنسيين المتخصصين بالشؤون العراقية وأكثرهم معرفة وعلماً وإطلاعاً ومتابعة وموضوعية في الأحكام. لقد كرس قلمه وخبرته لخدمة القضية العراقية منذ أن تخصص في هذا الميدان وخصص أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه لموضوع: «تشكيل العراق المعاصر: الدور السياسي لرجال الدين الشيعة في نهاية حقبة الهيمنة العثمانية وتأسيس الدولة العراقية الحديثة» التي نشرت في كتاب صدر عن المركز الوطني للبحوث العلمية وهو أعلى هيئة علمية فرنسية معروفة اليوم وذلك سنة 1991 وأعيد طبعه اليوم في 2002. كما أشرف هذا الباحث المنصف على تحرير وإصدار عدد خاص عن: «الذاكرة العراقية كشفاً: عن مجتمع مقهور» من مجلة: «مشرق - مغرب، والعالم العربي» الصادرة عن مركز الوثائق الفرنسية - العدد 163 في يناير - فبراير 1999، والتي أتاح فيها الفرصة لعدد من الأقلام العراقية والأسماء العراقية من المفكرين والكتاب العراقيين للتعبير عن أنفسهم باللغة الفرنسية وتقديم ماساتهم وقضيتهم

للرأي العام الفرنسي حيث اعتبرت هذه المجلة وهذا العدد بالذات المرجع الأساسي للمعلومات عن العراقي بالنسبة للعديد من وسائل الإعلام الفرنسية لاسيما حين تسلط الأضواء الإعلامية على العراق مع قرب وقوع الضربة الأمريكية المتوقعة ضد النظام العراقي.

بلغت صفحات الكتاب 370 صفحة، مقسمة إلى مقدمة وأحد عشر فصلاً، استعرض فيها المؤلف تاريخ العراق المعاصر بدءاً من العهد العثماني والاحتلال البريطاني وإنتهاءاً بالتهديد الأمريكي الذي ينذر بالتدمير، مروراً بفترات تأسيس الدولة العراقية الحديثة ونهاية الملكية وتأسيس النظام الجمهوري وسقوط نظام الزعيم عبد الكريم قاسم ووصول البعث إلى السلطة عام 1963، والفترة العارفية برئاسة الأخوين عبد السلام عارف وعبد الرحمن عارف، ووثوب حزب البعث إلى السلطة مرة ثانية سنة 1968 وصعود نجم صدام حسين وحربه ضد إيران وغزوه للكويت وتعريض العراق لويلات الحظر والحصار والمقاطعة والحرب الثالثة، دون أن ينسى بالطبع أهمية ودور النفط العراقي في النزاعات الإقليمية والأطماع الغربية والدولية، وإلقاء الضوء على تركيبة المعارضة العراقية قديماً وحديثاً، وتحليل سياسة إيران العراقية، والسياسة الأمريكية تجاه العراق، مع خاتمة واستعراض تاريخي بالأرقام والسنوات وقاموس للمصطلحات والتعبيرات والأسماء غير المعروفة. إنه سفر رائع وكامل تقريباً لكل من يريد أن يعرف العراق على حقيقته وما يحدث له بالفعل وكيف سيكون تصور مستقبله على ضوء الأحداث الجارية.

يتساءل الباحث في مقدمته قائلاً: «هل صدام حسين ظاهرة

منفصلة عن تاريخ العراق وطبيعة مجتمعه؟ وهل هو المسؤول الوحيد عمّا آلت إليه أوضاع هذا البلد الضحية؟» إن العراق كما يقول بيير جون لويزار غني بكل شيء، بالماء والنفط والثروات الطبيعية وبشعب متطور ومتعلم، ويمتلك مايزيد عن حاجته من الكوادر المتخصصة في كافة العلوم والفروع والاختصاصات. ففي بلد الرافدين توجد كل السبل والإمكانات التي تجعل منه بلداً غنياً ومزدهراً. إذن لماذا يشهد العراق أسوء فترة في تاريخه اليوم ويعيش مآسي مدمرة منذ أكثر من 20 عاماً؟ التاريخ الإعلامي يتناسى متعمداً وعن قصد، أنه قبل احتلال الكويت ونشوب حرب الخليج الثانية، خاضت بغداد وطهران لمدة ثمان سنوات عسيرة ودامية حرباً شرسة وضع البلد على حافة الإفلاس الاقتصادي هذا عدا عن الجرح النفسي والضحايا بمئات الألوف ومشوهي الحرب والأسرى وتدني الأحوال المعيشية وخراب البنى التحتية. لقد أضفى الغرب الصفات الشيطانية على صدام حسين لتبرير إطاحته لكنه نسي أنه نتاج مجتمع سياسي فرضته المجموعة الدولية سنة 1920 بالضد من إرادة الشعب العراقي وتطلعاته بإسم مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها. وقد هيأ هذا المناخ السياسي وهذه التركيبة السياسية العراقية الفرصة لأمثال صدام حسين أن يظهروا على مسرح السياسة ويتفاقم وجودهم. فقد بدأ صدام حسين تسلقه لجدار السلطة منذ اللحظات الأولى لانقلاب 1968 وفرض نفسه بالقوة والحديد والنار وبوحشية لانظير لها وقسوة لم يسبقها مثيل كسيد مطلق على العراق غداة تفجر الثورة الإسلامية في إيران. ولكن كيف تمكن من حصر كافة السلطات بين يديه دون

منازع أو منافس؟ وكيف استطاع هذا النظام البقاء في السلطة كل هذه السنين التي تجاوزت الثلاث عقود بالاعتماد فقط على عائلة واحدة؟ ولماذا أصبح العراق بالرغم من إمكانياته الهائلة دولة مارقة ومنبوذة بالنسبة لجزء كبير من دول الغرب؟ هذا ما يحاول بيير جون لويزار الإجابة عليه وتقديم مفاتيح لفهم أصول وجذور الصراع الحالي الدائر في العراق وحوله.

إن صدام حسين مصاب بجنون العظمة. ويطرح نفسه وريثاً لنبوخذنصر وحمورابي وهارون الرشيد وسليلاً للعائلة النبوية الكريمة من نسل فاطمة الزهراء عليها السلام بنت النبي محمد [ص]. ليحكم بلداً تناوبت عليه حضارات عظيمة في سومر و وأكد وبابل وآشور. ليكون سيداً مطلقاً على بلد ولد وهو يعاني من مرض عضال يسمى الطائفية. حيث يقدم بيير جون لويزار لوحة رائعة وتفصيلية عن نشأة التشيع وتجذره في أرض العراق التي سماها «مهد التشيع» منذ أن نقل الإمام علي عليه السلام مقر الخلافة الإسلامية من المدينة إلى الكوفة في وسط العراق واستشهاده فيها ودفنه في النجف الأشرف التي أصبحت بدورها مدينة الشيعة المقدسة الأولى في العالم إلى جانب أضرحة الأئمة الشيعة الآخرين [عليهم السلام] في كربلاء وسامراء والكاظمية في بغداد. ويذكر المؤلف إن أول عملية مقاومة جهادية كانت على يد رجال الدين الشيعة ضد الاحتلال البريطاني بين أعوام 1914 و 1916 وإرسال آيات الله والمراجع الكرام لرسائل للرئيس الأمريكي ويلسون يطالبونه فيها بتطبيق مبادئه الأربعة عشر وعلى رأسها حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها للتخلص من الهيمنة البريطانية والاستعمار

البريطاني الذي كرسته عصبة الأمم بموجب صك الانتداب. هذا فيما يتعلق بالتاريخ وبين أعوام 1921 و1958 شيدت دولة ضد مجتمعها على حد تعبير المؤلف حيث كان هذا هو عنوان الفصل الثاني من كتابه. وهو محق حينما يقول أنه لكي نفهم سلسلة المآسي التي تعاقبت على العراق ينبغي علينا أن نعود إلى تاريخ ميلاد الدولة العراقية وأصلها الاستعماري الذي لم يكن فريداً من نوعه لأن هناك كثير من الدول الحديثة المجاورة للعراق تأسست على يد القوى الاستعمارية وحصلت فيما بعد على شرعية حقيقية. لقد لعبت بريطانيا ورقة القومية العربية بينما لم تكن هذه النزعة منتشرة ومتجذرة في نفوس العراقيين آنذاك واستندت في تشكيلها لأسس الدولة على النخبة المنحدرة من الإمبراطورية العثمانية أي على العوائل السنية الكبرى في العراق مبعدة الغالبية الشيعية من سكان العراق عن مفاصل السلطة ومراكزها العليا وألحقت الأكراد قسراً بدولة قومية عربية. هذا هو البناء التحتي للدولة العراقية الحديثة كما يراها الباحث بيير جون لويزار حيث نصبت بريطانيا على عرش العراق العائلة الهاشمية الملكية التي وضعتها تحت تأثير وإشراف الحكومة البريطانية وفرضت عليها المعاهدة تلو الأخرى من معاهدة 1922 إلى معاهدة 1930 وإعلان الاستقلال الشكلي للعراق سنة 1932 وأصبح عضواً في عصبة الأمم ولكن في واقع الأمر كان هناك مستشارون بريطانيون في كافة الوزارات العراقية وهم الذين يتخذون القرارات وعلى رأسهم المندوب السامي البريطاني. ويستعرض المؤلف الانقلابات والثورات والتمردات والوثبات التي وقعت داخل الجيش وداخل المجتمع العراقي والتي سبقت حركة الضباط الأحرار وإنقلاب

14 تموز سنة 1958 وتأسيس الجمهورية العراقية بزعامة عبد الكريم قاسم الذي وصل إلى السلطة بانقلاب عسكري قام به الجيش العراقي الذي اعتبر بمثابة العمود الفقري للوطن. وخلال تلك الحقب كافة لم تتوقف المواجهة بين السنة والشيعة في العراق وإن اتخذت أشكالاً مختلفة حيث حافظ سنة العراق على احتكار السلطة كاملة بين أيديهم كما كان الحال في العهد العثماني بينما اتبع الشيعة السلطة الدينية والدنيوية للمراجع الكبار في هرم المراتبية الدينية الشيعية وهم الذين قادوا أولى الثورات ضد الاستعمار البريطاني.

ثم تأتي جمهورية الأوهام الضائعة كما سماها المؤلف عنواناً للفصل الثالث لكتابه، والتي تمتد من سنة 1958 إلى 1968 أي مدة عقد كامل منذ الإطاحة بالعرش الهاشمي وتدخل الجيش في الشؤون السياسية وممارسة السلطة السياسية في البلاد. أختار الزعيم عبد الكريم قاسم الأولوية العراقية على الأولوية القومية - العربية كما نادى بها جمال عبد الناصر وحزب البعث والقوميين العرب وأستند في اختياره هذا على أقوى الأحزاب السياسية العراقية اليسارية آنذاك وهو الحزب الشيوعي العراقي الذي اتهمه القوميون بالشعوبية. ولم ينجح الزعيم عبد الكريم قاسم في تهدئة أو حل المسألة الكردية التي تفجرت ضده سنة 1961.

أظهر البعثيون حقدهم ضد الشيوعيين والشيعة على السواء ورفعوا شعارات «لاشيعي ولا شيوعي ولاشرگاوي» منذ اللحظات الأولى لخروجهم من الائتلاف الوطني الذي تشكل ضد الحكم الملكي وخاصة سنة 1963 تاريخ الانقلاب البعثي - القومي الأول ضد نظام عبد الكريم قاسم.

تأتي مرحلة تسلط البعث مرة ثانية على السلطة في السنوات العشرة الأولى الممتدة من 1968 إلى 1979 حيث كان الحاكم الرسمي هو المهيب أحمد حسن البكر وهو عسكري حقيقي لكن الحاكم الفعلي كان صدام حسين المدني الذي لم يخدم الخدمة العسكرية الإلزامية ولم يكن يحمل حتى رتبة جندي بسيط. بقي هذا الثنائي في السلطة طيلة هذه السنوات التي تفاقمت فيها الصراعات المسلحة بين النظام الحاكم والأكراد في العراق واتسمت هذه الفترة بتجربة الجبهة الوطنية التي ضمت الشيوعيين في السلطة بصورة شكلية من عام 1973 إلى 1978، وتأميم النفط العراقي سنة 1972 وظلت السلطة تخشى من الشيعة ومراجعهم وتحاول إخضاعهم وإرعابهم بكل وسائل التهديد والتعذيب والاعتقالات، خاصة ضد حزب الدعوة الإسلامية بقيادة المرجع الشهيد آية الله العظمى محمد باقر الصدر. الذي أعدمته السلطات العراقية سنة 1980 بسبب موقفه المؤيد للثورة الإسلامية في إيران ولزعيمها آية الله العظمى المرجع الكبير روح الله الخميني الموسوي حيث أتهمه نظام صدام حسين بالتآمر والخيانة العظمى. وأصبح الجيش أداة قمع وتدمير بيد السلطة الحاكمة يسلطها النظام العراقي ضد الشعب وقواه السياسية المعارضة وضد الأكراد بشكل خاص. وتحول الجيش لخدمة البعث والتكريتيين المسيطرين على السلطة. وقد خاض المؤلف في كثير من التفاصيل والخبايا التي يجهلها القارىء الغربي والفرنسي بشكل خاص مثل قصة ناظم كزار وإعدامات الجواسيس واليهود في العراق سنة 1969 وتهجير الأكراد الفيلية الشيعة من العراق منذ عام 1970 والممارسات العنصرية والطائفية للنظام من خلال أمثلة عديدة مثل صدور كتاب

خير الله طلفاح خال صدام حسين ووالد زوجته ومربيه: «ثلاثة كان على الله ألاّ يخلقهم: المجوس واليهود والذباب». الخ... ويتصدى أيضاً لموضوع عودة النشاط للتيار الديني السياسي ممثلاً بحزب الدعوة الإسلامية ومواقف المرجع الديني الكبير آية الله العظمى السيد محسن الحكيم. وبوفاة هذا الأخير ظهرت في جنازته شعارات معادية للنظام لأول مرة مثل «يا صدام شيل إيدك هذا الشعب مايريدك». وبروز نجم الزعيم الإسلامي الكبير «خميني العراق» كما يسميه المؤلف، وهو المفكر آية الله العظمى محمد باقر الصدر الذي دفع حياته ثمناً لمواقفه البطولية.

الفصل الخامس حمل عنواناً ذو دلالة وهو «الهبوط نحو الجحيم: من سنة 1979 إلى؟؟؟؟» خاض فيه المؤلف بتفاصيل وقضايا خافية على الرأي العام الغربي من حربي الخليج الأولى والثانية إلى استفراد العائلة الصدامية بالسلطة المطلقة واشتداد العنف والقسوة والبطش والاستبداد الوحشي وعمليات الإعدام والتعذيب والتصفية الجسدية والإفقار العام للشعب العراقي وإذلاله ودور الأبناء والأخوة غير الأشقاء وأبناء عمومة صدام حسين في هذه المجازر وتقلد المدنيين المناصب والرتب العسكرية العليا وعسكرة المجتمع وتكاثر التنظيمات العسكرية والجيوش المتعددة من الجيش النظامي الذي يخشاه النظام دوماً، إلى القوات الخاصة إلى المتطوعين قسراً إلى الميليشيات إلى فدائيوا صدام الخ..

كرّس المؤلف الفصل السادس من كتابه للنفط – الملك Le Roipétrole، والإفلاس الاقتصادي للبلد وتبعات الحروب. حيث وضع النفط في خدمة اقتصاد الحرب وحرمان المواطنين من

انعكاساته المالية والاقتصادية وفشل سياسة الانفتاح النسبي التي كان النظام يعد بها الشعب العراقي. منذ وصول صدام إلى السلطة. استعرض الكاتب تداعيات الحرب العراقية - الإيرانية، وغزو الكويت، والحرب الثانية بين قوات التحالف والعراق، من الناحية الاقتصادية والنفسية والسياسية والاستراتيجية والعسكرية.

الفصل السابع من الكتاب تحدث عن وضع البلاد تحت الوصاية الدولية وانقسامه الفعلي ودماره الاقتصادي والمعنوي. والمساومات بين المنهزم والمنتصر في هذه الحروب، مقابل بقاء النظام في السلطة ولو بثمن إفقار المجتمع العراقي وتفكك لحمة المجتمع وإنهياره النفسي والأخلاقي حيث تفشت المحسوبية والمنسوبية والرشاوي والنصب والاحتيال والغش وشراء الذمم مع تفاقم العنف والقمع والتعذيب والاغتيالات والتصفيات الجسدية والاعدامات.

يسلط الباحث بيير جون لويزار الضوء على المعارضة العراقية وتشتتها بين المشاريع السياسية، والمشاريع الجماعاتية أو الشللية، ووصاية الأجانب والقوى الإقليمية. حيث واجهت المعارضة معضلة عدم حل «المسألة العراقية». ويتساءل مع كثيرين غيره عن ماهية وحقيقة السياسة الأمريكية تجاه العراق إن وجدت فعلاً. فقد بات مؤكداً اليوم مع كثير من الأدلة القاطعة التي لاتقبل الجدل أو النقض إن الولايات المتحدة هي التي لم تسمح بنجاح الانتفاضة الشعبية في آذار 1991 التي يسميها العراقيون «الانتفاضة الشعبانية المجيدة». بل وساعدت الولايات المتحدة الأمريكية وقوات التحالف الغربي النظام

العراقي المهزوم في حربه على سحقها بالحديد والنار وذبح مئات الآلاف من ابناء الشعب العراقي المشاركين فيها من عرب وأكراد أمام أنظارهم وهم يتفرجون ولايحركون ساكناً. كما يستعرض أوضاع كردستان العراق وحيرتها بين المضي في مشروعها منفردة وبين حتمية الحل العراقي للعراق ككل عرباً وأكراداً. ويغوص الكاتب في حيثيات دقيقة للمعارضة العراقية وتشعباتها بالأرقام والأسماء والتواريخ ليخرج بنتيجة أنها غير فاعلة وحدها وغير قادرة على إطاحة نظام صدام حسين بسبب تشتتها وعدم توحيد صفوفها واتفاقها على برنامج مشترك واضح ولو في حده الأدنى.

فالعراق يقف اليوم وسط الرهانات والأطماع والمشاريع الإقليمية المتضادة والمتباينة والمتنافرة. كما يوحي بذلك مضمون الفصل التاسع من الكتاب. حيث أختفى العراق من المسرح الشرق أوسطي السياسي لفترة من الزمن بعد الحرب واعتراف المحيط الإقليمي ضمنياً وليس علنياً بالهيمنة الأمريكية على العراق منذ وقف إطلاق النار في خيمة صفوان. ويتطرق إلى تفاصيل العلاقات المعقدة بين العراق وحلفاء الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة وخاصة العربية السعودية والأردن ومصر. وتفرد الموقف السوري وخصوصيته.

الفصل العاشر خصص بأكمله لدراسة وتحليل ومناقشة سياسة إيران العراقية وهو نفسه عنوان الفصل. يتناول الباحث مفاصل ومرتكزات هذه السياسة منذ نشأت الدولة العراقية الحديثة إلى اليوم نظراً لتداخل المجتمعين الإيراني والعراقي والعوامل المشتركة بينهما خاصة من الناحية الدينية والمذهبية ناهيك عن المنافسة

التاريخية بين العثمانيين والصفويين، ودعم النظام الإيراني الشاهنشاهي للأكراد في تمردهم ضد النظام المركزي في العراق. النظام العراقي يعرف جيداً طبيعة هذه العلاقة المتميزة بين الشعبية والتداخلات بين رجال الدين والمراجع الشيعة العرب والإيرانيين. ويمكننا القول إن أحد أسباب شن العراق لحربه ضد إيران في 22 أيلول / سبتمبر 1980 هو بغية إحتواء إمكانية تفجر ثورة دينية عراقية ضده كامتداد لعدوى الثورة الإسلامية الدينية الإيرانية ضد الشاه. إلى جانب خدمة المخططات والمشاريع الأمريكية المعادية لإيران الإسلامية واستخدام العراق كذراع مسلحة ضارية لتدمير الثورة الإيرانية واستنزاف الدولتين العدوتين. ويعالج هذا الفصل موضوعاً شائكاً يسمم العلاقات بين البلدين وهو موضوع «عراقيوا إيران، وإيرانيوا العراق» حسب تعبير المؤلف ودعم النظامين العراقي والإيراني للمعارضة المسلحة لديهما. وموقف إيران من كردستان العراق حسب تغير الأوضاع الدولية والاستراتيجية والسياسية المحلية والإقليمية والدولية. ويصل المؤلف إلى أحداث 11 أيلول وانتشار مصطلح محور الشر والحرب الموعودة ضد العراق أولاً وربما ضد إيران أيضاً فيما بعد.

الفصل الأخير كرّسه الباحث بيير جون لويزار لتحليل ومناقشة السياسة الأمريكية تجاه العراق منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة واعتبار واشنطن للعراق بمثابة «الثقب الأسود» الذي أصبح غنياً باكتشاف الذهب الأسود في أراضيه ونشوء قصة حب بين النظام العراقي والغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية منذ العام 1975 إلى عام 1990 ونشاط اللوبي العراقي في كافة دول الغرب

لتزويده بأحدث المعدات العسكرية وأسلحة الدمار الشامل لسحق إيران وإجهاض الثور الإسلامية فيها وتشكيل التحالفات الاستراتيجية بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية حتى أن وزير الدفاع الحالي وحامل لواء مهاجمة العراق دونالد رامسفيلد كان مستشاراً عسكرياً لصدام حسين إبان الحرب العراقية - الإيرانية وعراباً لعودة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين وتطوير العلاقات الاستراتيجية بينهما. وبعد إنتهاء حرب العراق ـ إيران حان وقت تصفية الحسابات ووضعت دول الخليج في الواجهة لدفع فاتورة الخسائر المالية والعسكرية والبشرية العراقية خلال ثماني سنوات لحمايتها من الخطر الإسلامي ـ الشيعي ـ الإيراني. لكن الفخ الأمريكي أطبق على صدام حسين وكان معداً له منذ فترة طويلة، حيث أغري بغزو الكويت لإيجاد الذريعة السياسية لتقليم أظافره. لكن هذا الأخير حاول التمرد والتهديد والمطالبة بدفع الثمن. لكنه سيدفع هو نفسه ثمن سياساته الإجرامية وقد يكون ذلك حياته شخصياً أو على الأقل نهاية نظامه.

الفصل السابع

دردشة في باريس

بين جواد بشارة(*) والباحث بيير جون لويزار(**)

عن العراق بعد عشر سنوات من سقوط النظام الصدامي

بيير جون لويزار غني عن التعريف فهو صاحب الكتاب المرجعي الكبير: «دور رجال الدين الشيعة المراجع في تأسيس الدولة العراقية الحديثة» وهو عبارة عن أطروحته لنيل الدكتوراه، وكتابه المرجعي الآخر عن العراق الذي حقق رقما قياسيا في المبيعات وصدر قبل حرب إطاحة صدام حسين بقليل في يناير 2003 وهو «المسألة العراقية»، وهو صديق مقرب جداً للنخبة المثقفة العراقية المقيمة في فرنسا وصديق شخصي لي أنا بالذات، وهو مدير أبحاث في المركز الوطني للبحوث العلمية. أقام عدة سنوات في عدد من الدول العربية في الشرق الأوسط كقطر ومصر وسورية والعراق وهو يتقن اللغات الفرنسية والانجليزية والعربية والفارسية، وهو

(*) باحث وكاتب عراقي مقيم في فرنسا.

(**) باحث فرنسي متخصص بالإسلام الشيعي.

كذلك مؤرخ للإسلام المعاصر في تلك البلدان، ويهتم على نحو خاص بالمذهب الشيعي ومؤسسة المرجعية الشيعية وهو أستاذ جامعي وباحث في مجموعة المجتمعات والأديان والعلمانية وهي مؤسسة بحثية في باريس ملحقة بالمدرسة العليا للدراسات التطبيقية. كان اللقاء بمناسبة مرور عشرة أعوام على الغزو الأمريكي للعراق من قبل التحالف الدولي الذي قادته الولايات المتحدة الأمريكية لاحتلال العراق وإنهاء النظام الديكتاتوري الذي كان يقوده صدام حسين. ومنذ ذلك الوقت أي سنة 2003 إلى يومنا هذا في أواسط العام 2013، لم يخرج العراق من حالة الفوضى وعدم الاستقرار والعنف الطائفي والإرهاب الإسلاموي التكفيري الذي يضربه في كل يوم، وما زال العنف الداخلي الدامي مستمراً على خلفية الفساد المستشري ومحاباة الأقارب والمحسوبية والمنسوبية والحزبوية الطاغية على كافة المستويات في مفاصل الدولة والمجتمع العراقيين بالتوازي مع تفاقم الصراعات والخلافات والمواجهات بين المكونات الثلاث الرئيسية لبنية المجتمع العراقي وهم الأكراد والعرب الشيعة والعرب السنة إلى جانب أقليات دينية أخرى كالصابئة والآشوريين والكلدانيين والأزديين والشبك الخ. يسيطر الأكراد على الجزء الشمالي من العراق حيث تتمركز أغلبية سكانية كردية ويتمتعون بحكم ذاتي حقيقي كامل وبشبه استقلالية دائمية ويبدو أنهم عازمون على نيل استقلالهم الناجز والكامل عن طريق الانفصال وإعلان دولتهم المستقلة، فيما العرب السنة الذين كانوا في سدة الحكم طيلة عقود طويلة يشعرون بالتهميش منذ سنة 2003 ويعبرون عن غضبهم تارة بالتظاهرات وتارة

بالاعتصامات وأحياناً بأعمال عنف وعمليات إرهابية تحدث باسمهم على يد تنظيم دولة العراق الإسلامية التابع لتنظيم القاعدة الإرهابي بالتعاون والتنسيق مع بقايا وفلول حزب البعث الصدامي بقيادة عزت الدوري وبتشجيع تركي وأردني وتمويل قطري وسعودي وهابي. الجهة المستهدفة من هذا الحراك المعارض بكافة أشكاله هو نوري المالكي رئيس مجلس الوزراء والتحالف الشيعي الكردي الذي يملك الأغلبية البرلمانية، علماً بأن المالكي يواجه معارضة ومناورات هي أقرب للمؤامرات ضده حتى من داخل التحالف الوطني الشيعي من جانب مقتدى الصدر وكتلة الأحرار التابعة له وكتلة مواطن التابعة للمجلس الأعلى الإسلامي بقيادة عمار الحكيم وريث عبد العزيز الحكيم وعمه محمد باقر الحكيم على رأس المجلس الأعلى الذي يطمح لقيادة شيعة العراق وأخذ منصب رئاسة الحكومة من حزب الدعوة المنافس له بقيادة نوري المالكي. العراق في حالة ضعف وهشاشة بادية العيان وعرضة لتأثيرات وتداعيات الأزمة السورية في وقت تخوض كل من إيران وتركيان حرب نفوذ إقليمية مسعورة خاصة داخل العراق من خلال أنصار وأتباع محليين لكلا الدولتين يتصارعان بالوكالة لحساب الدولتين الإقليميتين الجارتين للعراق. ونظرا لكون العراق دولة منخورة ومنهكة جراء سنوات طويلة من الحصار والمقاطعة الدولية وعدة حروب دموية مميتة خاضها نظام صدام، بات من السهل اختراقها سياسيا واقتصاديا ومخابراتياً مما أفقد حكومتها السلطة الحقيقية والانسجام والتماسك الداخلي بين مكوناتها وبالتالي عجزها عن فرض نفسها كلاعب إقليمي محايد ذو نفوذ وتأثير

على مجريات الأحداث المحيطة به. ولفهم ما يحدث حالياً في العراق لا بد من العودة إلى أسس وأصول الدولة العراقية الحديثة لمعرفة عجزها وعدم قدرتها على تجاوز أزمتها الحالية المستعصية على الحل كما يقول بيير جون لويزار.

يقول بيير جون لويزار بهذا الصدد: لو أخذنا التطور التاريخي بعين الاعتبار فسيمكننا تمييز دولتين عراقيتين، الأولى هي الدولة الناجمة عن ثورة 1920 والثاني هي تلك التي تكون وتمحورت حول دستور 2005. وهناك بين الدولتين نقاط تشابه كثيرة تشير إلى استمرارية ملموسة وحقيقية تمس مكانة الدولة في تاريخ البلد. وعليه يتعين علينا أن نسجل أهمية العامل المهم المتمثل بالتدخل الأجنبي الذي حدث قبل نشوء الدولتين، أي التدخل العسكري البريطاني والأمريكي على التوالي. فالدولة العراقية الأولى هي كيان من صنع استعماري يعود إلى فترة الانتداب البريطاني على وادي الرافدين والذي فرض في أعقاب الحرب العالمية الأولى في إطار تفكيك الإمبراطورية العثمانية. وكانت الدولة الأولى نتاج الجمع بين ولاية البصرة وولاية بغداد ومن ثم ألحق بهما ولاية الموصل فيما بعد. وكانت القوى المحتلة في الحالة الأولى وفي الحالة الثانية أيضاً، قد أولت اهتماماً خاصاً في تبرير حضورها المباشر على أرض العراق بذرائع نقل الحضارة والمدنية باسم حق الشعوب في تقرير مصيرها كما قيل سنة 1920، ونشر الديموقراطية ومبادي حقوق الإنسان كما أشيع سنة 2003. بيد أن الإدارة الأمريكية فوجئت منذ الأسابيع الأولى لتدخلها العسكري بعقم هذه الأطروحة وعدم فعاليتها ونجاعتها وجديتها فمخططيها الاستراتيجيين ومنظريها لم يتوقعوا

أن انهيار نظام صدام حسين سوف يترجم ويقود حتماً إلى انهيار الدولة العراقية الأولى ومؤسساتها ودستورها سواء ما كان عليه في العهد الملكي أو ما آل إليه في العهود الجمهورية المتعاقبة, فبعد سقوط نظام البعث انهار الأمن وانتشر الحواسم في كل مكان لسرقة ممتلكات الدولة ومؤسساتها الحكومية وشاع الانفلات الأمني واختفت الآلة الأمنية الرادعة وتبخرت السلطة المركزية فنهبت الوزارات وهرب العسكريون بمختلف مراتبهم إلى بيوتهم في جو من الخوف والهلع والفوضى ولم يكن هناك من يستطيع أن يتحدث أو بتفاوض بصورة شرعية باسم الدولة وبات على الأمريكيين أن يفكروا ببناء دولة عراقية جديدة من الصفر على انقاض الدولة العراقية الأولى وسط حالة من الفوضى والخراب المادي والمعنوي والنفسي وإلا سيتحول العراق إلى دولة فاشلة أو إلى اللادولة، أي مجرد شعب وأرض ورحلة نحو المجهول. وهذا يعني أن مؤسسات الدول في العراق مرتبطة في تكوينها ونشأتها بمراحل الاحتلال ولم يكن لها تأثير حقيقي، إلا عن طريق القوة والعنف والسطوة المسلحة، على الصراعات العرقية والدينية والمذهبية التي تنهش نسيج المجتمع العراقي. من المتفق عليه كما يعتقد بيير جون لويزار من خلال نقاشنا حول العراق، أن أي قوة احتلال تجد امتدادات لها داخل البلد المحتل، وفي حالة العراق، وجدت قوى الاحتلال هذه الامتدادات داخل المكونات العرقية والطائفية المتناحرة لأن مؤسسات الدولة القائمة لم تنجح في تجاوز وامتصاص وتذويب الصراعات الطائفية والعرقية والمذهبية والدينية بل على العكس ساهمت في تعزيزها وترسيخها في جسد المجتمع العراقي. عندما حلت الإمبراطورية البريطانية محل

الإمبراطورية العثمانية استندت، على غرار الباب العالي العثماني، على نخبة مدنية وعسكرية مذهبية سنية وبعض الشخصيات الدينية وشيوخ الطرق الصوفية والاقطاعيين وملاك الأراضي. وجميع هؤلاء حافظوا على امتيازاتهم التي كانوا يمتلكونها تحت الحكم العثماني حيث كان السنة متواجدون في البيروقراطية الإدارية وقيادات الجيش العثماني واحتفظوا بمواقعهم القيادية على رأس الدولة العراقية الأولى لغاية 2003. وفرض البريطانيون منذ وصولهم كقوة محتلة نموذج دستوري للدولة ـ الأمة، وتعاملوا مع أيديولوجية القومية العربية، أو بالأحرى مفهوم العروبة، بالرغم من غرابة هذه النزعة وعدم تجذرها في المجتمع العراقي آنذاك. فهذه الأيديولوجية تستبعد الأكراد وكذلك الشيعة المتهمين بالتبعية الفارسية أو الإيرانية من مفاصل الدولة القيادية وتعاملهم كمواطنين من الدرجة الثانية والثالثة. كيف حصل هذا ولماذا وهل من المعقول والمنصف الاستناد على أقلية على حساب الأكثرية؟ يفسر بيير جون لويزار ذلك بالقول: بات من الواضح بعد مراجعة الوثائق التاريخية أن السنة الحاملين للجنسية العثمانية هم الذين منحوا أتوماتيكياً وبصورة آلية الجنسية العراقية الجديدة بعد تأسيس الدولة العراقية الأولى في حين تعين على باقي المكونات وخاصة الشيعة أن يتقدموا بطلبات وأن يثبتوا عراقيتهم للحصول على الجنسية العراقية. فارتياب الشيعة بالسلطة الجديدة وبكل السلطات المركزية السابقة له أسباب وجذور تاريخية. فهم لم يعترفوا بشرعية السلطان، الخليفة العثماني وتمتعوا بشبه استقلالية ذاتية لا سيما في الأرياف حيث يتمركز غالبية الشيعة في ذلك الوقت وغياب الجيش العثماني الدائم هناك حيث كان يكتفي

بالقيام بحملات دورية تكون أحياناً دموية لكنها منتظمة لفرض هيبة الدولة العثمانية وسلطتها. وكان النظام الأمني في الأرياف تؤمنه ما يشبه الميليشيات العشائرية التي لا تتلقى أوامرها إلا من قبل شيوخ العشائر وآيات الله العظمى المراجع الشيعة المتجمعون في المدن الشيعية المقدسة النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء. حتى أن الكثير من الشيعة رفضوا دفع الضرائب للدولة العثمانية فهم يدفعون الخمس من عائداتهم ومداخيلهم للمرجعيات الدينية الشيعية الذين يجسدون السلطة الدينية والدنيوية البديلة والموازية لسلطة الباب العالي. فالشيعة يشعرون أن السلطة المركزية في العهد العثماني بنيت على أسس طائفية صريحة ومتعمدة أرادها وفرضها السلطان العثماني لذلك عارضها الشيعة ورفضوا حتى تأدية الخدمة الإلزامية في صفوف الجيش العثماني. ومن ثم تواصلت هذه السياسة تحت الاحتلال البريطاني وتبناها علانية وصراحة نظام البعث الصدامي مع فرق أساسي وهو أنه عامل الشيعة بدونية وبأنهم مواطنون من الدرجة الثانية هم والأكراد واضطهدهم ومع ذلك فرض عليهم الضرائب وحارب مراجعهم وأرغمهم على تأدية الخدمة الإلزامية وزجهم في الصفوف الأولى في حروبه العبثية.. وتأكيداً لرؤيتي الشخصية أن هذا النهج في بناء المؤسسات تحت راية المحتل الأجنبي يساهم في تعزيز وترسيخ وتعميق التفرقة الطائفية ويكرس المحاصصة الطائفية منذ 2003، اتفق معي بيير جون لويزار على أن السلطات الأمريكية المحتلة لم تتمكن من الاعتماد على الأقلية السنية كما كان الحال في العد العثماني والاحتلال البريطاني والعهدين الملكي والجمهوري السابقين فقلبت المعادلة بعد سقوط

النظام البعثي الصدامي وانحازت للمكونات الأخرى ذات الغالبية العددية كالشيعة والأكراد الذين كانوا مستبعدين ومهمشين ويشكلون أغلبية في المعارضة العراقية إلى جانب بعض الأحزاب العلمانية المعارضة ولديهم ميليشياتهم الخاصة. عادة يكون الأمر أسهل على قوة الاحتلال الاستناد على أقلية لحكم الأغلبية لأن العكس واختلال توازنات القوى سيجعل الأقلية تشعر بالتهميش والاقصاء من قبل الأغلبية المستحكمة بالسلطة. وهكذا بنيت الدولة العراقية الثانية على أساس طائفي وإثني حتى وإن لم ينص على ذلك صراحة في الدستور العراقي إلا أن واقع الحال يشير إلى أن الدولة العراقية الثانية هي دولة محاصصة طائفية وإثينة على غرار الدولة اللبنانية. فكل المراكز القيادية والرئاسات الثلاث للجمهورية والوزراء ومجلس النواب وزعت على هذا الأساس المحاصصاتي فلكل رئيس نائبين من المكونات الأخرى يختلفان عن انتمائه فإذا كان الرئيس كردي فيجب أن يكون لديه نائبان سني وشيعي عربيان وإذا كان عربي سني فلديه نائبان كردي وشيعي وإذا كان شيعياً فعليه أن يحاط بنائبين سني وكردي. والحال ن الأكراد يصوتون لصالح المرشحين الأكراد والشيعة يصوتون لصالح المرشحين الشيعة مع استثناءات قليلة والسنة يصوتون لصالح مرشحين سنة. فمن السهل الوقوع في فخ الطائفية والمحاصصة ولكن من الصعوب الخروج أو التخلص منهما.

كانت النية المعلنة من جانب قوات الاحتلال هي عدم تسليم السلطة لطرف أو مجموعة أطراف متحالفة على حساب طرف آخر أو مجموعة أطراف متحالفة أخرى وعدم العمل بمبدأ الأغلبية الانتخابية بل وفق مبدأ المشاركة والشراكة والتوافق الوطني وتمثيل

الجميع في كافة مرافق السلطة أي حكومة وحدة وطنية لكنها على ما يبدو رؤية طوباوية مآلها الفشل والاخفاق نظرا لتعقيد الواقع العراقي وعمق الخلافات المستأصلة في الشركاء السياسيين والأهم من ذلك كله فقدان الثقة كلياً بعضهم في البعض الآخر وضعف الانتماء الوطني أو الشعور بـ «العراقية أو الانتماء للعراق» والولاء للطائفة والقومية والحزب قبل الولاء للوطن مما خلق حالة من الانغلاق والانسداد السياسي الدائمة والتي يصعب الخروج منها وأتاح الفرصة لبقايا النظام السابق وللقوى التكفيرية الإسلاموية المسلحة أن تخترق النسيج الاجتماعي العراقي بحثاً عن حاضنة اجتماعية لها مستغلة الشعور بالإحباط والتهميش لدى البعض. فحتى لو بدا ظاهرياً أن كل الأحزاب والكتل السياسية والمكونات الاجتماعية ممثلة في السلطة إلا أن واقع الحال يقول أن القوي ينهش الضعيف ويلجأ للقوة الذاتية والميليشيات المسلحة الخاصة به لفرض وجهة نظره على الآخرين ولتحقيق المكاسب المادية والمعنوية والسياسية التي يريدها . وكمثال على ذلك، ومن داخل التحالف الشيعي، لاحظنا كيف أن ميليشيات مقتدى الصدر زعيم التيار الصدري وكتلة الأحرار، من خلال ذراعها المسلح جيش المهدي، تحدت سلطة رئيس الوزراء نوري المالكي زعيم حزب الدعوة ورفعت في وجهه السلاح بمجرد ظهور خلافات معه على كيفية إدارة شؤون الدولة، وعند انتهاء المواجهات المسلحة بين الطرفين بمساعدة وتدخل القوات الأمريكية، تراجع الصدر واتباعه شارك في الانتخابات التشريعية وفازت كتلته بمقاعد في مجلس النواب وبعدد من الوزارات الخدمية وغير الخدمية ومع ذلك

يشن هجوماً مسعوراً ضد الحكومة وكأنه معارضة وليس شريكاً في الحكم. أما الدستور العراقي فهو معضلة أخرى لأنه مليء بالتناقضات والغموض وقابل التأويل لنصوصه حسب أهواء ورغبات الأطراف المتخاصمة فالكل يلجأ للدستور ليثبت صحة رأيه وهو دستور فيدرالي اتحادي كما هو معروف ومن هنا يمكننا القول باستحالة اصلاح النظام الحالي لأن جميع الأطراف المشاركة فيه تجد مصلحتها في هذا الوضع الشاذ. إن هذا الواقع السياسي الفريد من نوعه وهذا النمط من الأنظمة، بما فيه جهاز الدولة الذي بني عليه، يشرع الأبواب أمام النزاعات والصراعات الإثنية والعرقية والمذهبية والطائفية والدينية داخل الموزاييك المجتمعي العراقي، وهو هش بما فيه الكفاية لكي يكون قابلاً للاختراق والتأثر بالصراعات أثنية والدينية والعرقية الدائرة في المحيط الجغرافي للعراق لا سيما الحرب الأهلية في سورية حيث يلعب الجانب الطائفي دوراً جوهرياً فيها، وهذا ما يفسر وقوف حزب الله اللبناني وإيران وبعض القوى المسلحة الشيعية العراقية إلى جانب بشار الأسد في حين يساند بعض الوزراء والسياسيين السنة العراقيين رسمياً وعلنياً تنظيم الإخوان المسلمين أحد أهم وأكبر الجماعات المسلحة في المعارضة السورية إلى جانب الجماعات الإسلامية المسلحة السلفية والتكفيرية التي تخوض حرباً مسلحة شعواء ضد نظام الأسد. ويمكننا القول أن مختلف الأطراف ومراكز القوى في طهران تتواجه فيما بينها بالوكالة من خلال الميلشيات التي تدعمها أي إن طهران تدعم كافة الأفرقاء والأطراف والميليشيات المسلحة رغم الاختلافات الجوهرية الموجودة فيما

بينها. وأمام هذه اللوحة التي رسمتها حسب رؤيتي للواقع السياسي العراقي تساءل بيير جون لويزار عن تبعات وتداعيات التفكك السياسي الطائفي القومي جغرافياً على العراق في حالة انهيار العلمية السياسية. وتطابقت وجهتا النظر بيننا حول كون العراق كان وما يزال اليوم مقسم مجتمعياً وعرضة للاستقطابات الدينية والعرقية والمذهبية والطائفية ويعاني من شرخ كبير بين مكونين أساسيين له هم العرب والكورد وهذا واضح جغرافياً. ويتميز المكون العربي بالتركيبة العشائرية البدوية والتنافر المذهبي بين الأغلبية السكانية الشيعية والأقلية السكانية السنية التي باتت تتجذر أكثر فأكثر اليوم بسبب الخطاب الطائفي الطاغي في لغة السياسيين العراقيين. ويتجسد ذلك حتى على مستوى التجمعات السكنية في الأزقة والأحياء داخل المدينة الواحدة فضلاً عن مدن بأكملها وقعت ضحية لهذا الفرز السكاني الطائفي وما يترتب عليه من مآسي وتهديد وتهجير وتطهير مذهبي منظم وممنهج. فبينما كانت نصف بغداد سنية قبل عام 2003 باتت اليوم في غالبيتها شيعية بعد أن أتيح للشيعة المجيء والإقامة فيها الأمر الذي كان ممنوعاً في زمن النظام الصدامي السابق. اما الأحياء التي تتعايش فيها وتتجاور المكونات المختلفة من شيعة وسنة وأكراد وغيرهم، فإنها تعاني من توترات مستمرة. وكذلك تجرأت مدن بأكملها بالمطالبة بالفيدرالية أسوة بما حققه الكورد في كردستان العراقية سواء في المناطق الغربية للعراق ذات الأغلبية السنية أو في المناطق الوسطى والجنوبية ذات الأغلبية الشيعية. وهذا يذكرنا بما حدث في لبنان إبان الحرب الأهلية الأمر الذي جعل من الصعب التوصل

إلى حلول سياسية مرضية للجميع. لذلك نعتقد أن العراق سيظل منطقة غير مستقرة وعرضة للاهتزازات والقلاقل وعدم الاستقرار لفترة طويلة من الزمن لا سيما بعد حدوث ما يسمى بالربيع العربي وما أفرزه من تداعيات وانعكاسات ومعطيات جديدة جيوبولتيكية، فليس مستبعداً أن تجتاح الأزمة السورية العراق وتهدد توازنه الهش القائم حالياً، وربما سيقود ذلك إلى تقسيم العراق إلى دويلات ثلاث متناحرة وضعيفة قد ترتبط ببعضها في نوع من الكونفدرالية.

الفصل الثامن

الإسلام: السنة والشيعة

لماذا يتعارضان ويتخاصمان، منذ ألف وخمسمائة عام؟

نرى اليوم مواجهات سنية شيعية في كل مكان في العالم الإسلامي، فهناك عمليات خطف رهائن وتفجيرات وتهديد بمواجهات مسلحة في لبنان بين السنة والشيعة، بين إتباع الحريري ممثل السنة وإتباع حزب الله ممثل الشيعة، وهناك معارك دامية في اليمن بين الحوثيين الشيعة وقبائل سنية مثل آل الأحمر أو تنظيم القاعدة السني، وارتفع في عدد ضحايا العنف الطائفي في مواجهات وتفجيرات مساجد وجوامع ومدارس شيعية وسنية خاصة في عام 2013، وهناك مواجهات وتوترات وتظاهرات صاخبة بين الأقلية السنية الحاكمة ولأغلبية الشيعية المحكومة التي تشعر بالظلم والتهميش، وبالطبع هناك المشهد الدامي الماثل أمامنا يومياً في سوريا والعراق، بين الأقلية العلوية والأغلبية السنية في سوريا وبين الأغلبية الشيعية والأقلية السنية في العراق، وحتى في السعودية ودول الخليج التي تواجد فيها أقليات شيعية تشعر بالتمييز وسوء المعاملة وكذلك في مصر ودول شمال إفريقيا ولو بدرجة أقل حدة، وهكذا

فإن الصراع الألفي الذي يعيشه التياران الرئيسيان في الإسلام - السني والشيعي - مستمر منذ قرون وتترتب عليه تداعيات دامية في كل يوم. فما هي الأسباب؟ ولماذا هذه القطيعة بين فرعي الإسلام؟.

في الحقيقة كان الإسلام منشقاً إلى ثلاث أجنحة السنة والشيعة والخوارج، إلا أن هذا الفرع الأخير من الإسلام اندثر تثريباً مع الوقت ولم يبق له إلا وجود رمزي في عمان وفي تونس والجزائر وأتباعه قليلون جداً، لا يشهرون مذهبهم ولا يحبذون أن ينعتهم أحد بالخوارج ويقولون أنهم مسلمون فقط، والحال أن الشيعة يمثلون حوالي 20% من مجموع المسلمين بينما يمثل السنة 80%، فلماذا حدث هذا الانشقاق؟ يجيب لورنس لوير Laurence Louër أستاذ العلوم السياسية Sciences Po-Ceri والباحث في المركز القويم الفرنسي للبحوث العلمية CNRS،: عند وفاة النبي محمد في 632 بعد الميلاد 2 ap. J.C63 حسم السنة الأمر لصالحهم وفرضوا خلافة أبو بكر خليفة لكافة المسلمين شاءوا أم أبوا، ومنذ تلك اللحظة إنقسم المشهد الإسلامي إلى قسمين عرفوا فيما بعد بالسنة والشيعة. وفي عام 646 قتل الخليفة السني الثالث عثمان ابن عفان وهو أموي فتناهت عشيرته بني أمية للأخذ بالثأر وتمرد والي الشام معاوية ابن أب سفيان على الخليفة الرابع زعيم الشيعة في العالم الإسلامي، بذريعة إقامة الحد على قتلة عثمان والمطالبة بدمه وشن الحرب على الإمام علي الخليفة الشرعي في صفين. وفي سنة 661 تم اغتيال الخليفة الرابع الإمام علي بن أب طالب على يد أحد الإرهابيين من الخوارج المنشقين عن علي. ومن ثم فرض معاوية الصلح على وريث الإمام علي ابنه الإمام الحسن بن

علي الذي تنازل عن الخلافة لصالح معاوية حيث بدأت الدولة الأموية السنية تحكم العالم الإسلامي برمته وتضطهد الشيعة. وهكذا تشظى الإسلام إلى قسمين، الشيعة الذين لا يعترفون بخلافة أبو بكر وعمر وعثمان ويرون علي بن أبي طالب هو الخليفة الشرعي الوحيد للنبي محمد، والسنة الذين لا يرون في علي سوى كونه الخليفة الرابع للمسلمين دون أية امتيازات أخرى. وهم يعترفون بشرعية الحكم الأموي.

انتقال الخلاف من السياسة إلى العقيدة:

بات لدى الشيعة فيما بعد بعد خلاصي مهم متغلغل في عقيدتهم الدينية وطقوسهم وشعائرهم، وهو بعد غير موجود لدى أهل السنة كما يؤكد لورنس لوير. ويوضح هذا الأكاديمي المتخصص بموضوع الإسلام أن الشيعة الإثني عشرية ينتظرون ظهور إمامهم الثاني عشر الغائب عن الأنظارمنذ سنة 874 وهو المهدي المنتظر حيث سيقيم حكم الله عند عودته وسينتصر على أعداء الإسلام ويملأ الأرض قسطاً وعدلا بعدما ملئت ظلماً وجورا، ويعيد الحق إلى نصابه. ومن الناحية العقائدية يختلف الطرفان أيضاً، حيث يعتقد الشيعة أنه يتعين على خلفاء النبي أن يكونوا قادة سياسيين ودينيين في آن واحد وبمستطاعهم الولوج إلى عمق وجوهر وباطن الرسالة المحمدية ومعرفة الأسرار الإلهية التي تتضمنها الرسالة وكشف معناها الخفي للمؤمنين، في حين يعتبر السنة أن الخليفة ليس سوى زعيم ذو مؤهلات سياسية فحسب، ويمارس الشيعة شعائر دينية خاصة بهم كطقوس عاشوراء التي لا يعترف بها السنة.

إنقسم الشيعة بدورهم إلى عدة فرق حسب الإمام الذي يتوقفون عنده ولا يعترفون بمن يأتي بعده لكن الأغلبية هم من الشيعة الإثني عشرية الذين يؤمنون بسلسلة أئمة معصومين عددهم إثني عشر إماماً أولهم الإمام علي بن أبي طالب وآخرهم محمد بن الحسن العسكري المهدي المنتظر. ويتواجدون كأغلبية في إيران والعراق ولبنان والبحرين واليمن وسوريا والكويت، وأقلية في السعودية والإمارات العربية المتحدة ومصر والأردن، ولكن كونهم أغلبية أو أقلية لا علاقة له بمن يمسك بزمام السلطة السياسية في البلاد. فدول الخليج محكومة من قبل الأغلبية السنية بينما يحكم العلويون، وهم أقلية وأحد الفرق المنشقة عن الشيعة، سوريا من خلال عائلة الأسد العلوية وهي دولة ذات أغلبية سنية وفيها اقلية مسيحية، ويتقاسم الشيعة، وهم أغلبية في لبنان، السلطة مع طوائف أخرى مثل المسلمين السنة والدروز والمسيحيين. وتعتبر إيران هي الدولة الوحيدة التي يكون فيها التشيع هو المذهب الرسمي للدولة. وفي العراق كان الحكم بيد الأقلية السنية لعقود طويلة لكن السلطة انتقلت للأغلبية الشيعية منذ إطاحة نظام صدام حسين عام 2003 كما يقول لورنس لوير.

تفاقمت حدة الصراع والتنافس بين قطبي الإسلام الرئيسيين منذ العام 1979 بسبب المواجهة المعلنة بين القوتين الإقليميتين الأكبر في المنطقة وهما إيران والمملكة العربية السعودية حيث تحظى إيران بدعم منظومة دول البريكس - روسيا والصين والهند وجنوب أفريقيا، بينما يدعم الغرب ويحمي المملكة العربية السعودية.

ونفس هذا الطرح سجله الطالب في الدراسات العليا في معهد الميديا الالكترونية في مدرسة الصحافة في إكس أون بورفانس، آدريان برياند، في بحث تقدم به لنيل الدبلوم العالي.

Fiche d'actu réalisée par Adrien Briand, étudiant à «l'e-médias Institut, l'école de journalisme d'Aix en Provence».

وكرر ما ذكرناه أعلاه وهو إن الإسلام إنقسم على نفسه إلى قسمين سنة 632 لأسباب سياسية، للسيطرة على مقدرات الدولة الإسلامية الفتية إثر وفاة مؤسسها النبي محمد. ومن ثم إنقسم السنة إلى أربع مدارس فقهية شكلت ما بين 80 إلى 85 % في حين شكل الشيعة ما بين 15 إلى 20% من مجموع المسلمين في العالم ويتوزعون على عدة دولة يعيشون فيها إما أقلية أو أكثرية.

ظهور عقيدتين إسلاميتين متباينتين:

وطبقاً لـ آدريان برياند فلقد أشارت المراجع السنية إلى أن لنبي لم يسمي أحداً خلفاً له ولم يوصي بتصيب أحد بعد وفاته سنة 632، في حين يقول الشيعة بعكس ذلك وإن النبي أوصى لعلي، يأمر من الله، بأن يكون خليفته في المسلمين في عدة مناسبات ويستندون إلى عدد من الآيات والأحاديث والحوادث. ومنذ ذلك الحين جسد شخصان متنافسان مفهومين للإسلام، تمثل الأول بالعودة إلى التقاليد القبلية وتجسد بشخصية أبو بكر، صاحب الرسول منذ بواكير الدعوة المحمدية، والمفهوم الثاني تمثل بالتمسك بالثوابت وبشخصية الأصلح والأعلم والأفضل والأقرب للنبي وتجسد ذلك بشخص علي بن أبي طالب ابن عم النبي وصهره زوج إبنته وإبنه

الروحي، والذي كان يحظى بتأييد عدد كبير من الصحابة والقبائل، إلا أنه لم يقاتل لتثبيت حقه ومالت الكفة بما يشبه الانقلاب العسكري وبسرعة مذهلة لصالح منافسه أبو بكر الذي أصبح الخليفة الأول وليواصل مهمة النبي الدنيوية أي الزعامة السياسية للأمة. لقد حكم أبو بكر سنتين فقط وتوفي سنة 634 وكان خليفة لرقعة واسعة من الأراضي تمتد من شبه الجزيرة العربية إلى مصر وقد أعقبه في الخلافة عمر بن الخطاب الذي حكم حوالي العشرين عاماً وتوسع في الفتوحات الإسلامية، ومن ثم أعقبه عثمان بن عفان الذي استغل موقعه كخليفة ليضع اقاربه في المناصب المهمة والحساسة للدولة الإسلامية، لكن ذلك لم يمنع وصول علي إلى السلطة لمدة أربع سنوات مليئة بالحروف والثورات المتمردة على حكمه، مثل حرب صفين والجمل والنهروان، قبل اغتياله على يد أحد المنشقين عليه.

كيف ابتدأت وتطورت نظرية الامامة القديمة؟ وكيف يمكن أن تكون اليوم؟

ابتدأت نظرية الامامة القديمة (الشيعية وغيرها) من كون «الامام» حاكما، ثم قالت بأنه مشرع ومعلم ومفسر للقرآن؟ وكان اصلها يدور حول الامامة العلمية، وان الامامة السياسية فرع من فروعها المعضلة التي أمامنا الآن هي أنه لا يوجد لدينا «امام» معين من قبل الله يقوم بالدور السياسي التنفيذي ولا بالدور التعليمي التشريعي. وانما يوجد لدينا حكام وفقهاء، فهل يجب أن يكون الحاكم فقيها في كل شئ؟ أم يجب أن يكون الفقيه المطلق حاكما؟ أم

لا هذا ولا ذاك، وانما يقوم الحاكم بدوره السياسي، ويقوم الفقهاء بالتشريع في المسائل الحياتية المختلفة بصورة مستقلة، ولا بد ان يتم انتخاب الفقهاء بالمعنى العام اي الخبراء في مختلف مجالات الحياة، ليشكلوا مجلس شورى أو برلمان يمارس دور الرقابة والمحاسبة للحكومة والتشريع؟ وهو ما نعبر عنه بالنظام الديمقراطي الحديث؟

لا تختلف النظريتان نظرية الخلافة ونظرية الإمامة وولاية الفقيه عن بعضهما البعض، سوى في أن احداهما كانت مطبقة وتحكم، والاخرى تعيش في الاذهان وليس لها وجود في الخارج، الا عند المذاهب الشيعية الزيدية والاسماعيلية، وكلاهمامن صنع البشر، فالنظرية السنية العباسية كانت تعتقد بأن الخلافة من حق العترة وانهم جزء من العترة، بينما كانت النظرية او النظريات السياسية الشيعية تعتقد بأن الخلافة من حق أبناء وأحفاد علي، أو ابناء الحسين فقط، والكلام الآن ليس حول صحة هذه النظرية او تلك، وانما عن تطوير النظام السياسي القديم الى نظام ديمقراطي الذي يفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ويقوم على اجهزة دولة وليس على شخص الامام فقط.

ولقد أشار إلى ذلك الشيخ أحمد الكاتب في كتابه تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، والسؤال هنا: أين الحل؟ أهل السنة ليس لديهم سوى إمامة المتغلب، والشيعة لديهم انتظار الغائب أو ولاية الفقيه، وعندما يمسك الساسة الإسلاميون مقاليد الحكم، تجدهم يكتشفون عدم وجود نظام حكم في التاريخ الإسلامي، أو لنقل هي ترقيعات من فقهاء الحاكم المتغلب لشرعنة وجوده، وتجدهم يتهربون من الإجابة عن الإشكاليات الفقهية غير

الموائمة لروح العصر، ويلجأون إلى الدستور المدني والعلماني لحل مشاكلهم، فمتى سيجلسون ويحلوا لنا المعضلة الترقيعية المزمنة، والخلاصة المعنوية من الامامة في الدين كما يعتقد الشيعة، هي الارتباط بالله والاتصال به ومعرفته بأتباعه برؤية واضحة لاثار وشعائر الله ليقود الناس بدين يقين قائم بالاتصال بربه ويربط الناس بتوصليهم بربهم اسوة به لان الامامة ليست خبر ولا راوية بل اصل من اصول الدين والاصل حاضر لايجب ان يقطع بأي فترة زمانية ولا اتصال بالله عن طريق خبر او عن طريق رواية فالله من صفته قائم بالاتصال والقائم بالاتصال لايرتبط بعبده عن طريق راوية واخبار فلو اصبحت خبر او رواية لاصبحت علامة ماضية سلبية لقطع الاتصال بين القائم والمقام حضوريا شهوديا ظاهريا عليه بالصلاة فكل امام زمن الله قائم عليه بالصلاة القائمة حتى تقوم الساعة.

في حين يعتقد السنة أن الامامة ليست من اصول الدين ولا من فروعه لأنها لم تذكر في القران الكريم، ونظريات السنة والشيعة نظريات سياسية قديمة، واما اليوم فان جماهير السنة والشيعة يتبعون النظام الديمقراطي الذي هو افضل بديل عن النظريتين القديمتين.

إشكاليات الخلافة العلوية:

ما أن اعتلى علي بن أبي طالب سدة الحكم وغدا الخليفة الشرعي الرابع للمسلمين، حتى تكالبت عليه المشاكل وعمليات التمرد العسكري من قبل الفئة المناوئة له منذ فترة حياة النبي محمد، وتمثلت بشخصيات مهمة في الإسلام كأبو بكر وعمر

وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ومعاوية وعمر بن العاص وخالد بن الوليد وعائشة بنت أبي بكر زوجة النبي المدللة، ونشبت حروب التسقيط وإنهاء التجربة العلوية بأي ثمن.

كان علي بن أبي طالب يعتقد أنه الخليفة الأجدر والأقدر على تحمل هذه المسؤولية ويأمل بجمع المسلمين من حوله لتطبيق الإسلام الأصيل كما جاء به صاحب الرسالة والده الروحي وصهره وابن عمه النبي محمد، وكان ينادي باتباع القرآن ولكن بحرية وتفسير لآياته لأن القرآن حمال أوجه. بيد أن أتباعه ذهبوا إلى أبعد مما دعا إليه علي وحصروا حق الخلافة بآل البيت من أحفاد الحسين باعتبارهم الأئمة الإثني عشر المنصوص عليهم من الله وبذلك ظهر الخط الفاصل بين الدعوة الشيعية والاعتقاد السني المتحرر من قيد البيت النبوي حيث يحق لأي مسلم أن يكون خليفة للمسلمين. فشن معاوية حرب صفين وشنت عائشة ومعها بعض الصحابة كطلحة والزبير حرب الجمل وشن الخوارج حرب النهروان، واستمرت الحروب لجيلين على الأقل من المعسكرين ثم تحولت الخصومة إلى عداء مزمن ودائم، تكلل بهزيمة المعسكر الشيعي في العراق في مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب في كربلاء في موقعة الطف في عاشوراء، ولم تنجح كافة المحاولات لرأب الصدع بين جناحي الإسلام عبر قرون عديدة، بالرغم من وحدة مصادر التشريع الدينية والاعتراف بالأصول والفروع التي حددها محمد والاشتراك بكتاب واحد هو القرآن باعتباره النص المؤسس للدين، والتوافق حول شخص النبي، لكن الاختلاف نشأ وتنامى بخصوص السنة النبوية والأحاديث المنقولة عن النبي

والمتضمنة أقوال وأفعال الرسول. ففي مجال التشريع على سبيل المثال لا الحصر تبنى السنة مبدأ القياس L'analogie لحل المشاكل المستجدة التي لا تتوفر فيها نصوص قاطعة، مثل تحريم الخمر وبالتالي ينبغي تحريم كل مشروب ناجم عن التخمرويؤدي إلى السكر كما يفعل الخمر. وهناك مبدأ الإجماع أو التوافق Le consensus حيث يكتفي السنة بتوافق واجماع عدد من العلماء على مسألة ما لجعلها مسألة شرعية واجبة، في حين يقول الشيعة أنه لايمكن لذلك أن يتم إلا بحضور الإمام المعصوم. وحتى مفهوم الإمام اتخذ مسارات مختلفة، فهو عند أهل السنة مجرد رجل دين بسيط يؤم الصلاة ويقود الصلاة الجماعية، فلا وجود لوسيط بين الله والمؤمن عند السنة، بينما الإمام عند الشيعة ضروري للأمة الإسلامية ويوجد لديهم إثني عشر إمام معصوم من سلالة النبي من فاطمة وإبنها الحسين حصراً، ومهمتهم تفسير القرآن والنصوص المقدسة والأحاديث القدسية ووضع التشريعات اللازمة لمسائل المستجدة، وطبقة رجال الدين هرمية وذات مراتبية منظمة والإمام هو قائد الأمة، وبغيابه يحل محله نائب الإمام الفقيه المجتهد الجامع للشروط، ومن ذلك جاءت نظرية ولاية الفقيه الخمينية. وفي الآذان والدعوة للصلاة يكتفي السنة بجملة أشهد أن لا إله إلا الله وإن محمداً رسول الله بينما يضيف الشيعة عبارة أشهد أن علياً ولي الله. السنة يجلون كافة الصحابة وكل من رأى وسمع النبي وشهد رفقته وهو حي، بينما يفرز الشيعة بين الصحابة الأجلاء الصالحين والصحابة الفاسدين والمنافقين والمنحرفين عن جادة الصواب والطريق المستقيم ممن أنكروا وية

علي بن أب طالب أو اعترضوا عليها. يعترف الطرفان بالصلوات الخمسة في اليوم، ولكن يشدد السنة على القيام بها في أوقاتهخا بينما يكتفي الشيعة بثلاث منها وهي الفجر والظهر ويدمجون معها صلاة العصر والعشاء ويدمجون معها صلاة المساء. وولشيعة أدعية خاصة في السجود والقنوط والركوع تشدد على انتمائهم لآل البيت. هناك بالطبع إحياء شعائر عاشوراء ومقتل الحسين على يد الخليفة السني يزيد بن معاوية، في كل عام عند الشيعة، وطقوسهم تتضمن الكثير من البدع في نظر السنة كضرب الظهور بالسلاسل وضرب الصدور العارية بالأيدي وضرب الرؤوس بالسيوف المعروف بالتطبير، حيث يلعنون يزيد ومعاوية في كل وقت بينما يعتبر جزء من السنة أن هذين الشخصين من الصحابة الذي رأوا النبي وسمعوه خاصة معاوية الذي يعتبره الكثير من السنة من كتبة الوحي. أما بخصوص الأماكن المقدسة، فتعتبر مكة مسقط رأس النبي ومقر الكعبة فهي موئل الحج والوحيدة التي تستحق التقديس عند أهل السنة لكنها مقدسة كذلك لدى الشيعة إلى جانب الأماكن المقدسة الشيعية المعروفة في النجف وكربلاء وسامراء ومشهد والبقيع حيث مقابر الأئمة الشيعة الإثني عشرالتي تحولت الى مزارات يؤمها الشيعة من كافة أنحاء العالم الإسلامي.

نشرت صحيفة لوموند مؤخرا مقالاً عن السنة والشيعة تحت عنوان: ما هي رهانات الحاضر؟ قالت فيه: «إن التعارض بين الأيديولوجتين الإسلاميتين، الشيعية والسنية، يساهم في الصراع الإقليمي القائم اليوم على جانبي الخليج الفارسي، والذي ترك بصماته على طبيعة النزاع الجيوستراتيجي في منطقة الشرق

الأوسط حتى نهاية القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين. فلقد قاد آية الله العظمى الشيعي روح الله الخميني ثورة في إيران سنة 1979 وأطاح بعرش الشاه وأسس الجمهورية الإسلامية في إيران، مما أثار قلق السنة في العراق والبحرين الممسكين بالسلطة السياسية رغم كونهم يشكلون الأقلية بالنسبة لمجموع السكان في البلدين. وكذلك خوف وخشية ممالك وإمارات الخليج العربي كافة التي قررت، بتحريض وتأليب وموافقة وتشجيع غربي، أمريكي أوروبي، نسف هذه التجربة الثورية الشيعية ووأدها في المهد . إلى جانب المطامع الاقتصادية الغربية في إيران باعتبارها بلدا منتجاً للنفط وصاحبة أحد أكبر احتياطي النفط في العالم، وارتأت المجموعة المعادية لتجربة الثورية الإيرانية الشيعية غزو إيران من قبل عراق صدام حسين باعتباره الأداة التنفيذية للخطة، سنة 1980 واشتعلت الحرب بين العراق وإيران ودامت ثمان سنوات راح ضحيتها أكثر من مليون قتيل ومئات الآلاف من الجرحى والمعاقين والدمار المالي والاقتصادي والخراب الاقتصادي والعمراني وتدمير البنى التحتية للبلدين دون أن يؤدي ذلك الى تغيير الحدود بين البلدين ولا الإطاحة بنظام الجمهورية الإسلامية.

في سنة 2003 أسقطت القوات الأمريكية نظام صدام حسين السني ثم اعتقلت وقدمته للمحاكمة وتم إعدامه سنة 2006. وفي سنة 2005 فاز الشيعة في الانتخابات التشريعية أو النيابية وشكلوا الحكومة بحماية أمريكية مما أثار حفيظة السنة في العراق.وفي نفس العام دخل حزب الله للحكومة في لبنان بنسبة 11% من الأصوات في الانتخابات التشريعية أو النيابية وحصلوا على وزارة

من بين 24 وزارة في الحكومة و 14 نائباً من مجموع 128 وبذلك تم تمثيل الشيعة برلمانياً في لبنان وفي الحكومة.

وفي سنة 2011 طفح الصراع الإيراني ـ السعودي، إلى سوريا حيث عزمت المملكة العربية السعودية على إطاحة نظام بشار الأسد مهما كانت التكاليف، وبالتالي إزاحة العلويين، وهم فرع من فروع الشيعة، من السلطة وتسليمها للأغلبية السنية. سعى السنة إلى زعزعة الوجود الشيعي في المنطقة وقطع الطريق على تشكل الهلال الشيعي بين إيران وحزب الله في لبنان وسريا بشار الأسد العلوية مروراً بالعراق. لذلك نشبت حرب باردة حقيقية إقليمية ودولية كانت وقودها المواجهات المسلحة في سوريا والعراق اتسمت بالخطورة نظراً للرهانات الاقتصادية المرتبطة بها لأنها تتعلق بإيران والعراق والعربية السعودي أهم البلدان المنتجة والمصدرة للنفط للعالم، مما خلق توتراً ومخاوف جدية في العالم، مقترنة بالخشية من محاولة إيران امتلاك السلاح النووي والذي من شأنه إطلاق سباق تسلح نووي خطير في المنطقة ستكون تداعياته تدميرية على مستوى الكرة الأرضية.

ومن ثم نشرت لوموند بتاريخ 2012/08/21 مقالاً ركز على تأثير الصراع السني ـ الشيعي على الأزمة السورية. مستندة إلى ما كشف عنه موقع ويكيليكس بهذا الصدد: صرح الملك السعودي عبد الله في آذار 2009 للأمريكيين بأنه ينبغي قطع رأس الأفعى الإيرانية طالباً منهم صراحة بمهاجمة إيران مما ألقى بظلال داكنة على العلاقات السعودية ـ الإيرانية وبالتالي على الصراع الأبدي الشيعي ـ السني القائم من قرون. وازداد توتر العلاقات بين البلدين رغم

دعوة الملك عبد الله السعودي، في محاولة للتخفيف من حدة هذا التوتر، إلى فتح مركز للحوار بين الطوائف مع إيران في أعقاب قمة منظمة التعاون الإسلامي. واستعرضت صحيفة لوموند في هذا المقال الخلفية التاريخية لنشوء النزاع الشيعي السني تاريخياً منذ وفاة النبي سنة 632 وانقسام المسلمين بشأن مسألة الخلافة مما عمق رقعة الخلاف ونقلها من الصعيد السياسي الى الصعيد العقائدي حيث دمغ تاريخ الإسلام برمته بسمة التعارض والتنافس الشيعي - السني ولقد فسر السنة بعض الإشارات من النبي محمد قبل وفاته بانها تلمح لاختيار أبو بكر خليفة له لانه كلفه بقيادة الصلاة كإمام صلاة للمسلمين بديلا عنه أثناء مرضه، وكان لدى الشيعة ايضاً نصوص واحداث واحاديث فسروها على انها إشارات واضحة لاختيار الني محمد لعلي بن أب طالب خلبفة له على المسلمين. تبعت الأغلبية التي سميت بأهل السنة والجماعة اختيار أبو بكر في ظروف غامضة وبالغة التعقيد كخليفة بينما أصر أتباع علي على اختيارهم لهذا الأخير كخليفة وحيد لا منافس له للنبي.

المفهوم الأبرز الذي وسم انتقال التمايز السني الشيعي من السياسة الى العقيدة هو موضوع الولاية الذي لفت أنظار مفكرين ومستشرقين غربيين كثار وعلى رأسهم الفرنسي هنري كوربان ومن أبرز النقاط التي سعى كوربان لفهمها في المذهب الشيعي قضية الولاية، بالإضافة إلى قضية أخرى لا تقل أهمية عن النقطة الأولى، إنها قضية الإمام المهدي وإيمان الشيعة الاثني عشرية بعودته بعد ظهور عدة دلائل وإشارات بغية إحياء علوم وسنة جده الرسول محمد من جديد، وقد رفض كوربان منذ البداية الانقياد والجري

وراء منطق التعصب والجهل الذي تميزت به النظرة الاستشراقية فيما يتعلق بالكثير من القضايا الإسلامية الحساسة، وبشكل خاص قضيتي الولاية والإمام المهدي وقد رفض كوربان أيضاً -كما يقول الأستاذ جواد علي- موقف التشنيع والتحامل الأعمى الذي تتعامل من خلاله بعض الاتجاهات المذهبية الإسلامية مع هاتين القضيتين الحساستين. اطلع كوربان على التشيع من خلال ما قرأه لكبار رجال هذا المذهب من السابقين ومن اللاحقين المعاصرين، وتأثره الشديد بتراث الميرداماد وبمؤلفات صدر المتألهين الشيرازي، بالإضافة إلى حواراته مع العلامة الطباطبائي، ولقد أسفر ذلكعن نتيجة حاسمة ونهائية توجت أبحاثه عن هذا المذهب الذي قال عنه: «في اعتقادي أن التشيع هو المذهب الوحيد الذي حفظ بشكل مستمر، رابطة الهداية بين الله والخلق، وعُلقة الولاية، حية إلى الأبد، فاليهودية أنهت العلاقة الواقعية بين الله والعالم الإنساني، في شخص النبي موسى ثم لم تذعن بعدئذ بنبوة السيد المسيح والنبي محمد فقطعت الرابطة المذكورة، والمسيحية توقفت بالعلاقة عند المسيح، أما أهل السنة من المسلمين فقد توقفوا بالعلاقة المذكورة عند النبي محمد، وباختتام النبوة به لم يعد ثمة استمرار في رابطة العلاقة (في مستوى الولاية) بين الخالق والخلق، والحال إن التشيع يبقى هو المذهب الوحيد الذي آمن بختم نبوة محمد وآمن في الوقت نفسه بالولاية- وهي العلاقة التي تستكمل خط الهداية، وتسير به بعد النبي- وأبقى عليها حية إلى الأبد). وأضاف: «(ما تحصل لي من خلال مطالعاتي وبحوثي العلمية-كوني مستشرقاً مسيحياً بروتستانتياً- أنه يجب النظر إلى حقائق

الإسلام ومعنوياته من خلال الشيعة، الذين يتحلّون برؤية واقعية للإسلام). ولم ينس كوربان أيضاً الفكر العرفاني في العمق المذهبي الشيعي، بل أولاه اهتماماً كبيراً وركز اهتمامه على مؤلفات الميرداماد وعلى مجموع مؤلفات صدر المتألهين الشيرازي وعلى كتابات السهروردي، مؤسس حكمة الإشراق في الإسلام، وكان من حصيلة هذه الدراسات المعمقة التي قام بها كوربان أن خرج بالعديد من الكتب عن المذهب الشيعي، ولعل من أبرز هذه الكتابات الكتاب الذي يحمل عنوان (عن الإسلام في إيران- مشاهد روحية وفلسفية) وقد قام الأستاذ نواف الموسوي بترجمته إلى اللغة العربية، ويتوزع الكتاب المذكور على سبعة فصول وهي:

1- التشيع وإيران.

2- مفهوم التشيع الاثني عشري.

3- معركة التشيع الروحية.

4- ظاهرة الكتاب المقدس.

5- في الباطن والتأويل.

6- مبحث النبوة ومبحث الإمامة.

7- معنى الإمام للروحانية الشيعية.

وقد أضاف المترجم مشكوراً فصلاً خاصاً عن التحقيقات والحواشي والملاحق والفهارس العامة، ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب يقع في أربعة أجزاء وتمت ترجمة الجزء الأول منه فقط حتى الآن. ومن بين المثقفين الفرنسيين ممن اهتم بمسألة التشيع فرانسوا توال أحد تلامذة هنري كوربان ومالتأثرين به كثيراً حيث كان التشيع من اهتمامات توال الكبيرة، ومن أشهر ما كتبه في هذا

المجال، كتابه الذي يحمل عنوان (جيوبوليتيك التشيع) الذي تمت ترجمته إلى اللغة الفارسية، والعربية، ويقول توال مؤكداً على تأثره بمعلمه الدكتور هنري كوربان: (منذ وقت طويل انصب اهتمامي على التشيع بعد أن اطلعت على مؤلفات هنري كوربان التي التهمتها كلها). ويؤكد (فرانسوا توال) على أن الإسلام بمفاهيمه الروحية والعقائدية العامة لن يتم فهمه ما لم نفهم نحن، أهل الغرب، المذهب الشيعي القويم، ويؤكد توال قائلاً: (سيبقى هذا العالم الإسلامي غير مفهوم منا سواء كان بشكله السياسي أو بشكله الجيوبوليتيكي أو بشكل حوار الأديان إذا كنا لا نعرف التشيع). أما رؤية هنري كوربان عن الإمامة وماهية الإمام عند الشيعة فتتلخص بأن: «الإمام عند الشيعة الإثني عشرية يعد مرجعاً في تفسير الرموز القرآنية والكاشف عن بواطن الأحكام والمقاصد وأسباب النزول وذلك بفضل الإرث العلمي الذي تلقاه مباشرة من النبي الذي ألقمه للإمام العلي منذ صغره ومنه إلى أولاده وأحفاده من الأئمة، وبالتالي فهو القيم على كتاب الله. ومن هنا يمكننا القول أن الإمام عند الشيعة هو المثل الكامل الذي جعله إماماً ليقتدى به في الدين والدنيا. والدين هنا يتضمن الآراء والعقائد والشرائع والأحكام والأخلاق والأعمال والآداب والسلوك ورعاية ذات الإنسان بجميع جوانب وجوده في عامة شؤونه.

فالإمام حسب تعريف هنري كوربان، هو الإمام في جميع هذه الشؤون وبجميع هذه الجوانب، فهو المقتدى به والنموذج الكامل في قوله وفعله لأنه معصوم عن الخطأ في فكره وعواطفه ومواقفه، وفي رأيه بالموجودات ونظرته إلى الكون، وفي كل المسالك

الفكرية والخلجات القلبية. وهذا مقام خطير لا يبلغه إلا الأوحدي المختار من البشر بعد التجارب الصعبة والجهاد المتواصل والعلم اللدني. لذلك فإن رأي الإمام في تفسير وتأويل الآيات القرآنية والأحدايث القدسية هو الرأي الفصل والقاطع حيث إنه المثل الأعلى الطامل في الإدراك الإسلامي لكلام اللهوحيث أنه يحمل ويكتنز التراث العلمي الديني من رسول الله. وكما قال الإمام جعفر الصادق: «كل ما أرويه لكمفقد رويته عن أب الباقر عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين عن علي بن أبي طالب عن النبي عن الله».

ولقد تعرض كوربان لانتقاد من قبل زملائه المستشرقين بسبب تركيزه على الباطن على حساب الظاهر رغم وعيه لأهمية التوازن بين الظاهر والباطن لكنه أولى اهتماماً أكثر للباطن بعد أن استأثر الظاهر لفترة طويلة بالاهتمام وأهمل الباطن الذي يعني الجوهر الخفي في الدين. وأخذ عليه أن ما قال به عن التشيع مخالف لما عليه اعتقاد التشيع الرسمي التقليدي وهناك مسائل كثيرة كانت موضع سجال بين مفكري التشيع بخصوص مواضيع من قبيل مسألة سهو النبي وعصمته أو عدم عصمته في الشؤون الدنيوية ومسألة عالم الذر ومسألة مدى علم الإمام وهل يعلم الإمام الغيب،وغير ذلك من المساءل الحساسة في المواضيع الاعتقادية، أما العرفان فكان مهملاً من قبل أغلب رجال الدين الشيعة وعلماء التشيع التقليديين من أصوليين وإخباريين على السواء عدا مجموعة من المتميزين، فلقد تم تكفير الملا صدرا والفيض الكاشاني وحتى الإمام الخميني تعرض للعزل لدراسته الفلسفة.

الحرب الباردة بين الشيعة والسنة في العصر الحديث:

طفا للسطح مرة أخرى شبح المواجهة بين السنة والشيعة بمناسبة إجراء الانتخابات التشريعية العراقية سنة 2005 والتي قادت نتائجها إلى نقل السلطة في العراق من السنة إلى الشيعة قانونياً وعلى نحو ديموقراطي وشرعي بعد أن كانت بيد السنة لغاية سقوط نظام صدام حسين سنة 2003. إن هذا التغيير الجيوستراتيجي إادة توزيع الأوراق الطائفية في المنطقة وأدى إلى حدوث ما يشبه الصحوة لدى القوى السنية المنظمة في المنطقة لا سيما الإخوان المسلمين والوهابيين والسلفيين والتكفيريين، وتنامت من جديد مواقف معاداة الشيعة علنا وعلى نحو متصلب وبعبارات قاسية حيث استخدمت مصطلحات الهرطقة والزندقة والتكفير وأصحاب البدع والخارجين عن الدين وغير ذلك، وكان أنصع مثال على مثل هذه المواقف حالة الداعية الديني المصري الأصل والقطري الجنسية وأحد قادة التنظيم الدولي للإخوان المسلمين، الشيخ يوسف القرضاوي المشرف على برنامج الشريعة والحياة الذي تبثه قناة الجزيرة القطرية ويقال إن ابنه عبد الرحمن دفعه للتشدد في دروسه وخطبه ومواعيظه ضد الشيعة. وإثر التحول الهائل الذي حصل في العراق، اتبعت دول الخليق سياسة الاحتواء تجاه إيران كي تتفادى تمددها داخل هذا البلد ومن ثم الولوج إلى أراضيها . لذلك أعلنت ما يشبه الحرب الباردة بين قطبي العالم الإسلامي ممثلين بإيران والمملكة العربية السعودية ومن حولهما ويدور في فلكهما . ولا شيء يمنع من تدهور الأوضاع أكثر وتحول المواجهة الباردة إلى حرب حامية حقيقيةنظراً لحدة المواقف وتشنج

العلاقات كما يوضح دافيد ريغوليه روز David Rigoulet-Roze، الباحث في المعهد الفرنسي للتحليل الاستراتيجي، فهو يعتقد أن العربية السعودية مهووسة ومسكونة بهاجس نظرية المؤامرة الإيرانية ضدها، ومعها الأقليات الشيعية في المنطقة التي تنظر إليها السعودية بعين الشك والارتياب، ترتب على ذلك تحرك السعودية، من خلال غطاء قوات درع الجزيرة، لدعم وحماية النظام البحريني السني ضد الأغلبية الشيعية المنتفضة في البحرين التي يتجاوز عددها الـ 70% من مجموع السكان، وتبطش بشراسة مطالب أقليتها الشيعية في المنطقة الشرقية الغنية بالنفط في المملكة العربية السعودية وتدعم الكويت لتكميم أفواه الأغلبية الشيعية هناك كذلك. ويخوض الطرفان الإيراني والخليجي حرباً طاحنة ودموية مدمرة بالوكالة في سوريا وبدرجة أقل نسبياً في العراق اليوم. ويضيف دافيد ريغوليه روز، بأن البلدان السنية تخشى من تشكل الهلال الشيعي ميدانياً والممتد من إيران إلى شواطيء البحر الأبيض المتوسط مع حزب الله والذي يشكل نظام بشار الأسد في سوريا امتداداً له، نظراً لكون عائلة الأسد العلوية ـ الشيعية هي التي تقود البلاد رغم أن العلويين لايمثلون سوى 11% من مجموع السكان في سوريا، فلو سقط نظام الأسد فسوف ينهار الهلال الشيعي المزعوم، يضاف إلى ذلك مساعي إيران لامتلاك القوة النووية كما يعتقدون وهذا مايبث الهلع في نفوس مشايخ الخليج التي تخشى تخلخل موازين القوى القائمة اليوم ونشوب سباق تسلحح نووي محموم كما يشرح المحلل الاستراتيجي المذكور. هذه هي الخلفية التي تبني عليها دول الخليج ومن ورائها الغرب

ممثلاً بأمريكا وأوروبا الغربية، سياستها واستراتيجيتها حيال إيران وشيعة المنطقة.

الدين ليس سوى كسوة خارجية:

لا يمكن للمسألة الدينية وحدها أن تفسر هذه الخصومة والكره المتبادل، رغم آثار معركة كربلاء سنة 680 والغزو الوهابي لكربلاء ونهبها وتدمير قبر الحسين فيها ومسحه مع الأرض سنة 1802 التي لا تزال باقية في النفوس إلى اليوم. واليوم يبدو هاجس مشايخ البترول حيال المسألة الشيعية كأنه ذريعة للتبرير ليس إلا. فهناك دراسات أظهرت أن الرأي العام في بلدان الخليج لايشاطر حكامها من هذه الخشية المرضية من الشيعةفالعامل الديني ليس سوى غطاء أو كسوة خارجية للمسائل الجيوستراتيجية الأكثر خطورة. فالمقاربة الحقيقية للأزمة يمكن تناولها من خلال الموقف الذي اتخذته إيران تجاه الولايات المتحدة الأمريكية منذ بواكير الثورة الإسلامية هناك حيث إن المملكة العربية السعودي حليف وتابع مثالي للولايات المتحدة الأمريكية وبالتالي فسوف ينعكس عليها حتماً العداء المعلن من قبل إيران إزاء أمريكا، حسب تحليل المحلل السياسي الفرنسي كريم إيميل بيطار مدير الأبحاث في معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية، والسعي بالفوز بالزعامة الإقليمية للمنطقة إلى جانب الرهان الاقتصادي وعلى نحو أدق الطاقة والنفط ومن يسيطر عليهما يمكنه أن يحكم العالم كما يقال في أوساط مراكز الأبحاث. ويقلل كريم إيميل بيطار من أهمية وثقل فرضية الهلال الشيعي فالى جانب إيران والعراق وسوريا ولبنان

هناك منظمة حماس في غزة وهي سنية وعضو في التنظيم الدولي للإخوان المسلمين وهي ملصقة بهذا المحور الشيعي كما ينظر لها السعوديون والخليجيون ومن هنا فإن ما يحدد ملامح هذا المحور ليس كونه شيعياً بل من خلال موقفه الرافض للنفوذ الأمريكية أكثر منه للاعتبارات الطائفية. ويمكننا أن نرى ذلك بوضوح مما يجري في مصر حيث لم تسامح المملكة العربية السعودية الرئيس المصري السابق من الإخوان المسلمين محمد مرسي وزيارته لإيران لفتح صفحة جديدة من العلاقات معها وآزرت ودعمت وأيدت انقلاب الجنرال السياسي ضده وذلك لإبقاء مصرة في حضيرة الغرب وتحت رحمة المساعدات الخليجية والأمريكية.

الفصل التاسع

المسلمون الشيعة العرب هم أصل التشيع

بقلم مكسيم فودانو Maxime Vaudano

Les musulmans chiites Arabes sont à l'origine du chiisme

علي بن أبي طالب هاشمي قرشي عربي أصيل هو السبب الأول لنشوء مذهب التشيع وزوجته فاطمة البنت المفضلة للنبي محمد من زوجته الأولة خدية بنت خويلد عربية قرشية هاشمية ونسلهما من ولديهما، الحسن والحسين، ومن أحفاد الحسين، جاء أئمة الشيعة الإثني عشر ونسبهم واضح ويمثلون الإسلام بأنقى أوجهه، وبسبب ما كانوا يعتقدونه حق لهم، سواء أكان إلهي أم لا، إنسقم المسلمون بين مؤيد معارضوانشق الإسلام إلى شقين، سني وشيعي.

وبعد أكثر من عقدين على وفاة النبي محمد، أختير علي بن أبي طالب ليكون الخليفة الرابع بعد أبو بكر وعمر وعثمان سنة 656 بعد الميلاد، أراد هذا الخليفة المثالي تطبيق شرائع الدين الإسلامي بحذافيرها ومساواة الموالي المسلمين بغيرهم، مما كان سيصطدم بمصالح كثير من الصحابة والمتنفذين الذين كانوا يلتفون حول النبي، فالتطبيق الصارم لا يلائمهم وسوف يجردهم من امتيازاتهم وأملاكهم بعد أن غدوا من أغنياء القوم، فالوقوف مع الفقراء على حساب

الأغنياء لايروق لهم لذلك وقفوا ضده وحاربوه بكل ما أوتوا من قوة. وبعد أن توجه جيش معاوية بن أبي سفيان مع جيش الخليفة علي بن أبي طالب في صفين وكان هذا الأخير أن ينتصر رفع مقاتلو المعسكر المعادي المصاحب على رؤوس الرماح طلباً للتحكيم فوافق علي وانقسم معسكره وانشق عنه مقاتلون كثيرون أشداء سموا الخوارج، لم يبق منه أثر يذكر اليوم، عدا قلة منهم انتشروا في مناطق البربر في الجزائر وهم مهمشون، وفي عمان السلطان قابوس اليوم، ولكن أحد الانتحاريين من الخوارج قام باغتيال علي بن أبي طالب سنة 661. وفي سنة 680 ميلادية وقعت مواجهة عسكرية غير متكافئة بين أتباع الخليفة الأموي يزيد بن معاوية والحسين بن علي بن أبي طالب قتل فيها الحسين وأنصاره وحدثت القطيعة النهائية بين الطائفتين الشيعية والسنية إثر ذلك.

الشيعة في العالم اليوم:

الشيعة الإمامية أو الإثني عشرية هم الذين يشكلون أغلبية المسلمين الشيعة في الشرق الأوسط وتتراوح نسبتهم اليوم بين 15 و20% من مجموع المسلمين في العالم ويصل تعدادهم إلى أكثر من 150 مليون شيعي، وهم أغلبية في إيران (أكثر من 60 مليون من مجموع 70 مليون نسمة) وهم أغلبية في العراق (أكثر من 65% من أصل 30 مليون نسمة تعداد السكان التقريبي في العراق وكانوا لغاية عام 2003 محكومين من قبل الأقلية العربية السنية في العراقالتي لا تتجاوز نسبتها من مجموع السكان الـ 15%)، وهم الأغلبية في لبنان أيضاً ويتقدمون على المسيحيين وبالطبع على السنة والدروز في

لبنان، وهو ما يفسر التوتر السائد اليوم في لبنان، ويتواجدون كأقلية في شمال وشرق العربية السعودية وفي الإمارات الخليجية وفي تركيا حيث بلغت نسبتهم 15% من مجموع 70 مليون من السكان، أما ثاني أكبر بلد إسلامي في العالم يضم الشيعة بعد إيران هو الباكستان حيث يصل تعدادهم إلى أكثر من 40 مليون شيعي من أصل 120 مليون مجموع السكان في الباكستان.

الشيعة في العالم الإسلامي كلهم يؤمنون بإمامة علي بن أبي طالب ومعنى الإمام لديهم يختلف كلياً عما يعنيه لدى السنة وهو مجرد رجل دين بسيط يقود المصلين في المسجد. فالإمام عند الشعة ينحدر من بيت النبوة ومن نسل محمد عن طريقت ابنتهى فاطمة وعلي وهو معصوم من الخطأ خاصة في مسائل التفسير والتأويل للنصوص المقدسة وللمعاني الخفية في القرآن، ويطيعه المؤمنون به وكذلك يعتبرون فاطمة بنت الرسول معصومة أيضاً.

ويختلف الشيعة على عدد الأئمة الشرعيين المنصوص عليهم. الغالبية العظمى منهم تؤمن بوجود إثني عشر إمام معصوم لذلك سميوا بالإثني عشرية أو الشيعة الإمامية. وهم يعتقدون بإن الإمام الثاني عشر ولد لكنه اختفى أو غاب عن الأنظار سنة 873 ميلادية بعمر الثامنة في مدينة سامراء العراقية بالقرب من بغداد وهو إبن الإمام الحادي عشر الحسن العسكري. لينقذ حياته من الموت والاضطهاد والمطاردة التي عانى منها كل من سبقوه من الأئمة. كما يعتقدون بالعودة المنتظرة لهذا الإمام الغائب في نهاية الزمان ليحاسب البشر ويقيم دولة العدل على أنقاض دولة الظلم. وعم الأغلبية في إيران والعراق ولبنان حيث يقودهم اليوم حزب الله اللبناني.

هناك فرع مهم ومؤثر عند الشيعة وإن كان عدد أتباعه أقل بكثير من عدد الشيعة الإمامية، وهو الشيعة السبعية أو الإسماعيلية والذين يعترفون بسبعة أئمة فقط وآخرهم إسماعيل بن جعفر الصادق الذي يعتقدون إنه اختفى أو غاب سنة 765 ميلادية. ويعتقدون إنه هو المهدي المنتظر، ويبلغ عدد الإسماعيليين بضعة ملايين حول المحيط الهندي في الهند وفي أفريقيا.

يتميز الشيعة عن السنة بمؤسسة إكليركية هرمية ذات تراتبية عالية التنظيم على غرار الكنيسة الكاثوليكية باحتكاك دائم مع الجمهور الشيعي ومستقلة عن السلطة السياسية إدارياً ومالياً وتربوياً. المؤمنون يتبعون ويقلدون آيات الله وهم علماء مجتهدون يتميزون بورعهم وتقواهم ومعرفتهم العميقة بالفقه والتشريع والأحكام الدينية وكذلك بالفلسفة والمنطق والأصول واللغة والتاريخ وبعلم الرجاتل وبالحديث والسنة الخ وفي إيران غالباً ما يحمل آية الله العظمى إسم مدينته مرفقاً باسمه. فروح الله المصطفوي الذي توفي سنة 1989 معروف في العالم كله بروح الله الخميني من مدينة خمين وعلي أكبر هاشمي رفسنجاني من مدينة رفسنجان والشيرازي من مدينة شيراز وهكذا.

هناك اختلاف مهم بين الشيعة والسنة تجاه العلاقة بالدولة والسلطة العليا والحكومة/ فالسنة يقبلون بتداخل السلطة السياسية بالسلطة الدينية في شخص الحاكم كأن يكون الخليفة أو الملك بينما يفصل الشيعة بين السلطتين في أغلب الأحوال.

في نظام الجمهورية الإسلامية الحالي، يتم انتخاب رئيس الجمهورية بالاقتراع السري المباشر من قبل الشعب، ولكين يتوجب

عليه أن ينسق مع مرشد الثورة الأعلى سلطة منه كما كان الحال مع الإمام الخميني واليوم مع المرشد آية الله علي خامنئي حيث يتم انتخاب المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية من قبل مكون من 80 رجل دين هو مجلس الخبراء. ويمتلك مرشد الثورة صلاحيات واسعة تتجاوز سلطات رئيس الجمهورية والحكومة والبرلمان مما يؤكد التوجه الثيوقراطي للنظام الإيراني ويحد من مخاطر الانحراف الأوتوقراطي.

الإسماعليين والفاطميين والنزاريين:

في القرن العاشر الميلادي قدم أحد الوعاظ الإسماعليين نفسه ويدعى عبيد الله، على أنه من نسل فاطمة بنت النبي محمد ووريث الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، واعترفت به جماير شمال أفريقيا بأنه المهدي الموعود وأسس سنة 909 ميلادية خلافة منشقة عن الخلافة السنية العباسية في بغداد. وأقامها في مدينة القيرون في تونس الحالية، ولقد حكم هذا الخليفة الفاطمي شمال أفريقيا قبل أن يطرد بحركات وانتفاضات شعبية نظمت ضده.

وبعد فتحهم مصر سنة 969 ميلادية أقام الفاطميون في القاهرة سنة 972 ولقرنين من الزمن الدولة الفاطمية التي أنعشت مصر وفي حوالي العام الأف، وتحت حكم الخليفة الفاطمي حكيم أسس وعاظ إسماعيليون طائفة الدروز الباطنية. وبعد مضي حوالي القرن من الزمن حدث صراع شديد على رئس الخلافة الفاطمية أدى إلى ولادة انشقاق جديد بمبادرة وقيادة الحسن بن صباح الذي أقام حكمه في قلعة آلاموت الحصينة المطلة على بحر قزوين عرفت

بالحركة الإسماعلية النزارية أو طائفة النزاريين على اسم نزار وهو فاطمي و أحد ضحايا الصراع السلطوي، واشتهر أصحابه باسم الحشاشين. يتمركز الدروز اليوم في لبنان وإسرائيل وسوريا وعددهم حوالي 250000 شخص ويحتلون مكانة مميزة في العالم الإسلامي اليوم ويعرفون بطائفة الموحدين وطقوسهم الدينية سرية تميزهم كثيراً عن باقي الطوائف الإسلامية.

التمايز الشكلاني واختلاف العقائدي:

بغض النظر عن التسميات والتوصيفات يمكننا القول أن انقاسماً جوهرياً حدث في صفوف المسلمين سنة 632 وهي سنة وفاة النبي محمد. فطالما كان هذا الأخير على قيد الحياة، كان هناك إسلام واحد، واختلفت الآراء وتفرقت المواقف بعد وفاة المؤسس بشأن من يخلفه.

فكل فريق اختار خليفة يمثله الأول وهم السنة اختارو أحد أقرب صحابة النبي وصديقه الشخصي، أبو بكر، بينما اختار الشيعة أكثر الناس قرابة لمحمد وهو ربيبه وابن عمه وصهره زوج ابنته والمقرب إلى نفسه وأخلص الناس إليه، علي بن أبي طالب. لا يعترف السنة بأي إمام معصوم بينما يؤمن الشيعة بغثني عشر إماماً معصوماً من بينهم ولدا علي، الحسن والحسين، وليس باقي أولاده من زوجات أخر غير فاطمة بنت النبي، فهؤلاء ليسوا أئمة وليسوا معصومين، كما يعتقدون بعودة الإمام الغائب الثاني عشر المهدي المنتظر الذي سيظهر في آخر الزمان ليقيم حكومة العدل.

يعتقد الشيعة أن القرآن أثر بشري تلاه محمد بتوجيه إلهي

بينما يضفي السنة على القرآن الخصائص الإلهية المباشر باعتباره كلام الله المباشر والحرفي، يتبع السنة السنة النبوية كما دونت لتؤرخ لأفعال وأقوال النبي محمد ويحاولون تقليد النبي حرفياً ويعتبرون التاريخ محتوم في أحداثه بينما يعطي الشيعة أهمية للحرية الشخصية وحرية الاختيار والاجتهاد في التفسير والتأويل. ويتميز الشيعة عن السنة بمؤسسة المرجعية هيكلية منظمة لرجال الدين الشيعة وفق مراتبية معينة ومنظمة. والتمييز بين السلطة الدينية والسلطة السياسية أو الدنيوية. بينما يمكن للحاكم الدنيوي أن يكون زعيماً دينياً في نفس الوقت عند أهل السنة ويسمونه أمير المؤمنين كما هو الحال في المغرب على سبيل المثال.

العليون فرع من غلاة الشيعة ويعتبرون علياً تجسيداً للإله على الأرض وأقل تشدداً في التطبيق من الوارج يصلون في بيوتهم وبعضهم يشرب الخمر وهي غير محرمة عندهم وهم في السلطة في سوريا ويتواجدون بكثرة في تركيا أيضاً. يمارسون طقوسهم بسرية تامة مثل الدروز، وهؤلاء بدورهم موزعون بين لبنان وشمال إسرائيل وسوريا ومذهب غير تبشيري فلايمكن لأي أحد أن يصبح درزياً إذا لم يولد في عائلة درزية. وهم فرع هرطقي من الشيعة ذو بعد باطني ما ورائي ويعتقدون أن الله يتجسد دوريا في هيئة إنسان ليطلع على أحوال البشر.

الفصل العاشر

مفاتيح الشرق الأوسط المائة

بقلم آلان غريش ودومينيك فيدال

التشيع هو الفرع الأساسي المنشق عن الإسلام في بواكيره. فالخلافات بين الشيعة و الغالبية السنية أقل أهمية من العناصر المشتركة معهم فما يجمعهم أكثر بكثير مما يفرقهم. فهم يشتركون بالإيمان بإله واحد وبرسالة نبيه محمد وبكتابه المنزل القرآن. لكنهم اختلفوا في مسألة أساسية تتعلق بخلافة النبي ومن الأحق بهذا المركز،وكان اختيارهم قد وقع على علي بن أبي طالب، بيد أن اختيار الخلفاء الأوائل للنبي تم وفق قربهم للنبي وقدم أو أولوية اعتناقهم للإسلام، وعلى هذا الأساس اختير أبو بكر باعتباره أول البالغين من الرجال ممن أسلم وأقرب صديق وصحابي للنبي والأكبر سناً، وخلفه عمر وعثمان ومن ثم علي كخليفة رابه حكم سنوات مابين 656 الى 661 ميلادية. تخلل حكمه حروب وتمردات وانشقاقات انتهت باغتياله على يد أحد الخوارج هو عبد الرحمن بن ملجم. ولقد تمسك الشيعة باختيارهم لعلي كأول خليفة أغتصب حقه كما تمسكوا بحق أولاده وأحفاده بالخلافة أو قيادة

المسلمين بالضد من الخلفاء الرسميين. وعلى حد تعبير المستشرق الفرنسي لوي ماسينيون، «فإن الشيعة هم الشرعيين المدافعين عن حق البيت النبوي في les légitimistes de l'islam الإسلام». لقد تطور التشيع عبر التاريخ وانقسم إلى عدة فرق حسب تسلسل الأئمة من نسل علي بن ابي طالب من إبنه الحسين.إن مكانة الإمام عند الشيعة أساسية ومركزية لأنه المكمل للرسالة النبوية التي ختمت بالنبي محمد بالنسبة للسنة إلا أنها مستمرة بالولاية والإمامة. ويحتل الإمام الحسين ثالث الأئمة المعصومين مكانة خاصة ومتميزة ومهمة جداً في التشيع، بسبب ثورته لإنقاذ الإسلام من انحرافات بني أمية وخسارته الحرب مع يزيد بن معاوية بن أبي سفيان في معركة كربلاء سنة 680. لقد كانت ثورته مأساوية يحي ذكراها الشيعة في كل عام في شهر عاشوراء حيث يرون فيها قصة البطولة والصمود له ولأصحابه الإثنان وسبعون رغم الحر والعطش. فمقاومة الحسين وشهادته تحولت إلى ملحمة مليئة بالتمجيد والمبالغات، ولقد استغل الإمام الخميني قصة البطولة الحسينية لتأليب الجماهير ضد حكم الشاه محمد رضا بهلوي سنة 1979، مستغلاً شعائر وطقوس شهر محرم لإعلان ثورته ضد الشاه مشبهاً إياه بيزيد العصر.

تحددت النشقسامات داخل الطائفة الشيعية وفق إسم الإمام وخطه السياسي ودوره كما هو الحال مع الزيدية اتباع زيد بن علي بن الحسين شقيق الباقر الذي ثار ضد حكم الخليفة الأموي واستشهد. بيد أن الغالبية العظمى من شيعة العالم لا سيما في إيران العراق والبحرين ولبنان هم من الشيعة الإمامية أو الإثني

عشرية حيث يعتقدون بإمامة إثني عشر إماماً يستمدون سلطتهم الروحية والدنيوية من الله مما يجعلهم معصومين عن الخطأ. وآخرهم هو الإمام محمد بن الحسن العسكري الذي غاب أو اختفى سنة 874 وكان يتصل بأتباعه وشيعته من خلال سفرا أربعة لفترة طويلة من الزمن قبل غيبته الكبرى، فهو حي لكنه متواري عن الأنظار، تاركاً الشيعة بدون زعيم ظاهر حتى نهاية الزمان حيث سيظهر إلى الوجود مرة أخرى باعتباره المهدي المنتظرالذي سيحقق العدل ويحق الحق ويكشف الحقيقة حسب تعبير الباحث الفرنسي المتخصص بالشيعة يان ريشارد Yann Richard.

الزيدية يمثلون الفرع الأكثر اعتدالاً في الشيعة ويعترفون بخمسة أئمة وهم علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين وزيد بن علي، حسب منجزهم الشخصي للإسلام، ولا يتقيدون بالشرعية المتشددة الموجودة لدى الإمامية ويرفضون مفهوم الإمام الغائب. ولقد حكمت عدة عوئل زيدية عبر التاريخ وعلى نحو خاص في اليمن في صنعاء بين 1592 و1962.

أما الإسماعيليون فقد انشقوا عن الإمامية في أعقاب وفاة الإمام السادس جعفر الصادق لأنهم اتبعوا إمام ابنه إسماعيل الذي اختاره ابوه لخلافته في الإمام إلا أنه توفي في حيتة أبيه مما اضطر أبيه لاختيار خلف آخر له هو الإمام موسى بن جعفر الكاظم، مما خلق مسألة عقائدية معقد عرفت عند الشيعة بمدأ البداء أي شاء الله شيئاً وبدا له شيئاً آخر في موضوع النص على الإمام الذي يخلف أبيه.وكان الإسماعيليون هم من قاد إلى تأسيس دولة القرامطة وفرع الحكم الفاطمي في المغرب العربي وفي مصر في

القرن العاشر الميلادي ومنهم خرج فرع الحشاشين بقيادة حسن صباح في قلعة ىلاموت في إيران، في نهاية القرن الحادي عشر، وظهور المذهب الدرزي. واليوم يقود الإسماعليين الأغا خان، وهم يتواجدون في إيران وأفغانستان وطاجاكستان والهند والباكستان الخ.

لعب التشيع دوراً كبيراً في تاريخ الإسلام، وغالباً ما كان في صفوف المعارضةوكان طليعة الكثير من الثورات المسلحةضد سلطة الخلفاء الأمويين والعباسيين، لكن الشيعة لم يترددوا في بعض الأحيان في التحالف السلطة القائمة حسب تأويل هذا الجانب أو ذاك من عقيدتهم في الحكم.

لقد أستبعد الشيعة رغم غالبيتهم، عن مراكز القرار والسلطة في العراق ولبنان والباكستان والبحرين، ويشكلون اليوم المجموعات الأكثر حراكاً واضطراباً. وفي إيران، حيث فرض الحكام الصفويون التشيع كمذهب رسمي للدولة، منذ القرن السادس عشر الميلادي، أيد ودعم العلماء الشيعة العووائل الصفوية الحاكمة، ومع ذلك كانت معارضتهم للكثير من الحكام أكثر من معارضة السنة وكانوا يمتلكون استقلالاً اقتصادياً نسبياً عن الدولة المركزية.

مثلت الثورة الإسلامية في إيران والاستحواذ على السلطة من قبل آية الله الخميني، انتصاراً مهماً للتشيع النضالي، بالرغم من قلة الصدى لنداءاته ودعوته في العالم الإسلامي ذو الغالبة السنية. فرض الإمام الخميني نظرية في السلطة تلعب منذ العام 1979 دوراً اساسياً في إيران، وهي نظرية ولاية الفقيه. وعلى سؤال من الذي يقود الأمة الإسلامية في زمن الغيبة، أجاب الإمام الخميني: «إن

هذا الدور يقع على عاتق الفقهاء وعلماء الدين وعلى مرجع التقليد الأعلى كنائب للإمام الغائب والوارث للسيادة الإلهية. وكان الإمام الخميني هو الولي الفيه حتى تاريخ وفاته سنة 1989 وخلفه في موقعه هذا آية الله علي خامنئي.

إن عقيدة ولاية الفقيه تمنح الملالي ورجال الدين والفقهاء سلطات هائلة رغم اعتراض العديد من المراجع وآيات الله العظام لها.

هناك أكثر من 150 مليون شيعي في العالم الإسلامي موزعين في إيران والهند والباكستان والعراق وأفغانستان واليمن الشمالي وفي الخليج وتركيا وروسيا وسوريا حيث اعتبر العليون فرع من فروع التشيع.

هناك عدة اختلافات جوهرية شكلانية وعقائدية وشعائرية أو طقوسية، ين السنة والشيعة تطرقنا لبعضها أعلاه، في مخل لتاريخ التشيع، لكن هذه الاختلافات لم تظهر فجأة إلا بعد سنوات طويلة من ميلاد مذهب التشيع بل وربما قرون ففي البداية لم تكن هناك سوى نقطة خلاف جوهرين بين الطائفتين ألا وهي موضوع الخلافة، لاسيما عند اعتلاء الإمام علي منبر القيادة الإسلامية باعتباره الخليفة الرابع وتمرد معاوية بن أب سفيان والي بلاد الشام المعين من قبل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، الخليفتين الثاني والثالث، عندما أراد علي إزاحته واستبداله بوالي آخر من أتباعه المخلصين، حيث أيد الكثير من أهل السنة واعترفوا بخلافة معاوية ونقضوا بيعتهم لعلي بن أبي طالب.

ومع مرور الزمن جلب كل إمام شيعي حزمته من التشريعات

والتفسيرات والتأويلات والحقائق التي جعلت من الشيعة بمثابة دين قائم بذاته تقريباً داخل الدين الأصلي.رغم تقاسمهم مع السنة نفس الأصول لكنهم أضافوا أصل جديد وهو الإمامة، وبعض الفروع وتجاهلوا أخر.

تتحدد نقاط الخلاف السنية الشيعية بالمواضيع التالية:

1ـ على الصعيد النظري 2 ـ على الصعيد العملي أو التطبيقي 3 ـ على الصعيد الثيولوجي أو الفقهي. فعلي الصعيد النظري يمكننا تحديد ثلاث نقاط أساسية للخلاف وهي: يتفق الشيعة والسنة في المصادر التشريعية الثلاثة وهي القرآن والسنة والقياس يختلفان في موضوع الإجماع. فالإجماع عند السنة يتحقق بتوافق علماء المسلمين بينما يعتبر الشيعة أنه لايمكن أن يكون الإجماع صالحاً إلا إذا تم بوجود الإمام وموافقته. وعلى مستوى الشهادة، وهي إعلان الانتماء للإسلام كل مسلم أو من يريد اعتناق الإسلام، فهي عند السنة أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، بينما هي عند الشيعة تتوجب إضافة وأشهد أن علياً ولي الله، كما يبتعد الشيعة عن كل من لم يساند علي بن أبي طالب في تبوأ منصب الخليفة الأول بعد النبي، وعلى رأسهم عائشة بنت أبي بكر زوجة النبي ووالده أبو بكر الخليفة الأول وعمر وعثمان الخليفتين الثاني والثالث وكل الصحابة الذي مل يتخذوا موقفاً واضحا لا لبس فيه لصالح الإمام علي، وفي فترة من الفتراة كان الشيعة يسبون في السر هؤلاء ثم اندثرت هذه العادةلكنها بقيت سراً أحد أهم نقاط القطيعة مع أهل السنة في حين يعتبر السنة أن سب عائشة وباقي الصحابة من الكبائر التي تتطلب التوبة وعدم العودة لهذه المثلبة.

على الصعيد العملي أو التطبيقي يمكن تحديد ثلاث نقاط خلاف وهي:

1- يتفق الشيعة والسنة على أن الصلوات خمسة لكن الشيعة يسمحون بإقامة ثلاث صلوات ودمج صلاتين بواحدة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، بينما يصر السنة على إداء الصلوات الخمسة في أوقاتها. يصلي السني مكتوف اليدين بينما يصلي الشيعي مسبل اليدين والذراعين، كما يصلي الشيعة على تربة مصنوعة من تراب كربلاء بينما يستنكر السني هذه العادة ويعتبرها من البدع.

2- يمارس الشيعة شعائر وطقوس عاشوراء كل عام لتذكير بمقتل الإمام الحسين في كربلاء ويضربون رؤوسهم بالسيوف وظهورهم بالسلاسل وصدورهم بالأيدي، الأمر الذي يستنكره أهل السنة ولا يمارسونه. كما يمارس الشيعة فعل الزيارة التي هي عند البعض منهم أهم من الحج، والمقصود بها زيارة قبور الأئمة الشيعة في كربلاء والنجف وكربلاء وسامراء ومشهد وهي ممارسات يعتبرها السنة من البدع بل يحرمها البعض منهم ويكفر ممارسيها.

أما على الصعيد الفقهي أو الثيولوجي، فهناك نقطتي خلاف، مهمتين وهما: يتبنى السنة والشيعة منهجين فقهيين متباينين إن لم يكن متعارضين: فأغلب الشيعة ينهجون المنهج العقلي المعتزلي الأصل أو المتأثر بتيار الاعتزال بينما يتبع السنة المنهج الأشعري، وأخيراً يمارس الشيعة مبدأ التقية أي إخفاء ما

يعتقدون به وإظهار ما يخالفه تقية أو خوفا من القتل والعقاب، أي يسمح للشيعة عدة إعلان شيعيته إذا كان موجوداً في وسط معادي يشكل خطراً على حياته بل يسمح له حتى بسب معتقده وائمته إذا اضطر لذلك.

تجدر الإشارة إلى أن هناك محاولات بذلت للتقريب بين الطائفتين وتقليل الخلافات بين السنة والشيعة أهمها محاول الحاكم الإيراني نادر شاه في القرن الثمن عشر الميلادي الذي حاول تحويل التشيع إلى المذهب السني الخامس في الإسلام تحت مسمى المدرسة الفقهية الجعفرية إلى جانب الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، بيد تفاقم الأمور في العصر الحديث وتنامي الاستقطاب الطائفي وتزايد الحقد وانعدام الثقة بين الطائفتين بات هدف التقريب بينهما هدفاً يعيد المنال اليوم.

الفصل الحادي عشر

آية الله العظمى المرجع الديني الشيعي
السيد محمد حسين فضل الله

رجل دين تحدى السلوكيات والنظرة المقلوبة للغرب إزاء الشيعة

بقلم ليلى جاسينتو

هل السيد محمد حسين فضل الله رجل دين معتدل أم متطرف؟ إن البون الشاسع للفهم الغربي والفهم الشرق أوسطي للراحل آية الله العظمى محمد حسين فضل الله يشكل الخط الفاصل أو خط القطيعة المعرفية الذي يفصل بين الغرب ومنطقة ساء فهمها ويجهلها في حقيقة الأمر أي منطقة الشرق الأوسط، أي اختلاف طبيعة الفهم والإدراك والتقييم عند الغربيين والشرقيين.

دفعت أو أجبرت صحافية في قناة الـ سي أن أن الأمريكية الى الاستقالة، عزلت سفيرة بريطانية في لبنان وحوصرت من قبل حكومتها، وكلها إجراءات لها صلة بآية الله محمد حسين فضل الله. فاختفاء أو وفاة رجل الدين الشهير وأحد كبار رجال الدين في لبنان، قد تسبب بالكثير من الاضطرابات والخسائر وبالأخص المعنوية منها والسياسية.

بدأت متعاب الصحافية أوكتافيا نصر التي تعمل في قناة سي أن أن والمتخصصة بالشرق الأوسط، عندما أرغمت على ترك منصبها وتقديم استقالتها بعد أن عبرت عن احترامها للفقيد الراحل فضل الله على موقع التواصل الاجتماعي تويتر. بينما تصدرت فرانسيس غي السفيرة البريطانية في لبنان عناوين الصحف بعد أن نشرت على مدونتها قائلة توفي رجل وقور أو لائق، وسرعان ما سحبت وزارة الخارجية التعليق وقدمت الاعتذارات الدبلوماسية للشركاء الغربيين.

ليست المدونات ولا تويتر هي التي تخلق مشكلة. فحسب محمد بازي أحد محللي مركز الأبحاث النيويوركي المستشار للشؤون الخارجية الأمريكية، فإن قضايا الراحل فضل الله ترتبط بالطريقة التي يتعامل بها الخبراء والصحافيون والدبلوماسيون الغربيون العاملين على الأرض في منطقة الشرق الأوسط والطريق التي تنظر بهاالعواصم الغربية للشرق الأوسط وكيفية فهمه واستيعاب تعقيداته. وهناك بون شاسع واختلاف في الفهم والإدراك. إن اختلاف وجهات النظر يكمن في جزء منه في الإرادة المسبقة في تصنيف فضل الله في خانة رجل الدين المتطرف، باعتباره كان المرشد الروحي لحزب الله اللبناني، أو آية الله العظمى الموالي لإيران وواقع الحال أن هذا التوصيف لاينطبق بتاتاً على المرجع الديني محمد حسين فضل الله.

محاربة النبذ المعادي للشيعة:

إن حياة ومسيرة أكثر رجال الدين إحتراما في لبنان معقد ومتميزة بقدر تعقيد وتميز أصل الصراعات التي تلغم المنطقة التي ينحدر منها هذا الرمز الديني. فلقد ولد آية الله العظمى محمد

حسين فضل الله سنة 1935 في مدينة النجف العراقية المقدسة وهاجر إلى لبنان بعد انتهاء دراساته الدينية في الحوزة الدينية في النجف الأشرف وعاش في شرق بيروت إلى أن تم إبعاده عنها أسوة بآلاف الشيعة الذي كانوا يقطنون هناك في الأيام الأولى للحرب الأهلية اللبنانية بين أعوام 1975 ـ 1990 وأرغم على الهروب والعيش في منطقة ذات أغلبية شيعية في جنوب العاصمة اللبنانية بيروت. إن هذه التجربة المؤلمة التي عاشها فضل الله سنة 1976، كانت حاسة في دفعه للالتزام بمنهج المقاومة الوطنية واستقلالية شيعة لبنان كما يحلل محمد بازي. فالطائفة الشيعية أهملت ونبذت لفترة طويلة من الزمن سياسياً واجتماعياً في بلد الإرز،وإذا كان مشروعاً الدفاع عن النفس والأرض والمصير، فإن كل الوسائل المستخدم من أجل ذلك تكون مشروعة، هذا ما كتبه محمد حسين فضل الله سنة 1985.

وهو تأمل وتفكير يتضمن كذلك العمليات الانتحارية في زمن الحرب التي أضفى فضل الله عليها الشرعية من وجهة نظر دينية.فلا فرق في الموت وأنت حمل السلاح أو أن تموت في تفجير انتحاري من أجل الوطن فهذه شهادةكما كتب فضل الله سنة 1983 بمناسبة هجمتين انتحاريتين بشاحنات مفخخةفي لبنان قتل جراءها 229 جندي أمريكي و 55 مظلي فرنسي. ألقت الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك المسؤولية عل محمد حسين فضل اللهوصنفوه كإرهابي وهو تورط أنكره فضل الله دائماً وأعلن أن لا صلة به لا من بعيد ولا من قريب.

وبعد عامين نجى المرجع فضل الله من محاولة اغتيال نظمتها ونفذتها المخابرات الأمريكية وهي مؤامرة كشف خيوطها

وتفاصيلها الصحافي بوب ودورد في كتابه حروب وكالة المخابرات الأمريكية السرية سي آي أ «Les guerres secrètes de la CIA».

تطورت أفكار وآراء محمد حسين فضل الله بعد وفاة المرجع الديني الكبير آية الله العظمى الإمام روح الله الخميني، فبد أن كان فضل الله من المؤيدين لمبدأ ولاية الفقيه الذي أعلنه وطبقه الخميني، ابتعد تدريجياً عن هذا المفهوم العقائدي بعد تعيين علي خامنئي خليفة للخميني فلم يعترف فضل الله بالسلطة الديني العليا للخمائني باعتباره الولي الفقيه فهو من جيله ومن دورته وأدنى منه مستوى من الناحية العلمية والفقهية والثقافية ولقد كان بدرجة حجة الإسلام عند وفاة الخميني فرقي على عجالة لكي يتبوأ منصب الإمام الراحل، كما يلاحظ محمد البازي. وعندما أعلن محمد حسين فضل الله نفسه مرجعاً وتصدى للمرجعية لم تعترف به طهران ولا حزب الله اللبناني الذي يقلد على خامنئي كمرجع تقليد للحزب.

لم يظهر التأثير المعتدل لفضل الله في عيون الغرب إلا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول - سبتمبر 2001. فكان أول رجل دين إسلامي مؤثر في الساحة يدين صراحة وبلا مواربة ذبح المدنيين الذي قامت به منظمة القاعدة الإرهابية، واعتبر أنصاره أن مواقفه وفتاويه حيال حقوق المرأة هي الأكثر ثورية.

وكان قد أصدر سنة 2007 فتوى يسمح فيها للنساء بالدفاع عن أنفسهن ضد العنف الاجتماعي والاعتداء الجسدي وقد تعرض للانتقادات شديدة من قبل رجال دين ومراجع تقليديين ومحافظين على موقفه هذا. ولديه جملة من الفتاوي لصالح المرأة منها تحريم ختان النساء والفتيات، وتحريم جرائم العار، ويسمح للمرأة بأداء

فريضة الصلاة حتى عندما تكون قد وضعت صيغ الأضافر على يديها وقدميها.

كان فضل الله في كل المعايير شخصية معقدة ومثيرة ولم يكن ليناً تجاه الولايات المتحدة الأمريكية حتى آخر نفس في حياته، وكان يتصرف كخصم لايتهاون تجاه إسرائيل. البعض في الغرب ممن لم يفهموا فضل الله على حقيقته، أن موته يمكن أن يفتح المجال أمام تيار شيعي أكثر راديكالية وتطرفاً أو تشدداً في لبنان واكثر موالاة وتبعية لإيران.

شكلت وفاة آية الله العظمى محمد حسين فضل الله بالنسبة لحزب الله فرصة لكسب وضم عدد أكبر من الشيعة اللبنانيين لتبني وتقليد الآيديولوجية والتعاليم التي ينادي بها مرشد الثورة الإسلامية الإيرنية الحالي آية الله علي خامنئي، كما كتب دافيد شنكر في صحيفة ذي كريستيان سيانس مونيتور، من معهد وشنطن لساسة الشرق الأوسط في الولابات المتحدة الأمريكية، ولو نجح حزب الله في تحقيق أهدافه فإن ذلك سيعزز من نفوذ طهران في المنطقة على حساب تاثير ونفوذ الولايات المتحدة.

فزاعة الهلال الشيعي:

كان العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني في زيارة لواشنطن لمقابلة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الإبن، وفي مؤتمر صحافي أعلن صراحة ما يفكر به خفية عدد كبير من الزعماء العرب، خشيته من تشكل هلال شيعي في منطق الشرق الأوسط يمتد من إيران ويمر بسوريا والعراق ليصل الى لبنان، وهو نفس

التفكير الذي كان يحتل ذهن وزير الخارجية الكويتي السابق الشيخ محمد صباح السالم الصباح كما نقلته وكالة الأنباء الكويتية بعبارات أخف وأكثر ديبلوماسية حيث قال أنه يخشى من يقظة التعصف الطائفي مما اثر احتجاج إيران وسخطها. وفي أعقاب ردود الفعل الغاضبة في الأوساط الشيعية تراجع العاهل الأردني في مقابلة مع صحيفة الرأي العام الكويتية وقال أن كلامه فسر خطأ وبولغ فيه وأسيء تفسيرها من قبل البعض في إيران، وأضاف: «لا يمكننا أن نكون ضد الشيعة فلدينا علاقات متينة مع شيعة العراق ولبنان وبلدان الخليج ومع العديد من شيعة إيران أيضاً وسنعارض بشدة كل من يعطي لنفسه الحق تعكير صفو تلك العلاقات.

أما إيران التي أنكرت أي تدخل في شؤون جارتها العراق نفت تلك الاتهامات على لسان وزير خارجيتها الأسبق كمال خرازي الذي رفض آنذاك المشاركة في مؤتمر لجيران العراق تم تنظيمه في عمان في الأردن في 6 يناير 2005 احتجاجاً على اتهامات إيران بتشكيل محور الهلال الشيعي. وكان المرجع الديني الشيعي اللبناني الراحل محمد حسين فضل الله قد صرح في مقابلة صحفية له أن الخشية من هيمنة الشيعة على السلطة في العراق لاأساس لهمن الصحة فالشيعة في العراق لايسعون لاحتكار السلطة لهم في العراق كما صرح في 28 يناير 2005 لوكالة الآسوشيتيد برس دون أن يقنع أحد بكلامه هذا.

ثم أعاد العاهل الأردني الكرة مرة أخرى واتهم سوريا وإيران بأنها يشكلان التهديد الأساسي لاستقرار منطقة الشرق الأوسط أثناء لقاء مع ممثلي الجالية اليهودية الأمريكية في 22 مارس آذار

2005، وأضاف أن هذين البلدين ومعهما ميليشيات حزب الله المدعومة من هذين البلدين لتكثيف الهجمات الإرهابية ضد إسرائيل بغية لفت الأنظار وابعادها عما يجري من أحداث ماساوية في لبنان، وهي إشارة لحادثة اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري في 14 شباط 2005 المقرب جداً من ولي العهد السعودي آنذاك الأمير عبد الله الذي اصبح فيما بعد ملكاً للمملكة العربية السعودية، وكان الملك الأردني عبد الله قد صرح أنه حذر رئيس الوزراء الاسرائيلي آنذاك آرييل شارون من مخططات لتنفيذ هجمات إرهابية في إسرائيل طالباً منه التحقق من الجناة الحقيقيين قبل إلقاء اتهامات على الفلسطينيين والرد على الهدف الخاطيء، فالملك الأردني نوه لشارون بأن حزب الله هو المذنب الحقيقي، وإن بلاده أفشلت مخططات لهذا الحزب بإرسال إرهابيين إلى إسرائيل عبر الأردن وإن حزب الله هو الجناح الغربي للهلال الشيعي الذي أشار إليه في ديسمبر 2004.

ثم جاءت أحداث 12 تموز 2006 وخطف حزب الله لجنديين إسرائيليين مما أدى نشوب حرب إسرائيل على لبنان في صيف 2006 حيث أعلم الملك الأردني الإسرائيليين بمعلومات تقول أن زعيم حزب الله السيد حسن نصر اللهقام بزيارة سرية لدمشق في الرابع من تموز 2006 للتحضير لهذه العملية. ولد اصطحب نصر معه مستشاره السياسي والعسكري حسن خليل فقط من أجل تلقي التعليمات الإيرانية في حالة قيام غسرائيل بعمليات عسكرية ضد حزب الله في لبنانوضمان الدعم والإسناد الإيراني، وكان صبحي الطفيلي مؤسس حزب الله وأمينه العام السابق قد صرح من على قناة العربية أن

حزب الله يعمل بمثابة ساحة للعب لإيران في المنطقة ويسعى لتمتين العلاقات مع سوريا حسب توجيهات المرشد الأعلى علي خامنئي كما نشرت الشرق الأوسط السعودية في حملة إعلامية مركزة ومنظمة لإتهام طهران ودمشق وحزب الله في خلخلة استقرار منطقة الشرق الأوسط، وتعرف إيران بأن حزب الله هو أحد أعمدة ستراتيجيتها الأمنية في المنطقة، وهو بمثابة خط الدفاع الأول لإيران. ولقد أنكرت إيران ونفت تقديمها مساعدات عسكرية أو صواريخ أو مستشارين عسكريين إيرانيين لحزب الله لكنها لم تقنع أحداً واتضح عكس ذلك إبان الحرب الإسرائيلية على لبنان سنة 2006.

ثبت اليوم عند الدوائر الاستخباراتية الغربية أن حزب الله ولد بتوصية ووصاية إيرانية ولقد أعلن الرجل الثاني في حزب الله الشيخ نعيم قاسم صراحة في كتابه حزب الله: المنهج، التجربة، والمستقبل «أن حزب الله جرى تدريبه على يد الباسدران حراس الثورة الإيرانيين بأمر من مرشد الثورة الإيرانية آيه الله العظمى روح الله الخميني ووصل وفد رفيع المستوى إلى دمشق للتنسيق وتحقيق هذه الغاية ومرور المستشارين الإيرانيين عبر سوريا الى البقاع اللبناني لإقامة معسكرات التدريب هناك لمقاتلي حزب الله».

وفي 29 تموز 2006 نشرت صحيفة الشرق الأوسط السعودية مقالاً مطولاً بينت فيه تفاصيل المساعدات الإيرانية لحزب الله من الأسلحة والمقاتلين الذي يوجهون اليوم القوات الإسرائيلية، وذكرت الصحفة السعودية أن قوات الحرس الثوري شيدت مخازن سرية تحت الأرض بعمق ثمانية أمتار في سهل البقاع لإخفاء السلحة والصوارخ التي أرسلتها إيران لحزب الله. واستفاضت الصحيفة في

شرح آلية وهيكيلية واستراتيجية التنظيم اللبناني والتوجيه الإيراني له، وذكرت معلومة للفت انتباه القوات الإسرائيلية إلى أن مركز قيادة العمليات يوجد في البقاع ويستخدمه أبرعة قادة كبار في الحرس الثوري الإيراني وأربعة مقاتلين من حزب الله ولكل قطاع مركز قيادة عمليات مصغر خاص به حيث يمتلك حزب الله ثلاث وحدات صاروخية لكل وحدة 20 مقاتلاً مدرباً يستخدمون وسائل متطورة للحركة لمواكبة تحرك القوات الإسرائيلية على الأرض واختيار الأهداف الإسرائيلية المزمع مهاجمتها. واعترف أمين عام حزب الله السيد حسن نصر الله لصحيفة المصري اليوم في نهاية 2007 أن الجمهورية الإسلامية هي التي أنشأت حزب الله فهي التي مولت ودربت وسلحت أعضاء الحزب من أجل المقاومة المسلحة وترسيخ الهيمنة اشليعية في المنطقة على حد صحيفة الشرق الأوسط التي نقلت تصريحات نصر الله للصحيفة المصرية بتصرف. والتي قال فيها حسب الصحيفة السعودية أن إيران تتصرف باسم الأخوة والتضامن المذهبي، وإن المساعدات تصلهم عبر سوريا وإن حزب الله مستعد لتقبل أية مساعدات تأتيه من أي بلد عربي أو غسلامي كان كمصر والعربية السعودية، وهو يعلم علم اليقين أنه هذين البلدين لن يقدما له اية مساعدة تذكر.

لم تتردد العربية السعودية، زعيمة العالم العربي السني، في لوم حزب الله في 15 تموز 2006 في خضم معمعة الحرب مع إسرائيل ووصفت تصرفاته بالمغامرة لأن خطف الجنديين الإسرائيليين هو الذي قدم لإسرائيل ذريعة مهاجمة لبنان ولذلك فهي تعتبر أن حزب الله هو الذي يتحمل المسؤولية كاملة حسب وكالة الأنباء السعودية.

وإن المملكة تفرق بين المقاومة الشرعية والنهج المغامر لبعض العناصر الذين يتصرفون على هواهم دون تنسيق او تشاور مع البلدان العربية الأخرى. وكان وزير الخارجية السعودية الأمير سعود الفيصل قد أدان هجمات حزب الله ضد إسرائيل ووصفها بأنها غير مقبولة، وذلك عند استقباله من قبل الرئيس الأمريكي السابق جورج دبليو بوش في 23 تموز 2006 في واشنطن، وذلك لأن من شأنها أن تعيد منطقة الشرق الأوسط سنوات إلى الوراء وهو ما تسعى إليه إيران التي خرجت من حربها مع العراق لمدة ثماني سنوات التي انتهت سنة 1988، وهي منهكة وضعيفة، بينما هي اليوم قوية ومؤذية في منطقة حساسة وغير مستقرة.

بعبارة أخرى، حسب تعبير الوزير السعودي، أن غالبية الدول العربية تعتقد أن إيران باتت مطلقة اليدين وإن أية مساعدة تقدم لحزب الله ستصب في صالح إيران وبالتالي فهو يرى في إيران الشيعية قوة خطيرة في حال تعززت إمكانياتها، ومن هذه الزاوية تجرأت دول عربية على التصريح علنا بلومها لحزب الله في قتاله فسرايل بالضد من مواقف الرأي العام في بلدانها المؤيد والمساند لحزب الله ضد إسرائيل، لأن الأنظمة العربية التقليدية الموالية للغرب تخشى من سياسة الجمهورية افسلامية التوسعية حسب اعتقادهم، وهي تحرك بيادقها السياسية - الدينية في كافة أرجاء المنطقة. وهكذا أعلنت الدول العربية الخليجية عدا عمان، أن إيران هي العدو وليس إسرائيل.فالأنظمة العربية السنية تخشى من استغلال الإيرانيين للأقليات الشيعية في بلدانها لا سيما منذ سقوط نظام صدام حسين في العراق.

كان القلق قد استبد بأنظمة الخليج النفطية الغنية التي تعيش فيها أقليات شيعية مهمة، وفي بعضها يكون الشيعة هم الغالبية من السكان كما هو الحال في البحرين حيث يتجاوز عددهم الـ 70%، وكانت انتخابات عام 2006 في البحرين قد حققت جمعية الوفاق الوطني الشيعية القريبة من إيران 40% من نسبة مقاعد البرلمان والبالغ عدده 20 مقعداً نيابياً، مما أثار الهلع في أنفس الحكام السنة في المنطقة بعد أن تلقوا ضربة فوز الشيعة في العراق في انتخابات 2005 بأغلبية المقاعد البرلمانية أيضاً، ولقد اضطر ملك البحرين حمد بن عيسى آل خليفة الى تعيين نائب لرئيس الوزراء البحريني من الشيعة في 11 ديسمبر 2006 ولكن سرعان ما تدهورت العلاقات بين الأقلية السنية الحاكمة والأغلبية الشيعية المحكومة والمهمشة في البحرين خاصة بعد تسريع عمليات تجنيس مواطنين عرب سنة بالجنسية البحرينية في محاولة لتغيير الخارطة الديموغرافية للبلاد، فلقد نشر مركز حقوق الانسان في البحرين ان 18% فقط من الوظائف العليا في البلاد منحت للشيعة ولا يمكن للشيعة الانخراط بالمؤسسات الأمنية حيث يحتكر السنة كافة مناصب الجيش والشرطة والأمن، حتى لو كانوا حديثي التجنس من القادمين من اليمن والأردن وسوريا بل وحتى من الباكستان. ولقد اعتقلت السلطات البحرينية قبل أيام زعيم جمعية الوفاق المعارضة الشيخ علي سليمان بعد إعادة انتخابه في مؤتمر وطني للجممعية. وهناك خوف من عودة أعمال العنف من قبل الشباب الشيعة كما حصل في سنوات الثمانينات.

كما إن المكساب التي حققها شيعة العراق وإمكانية عدواها وانتقالها إلى القليات الشيعية في منطقة الخليج قد أرعب الأنظمة

هناك وخاصة العربية السعودية بصيغتها الوهابية السلفية المتشددة التي تكفر الشيعة وتقمعهم في حين نسبتهم تتجاوز الـ 15% من مجموع السكان يتمركزون في الإحساء والقطيف شرق السعودية وهي المناطق الأساسية الغنية بالنفط في السعودية ويوجد حوالي 100 ألف شيعي في المدينة يمارسون الأعمال الحرة الذين تتجاهلهم الحكومة وتضايقهم وتراقبهم بشدة فهناك حوالي نصف مليون شيعي في السعودية يعملون في القطاع النفطي كأيدي عاملة رخيصة ومستغلة وهم متواجدون منذ بواكير الإسلام حيث تعرضوا لغزوا الوهابيين ونهبهم مثلما فعلوا إبان غزوهم لكربلاء سنة 1802 وقد هاجم مفتي الوهابية محمد بن عبد الوهاب المذهب الشيعي وكفره وحرم الشعائر والطقوس الشيعية كعاشوراء وزيارة الأضرحة والقبور للأئمة ووصفهم بالمشركين. ولقد مارس الملك إبن سعود تجاه الشيعة سياسة القبضة الحديدية على يد واليه العسكري إبن جلوي لإرعابهم في مناطق سكناهم في شرق المملكة في الإحساء والقطيف وإذلالهم إن لم يتسطع إجبارهم عن التخلي عن مذهبهم واعتناق المذهب الوهابي وهو المذهب الرسمي للمملكة.

لا تستفيد المناطق الشيعية في المملكة العربية السعودية من التنمية الاقتصادية في المملكة علماً بأن المصدر الساسي لثروة السعودية يأتي من هذه المناطق الشرقية الغنية بالنفط، ويستبعد الشيعة بانتظام من كافة المناصب العليا للدولة والإدارة والدبلوماسية والجيش والشرطة والأمن والمجال الوحيد المسموح لشيعة الإحساء والقطيف هو العمل كعمال في شركة آرامكو النفطية لأن الذي يدير هذه الشركة بالأصل هم الأمريكيون الذي يرفضون ممارسة التمييز

الطائفي، وهناك العديد من الخبراء والأخصائيين الشيعة وكبار التقنيين يعملون في آرامكو رغم ارتياب الحكومة السعودية باخلاصهم للمملكة. وهناك هوس يسيطر على عقول العائلة الحاكمة في السعودية مفاده أن طهران تحرض الشيعة في الخليج على التمرد وإطاحة الأنظمة بالقوة لا سيما منذ حدوث الثورة الخمينية في إيران. وتعتقد الرياض أن طهران خلقت منظمة الثورة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية أي في الخليج والحال أن هذه المنظمة تأسست سنة 1975 أي قبل أربع سنوات من اندلاع الثورة الإسلامية في إيران. ثم وقعت أحداث مكة الدامية المعروفة سنة 1979 وأعقبتها مظاهرات شيعية حاشدة في الظهران في 27 نوفمبر 1979 والتي سحقت بالقوة والقسوة الشديدة على يد رجال الأمن والشرطة. وبعد يومين اندلعت تظاهرت أخرى أعنف في القطيف والإحساء شمال الظهران وكذلك في الهفوف. عندها تدخل الحرس الوطني بوحشية وهمجية لا مثيل لها لسحق المتظاهرين ما أوقع 36 قتيلاً ومئات المعتقلين والجرحى. كانت الشوارع مليئة بالجثث والحرس الوطني يطوق المنطقة ويمنع الاقتراب منها وكان المتظاهرون يرددون يسقط خالد، عندما كان هذا الأخير هو الملك. وتتهم الرياض إيران بأنها وراء هذه الضطرابات.

وفي شباط 1980 اندلعت تظاهرات شيعية جديدة في القطيف، جوبهت بالحديد والدم على يد الحرس الوطني السعودي حيث أعلن العاهل السعودي أنه لا يسمح بوجود طابور خامس شيعي داخل المملكة، وهو يخاف من معدل التكاثر السكاني الشيعي في المملكة المتصاعد، ومن هنا فكر السعوديون ومعهم حكام الخليج الآخرين، بتحريض صدام حسين ودفعه لمهاجمة إيران وإسقاط نظامها وهم

يتكفلون بكافة مصاريف هذا الاعتداء العسكري الذي شجعته أمريكا وأوروبا الغربية المعادين لإيران الإسلامية. مارست الحكومة السعودية سياسة أسننة المناطق الشيعية وجعل الشيعة أقلية وليس أغلبية في تلك المناطقة وشجعت على هجرة السن إليها بكثير من المغريات المادية. وفي آذار ـ مارس سنة 1988 وقع انفجار في مصفاة جبيل النفطية في المنطقة الشرقية وأحدث أضرار بليغة مما دفع مدراء شركة آرامكو تقليل الاعتماد على الأيدي العاملة الشيعية السعودية، وأدى ذلك الى ارتفاع نسبة البطالة بين الشباب الشيعة، رافق ذلك حملة اعتقالات واسعة بين الناشطين الشيعة السعوديين بتهمة انتماؤوهم لمنظمة سرية محظورة تحمل إسم حزب الله في الحجاز. ومن ثم أعدم أربعة من المقبوض عليهم بعد إعترافاتهم تحت التعذيب وقطعت رؤوسهم أمام الناس في إحدى الساحات العامة، في أكتوبر سنة 1988. فردت منظمة الجهاد الإسلامي في الحجاز باغتيال السكرتير الثاني في السفارة السعودية في أنقرة في تركيا. وفي 4 يناير 1989 أغتيل السكرتير الثالث في اسلفارة السعودية في تايلاند على يد جمعية العلماء المحاربين، وهي منظمة متشددة أسسها الشيخ حسن موسى الصفارسنة 1988. وفي العاشر من تموز 1989 وقعت ثلاث انفجارات في موسم الحج في مكة تبنتها منظمة سرية باسم جيل الغضب العربي، واعتقلت السلطات السعودية 16 شاب شيعي كويتي في 21 أيلول من نفس العام وتم إعدامهم بقطع رؤوسهم. وتوعد حزب الله في الحجاز وحزب الله في الكويت بالثأر من حكام آل سعود الكفرة. وتم قتل الدبلوماسي السعودي الوحيد الباقي في الشطر الغربي من بيروت في نوفمبر 1989. وتم اغتيال ثلاث دبلوماسيين

سعوديين في بانكوك في الثاني من شباط 1990، واحتجت منظمة الدفاع عن حقوق الإنسان في الأمم المتحدة ونددت بالاستبداد الحكومي السعودي تجاه الشيعة وسوء معاملتهم وتعذيبهم في السجون السعودية وتقدر اعدادعم ببضعة مئات من بينهم علماء دين وشيوخ معتقلين بدون تهم ثابتة ولا محاكمات علنية. اضطرت السلطات السعودية للتوصل الى تفاهم مع الشيعة في خريف 1993 واطلقت سراح بعض السجناء في تموز 1994، بيد أن الحكومة السعودية ماتزال ترتاب في مواطنيها الشيعة وولائهم وتمنعهم من ممارسة طقوسهم وشعائهم الشيعية ومن بناء المساجد والحسينيات الشيعية، ومن بين الستين عضوا في مجلس الشورى السعودي الذي أنشأه الملك فهد سنة 1993 يوجد شيعي واحد فقط، وارتفع العدد الى 2 عندما تضاعف عدد أعضاء المجلس الى 120 عضواً. في نيسان 2001 تم التوقيع على بروتوكول اتفاق أمني بين إيران والسعودية سمح بموجبه بعودة اللاجئين والمنفيين السعوديين الشيعة الى بلدهم وتقديم ضكانات لهم ولكن السلطات السعودية نقضت الاتفاق وقامت بحملة اعتقالات واسعة مما احرج الأمير محمد ابن فهد حاكم المنطقة الشرقية الذي كان يشجع الشيعة على العودة الى بلادهم، وكذلك إحراج إيران التي تعهدت بسلامتهم بموجب البروتوكول المذكور. بعض السعوديين الشيعة في المنافي غير رأييه ولم يعد السعودية بل انتقل الى العراق او ايران، ولم يمنعهم صدام حسين حاكم العراق السابق رغم معاداته لشيعة بلاده، ومازل شيعة السعودية نشطين سيما بعد إطاحة القوات الأمريكية بنظام صدام حسين في 2003. وكان الشيخ الوهابي المتشدد سلمان بن فهد العودة،

قد صرح في أكتوبر سنة 2006 إن الوعاظ الشيعة يلعبون بالنار ويشكلون تهديداً و خطراً على الإسلام. وقد ساهم الملك عبد الله بنفسه في التعبير عن خوفه من التبشير وذلك من خلال مقابلة أعطاها لجريدة السياسة الكويتية بتاريخ 27 يناير 2007، قائلاً: إن مفاهيم الدعوة الدينية انطلقت من هنا وباتت معروفة ولقد اتخذنا احتياطاتنا تجاه استغلال الدين لشحذ الصراعات الطائفية أو المذهبية بين السنة والشيعةولو عرفنا كيف نتصرف فسوف لن تكون هناك مخاطرولكن لو فشلنا فمن هناك ستبدأ المخاطر. وأضاف: «نتابع هذه القضية ونعرف تبعات وأبعاد هذه العملية. لكننا نعتقد بأنها لن تحقق أهدافها لأن الغالبية المطلقة وهم السنة لن يقبلوا التخلي عن معتقداتهم وشعائرهم. وفي نهاية الأمر فإن الكلمة الأخيرة لأغلبية المسلمين وهم السنة و لا يمكن لباقي العقائد ان تتسلل أو تمس السلطة التاريخية للسنة. وستنظم مؤتمرات للتقريب بين وجهات النظر المختلفة للمذاهب ودراسة نقاط الاختلاف وتوضيح الموقف ونحن نعرف دورنا كدولة هي مهد الدعوة الإسلامية ونحن نعرف من الذي يطلق هذه العمليات» وهو بالطبع يقصد إيران بدون تسميتها.

خافت المملكة العربية السعودية من تنامي الإغواء الشيعي وتصاعد شعبية إيران وحزب الله لدى الرأي العام الإسلامي حتى بات زعيم حزب الله حسن نصر الله بطل العرب الجديد بعد انتصاره على إسرائيل في حرب 2006، حيث بدا واضحا في نظر القاعدة الإسلامية الواسعة إن إيران وحزب الله هم الوحيدون القادرون على مواجهة الغطرسة الإسرائيلية، والهيمنة الأمريكية.

تفاقمت مخاوف اللمكلة السعودية بعد انتعاش تيار التحول للتعشيع من قبل قطاع كبير من الشباب السنة بتأثير من الجمهورية الإسلامية وحزب الله رغم إنكار حسن نصر الله استغلال شعبيته للترويج للفكر الشيعي، فقامت السعودية بتمويل المدونات ومواقع الانترنيت المعادية للشيعة والتشيع والفكر الشيعي ووصم بالردة والبدع وبالتالي تكفيرهم والسماح بسفك دمائهم.

لم تخف الأدبيات الرسمي للمملكة معاداتها للتشيع. ففي سنة 1992 أصدر العضو المؤثر في المؤسسة الدينية الوهابية الرسمية الشيخ عبد الله بن جبرين فتوى دينية يندد بالشيعة ويعتبر التشيع نوع من الشرك والارتداد عن الإسلام وينطبق عليهم كم الردة أي القتل، وهو نفس الشخص الذي دعى في 22 يناير كاانون الثاني 2007 السنة لطرد الشيعة من بلا المسلمين وقال بالجرف الواحد: «يقول البعض إن الشيع مسلمين لأنهم يؤمنون بالله وروسله لكنني أقول إنهم هراطقة أو زنادقة جاهليون وكفار ومشركون». وقد تناقلت المواقع اسلفية والأصولية المتشددة والتكفيرية هذه الفتوى ونشرتها بتشجيع وتمويل رسمي سعودي، وأضاف بن جبرين: «إنهم، أي الشيعة، الأعداء الأكثر فساداً وعلى المسلمين أن ينتبهوا لمؤامراتهم، ويجب مقاطعتهم وطردهملكي يحمي المسلمون أنفسهم من الشر الذي ينشروه» ومن المعروف أن الحكومة السعودية تستمع وتتأثر بأقوال وآراء مثل هؤلاء الشيوخ الوهابيين.

وفي نهاية سنة 2006 دعى عالم وهابي آخر يدعى عبد الرحمن البراك السنة لرفض المصالحة مع الشيعة الذين وصفهم بأنهم أسوء من اليهود والنصارى وتجدر الإشارة إلى أن شيوخ لوهابية

لايستخدمون مفردة شيعة بل روافض وهي تسمية تسقيطية أو تحقيرية لوصف الشيعة أي الرافضين لخلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة أبو بك وعمر وعثمان الذي ارتدوا عن الإسلام وانشقوا عن صفوف المسلمين والاجماع السني. الأمير نايف، وزير الداخلي السعودي السابق، وصفهم بأنصاف اليهود المتخفين بالتقية محذراً من صعود الأغلبية الشيعية في العراق إلى السلطة واصفاً ذلك بالنكبة والكارثة والآفة التي يجب محاربتها بكل السبل مهما كان الثمن. والأمير الملياردير الوليد بن طلال اعتبر صعود نجم الشيعة في العراق، في مقابلة لصحيفة الفيغارو الفرنسية سنة 2004 بمثابة الحدث الذي يثير قلق المسلمين كافة في العالم العربي المجاور التي ستتاثر كما تأثرت بحدوث الثورة الإيرانية سنة 1979 وما أحدثته من اضطرابات في هذا الجزء من العالم أي الشرق الأوسط.

ويعتبر السعوديون أن الوضع في العراق بمثابة قدر يغلي وقنبلة موقوتة ويحذرون الولايات المتحدة الأمريكية من تبعات وتداعيات ذلك لكي يتفادون انفجار الوضع وفلتان الأمور من بين أيديهم، كما أعرب وزير خارجية السعودية الأمير سعود الفيصل في أيلول 2005 عن خشيته من تدخلات إيران في الشأن الداخلي العراقي، حيث يشكوا العراقيون من تدخلات إيران بالرجال والسلاح والأموال ومن هيمنتهم على الحياة السياسية العراقية، وذلك بمناسبة زيارة له للولايات المتحدة الأمريكية. ول ثبتت تلك التدخلات فسيكون الأمر في غاية الخطورة وتخشى المملكة بأن ما يجري في العراق سوف يقود حتماً إلى التقسيم الدموي مما سيعرض للخطر الهوية العربية للبلد على حد تعبير مسؤول

سعودي آخر متهماً إيران بسعيها لزيادة نفوذها داخل العراق من خلال الطائفة الشيعية هناك. وفي المحادثات الرسمية بين السعوديين والإيرانيين يركز السعوديون على خطورة التدخل الإيراني في العالم العربي، في العراق وسوريا ولبنان واليمن والبحرين، وإنهم لن يبقوا مكتوفي الأيدي حيال ذلك.

يعتبر العراق على نحو ما بمثابة المختبر الذي تجري فيه اختبارات بشأن مشكلتين جوهريتين عويصتين توجدان في جميع بلدان الشرق الأوسط تقريباً ألا وهما: المسألة العرقية أو القومية التي تجسدها طبيعة العلاقات المعقدة بين الأكراد والعرب، والمسألة الطائفية أو المذهبية بين المسلمين من خلال منظور العلاقات المعقدة بين الشيعة والسنة.

مما يغيض الأنظمة المجاورة للعراق هو تكريس مبدأ الأغلبية في الحكم عبر الانتخابات الحرةالتي شكلت سابقة خطيرة في المنطقة، وفيما يتعدى حتمية امتلاك شيعة العراق للسلطة على نحو شرعي من خلال الانتخابات،هناك مسألة الخوف من تجذر فكرة الديموقراطية نفسها التي تمس الأنظمة والحكام العرب والمسلمين الأوتوقراطيين، وخوفهم من ميل الأمريكيين لصالح الشيعة المنتخبين شرعياً على حساب الأنظمة السنية الأوتوقراطية غير المنتخبة وغير الشرعية، الأمر الذي سيمس حتماً بأنظمة الخليج التي تتواجد فيها أقليات شيعية مهمة، وبعضها يكون الشيعة فيها أغلبية كالبحرين التي يتواجد فيها الأسطول الخامس الأمريكي. الأنظمة العربية السنية التقليدية ترتعد هلعاً من تخلي القوة الأمريكية عنها ورفع حمايتها وذلك منذ أحداث الحادي عشر

مــن أيلــول 2001 الــتي دفعــت وواشــتطن لمراجعــة تحالفاتهــا الاسـتراتيجية في المنطقـة امتـداداً لإطاحـة شـاه غـيران سـنة 1979، وكانت أغلبية حلفاء واشنطن في المنطقة من السنة، من مصر الى ماليزيا مروراً بالعربيـة السعودية، لذلك تنظر هذه الأنظمة بعين الريبـة لي تقـارب أو تحـسن في نمـط العلاقـات بـين الأمـريكيين والـشيعة في المنطقـة سيما مع إيـران والعـراق. وبالتـالي تتحـسب الـدول الخليجيـة وتنظـر بعـين الحـذر والريبـة عـودة إيـران بقـوة للمشهد الإقليميوتحقيق طموحاتها من خلال تحالفاتها مع شيعة العراق ولبنان وسوريا.

ولمواجهة هذا الواقع الاستراتيجي الخطير عمدت السعودية ومعها باقي دول الخليج عدا مسقط، إلى خلق قوة مسلحة سنية موازيـة بمثابـة الـذراع المـسلح للـسنة للوقـوف بوجـه التهديـدات الشيعية المفترضة أو المحتملة حسب زعمهم. وقاموا بتمويل وتسليح وتدريب الجماعات المسلحة المتشددة والتكفيرية من أمثال تنظيم القاعدة وإفرازه تنظيم داعش وأمثالهما في العراق وسوريا ولبنان لتقـويض المخططـات الإيرانيـة وكـذلك التنظيمـات الـسياسية المتشددة من أمثال الإخوان المسلمين لقلب توازنات القوى القائمة في كل من سوريا والعراق ولبنان واليمن أما في البحرين فقد تدخلوا عسكرياً لحماية النظام البحريني من أغلبيته الشيعية الغاضبة من خلال قوات درع الجزيرة.

الفصل الثاني عشر

جذور التعاون السني مع داعش والإخوان

د. جواد بشارة

بات اسم داعش يتردد على كل لسان في الشوارع والصالونات والمقاهي العربية والغربية وتكاد لا تجد صحيفة واحدة تصدر في بلدان العالم كله، أو أية قناة تلفزيونية أو محطة |إذاعية أو أية وسيلة إعلامية أخرى، لا تذكر في صدر صفحاتها ونشراتها وتحليلاتها وأخبارها، في كل يوم تقريباً، هذا التنظيم الإرهابي واستعدادات التحالف الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية لمواجهته عسكرياً والبحث عن الإستراتيجية المناسبة لسحقه وتدميره، فعلى ماذا يدل ذلك؟

قبل الإجابة على هذا السؤال يتعين علينا العودة قليلاً إلى الوراء لنتمعن بتاريخنا الحديث، وبالتحديد إلى العقدين الأولين من القرن العشرين المنصرم، حينما ظهر للوجود مفهوم الإسلام السياسي وهدفه المعلن إقامة دولة الخلافة الإسلامية وتطبيق الشريعة بحذافيرها كما وردت في النصوص الدينية الإسلامية المقدسة، أي القرآن والسنة النبوية، بالقوة والقسر كدستور لدولة

الخلافة، إعادة أسلمة المجتمعات. كان ذلك هو برنامج حركة الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا، وتلقفها أنصاره من بعده إلى يوم الناس هذا، ومن رحمها ولد المسخ الذي تقلد عدة مسميات مثل القاعدة وداعش وغيرها. أما مفردات وتنويعات هذا الإسلام السياسي فقد توزعت جغرافياً وأيديولوجياً ومذهبياً على كامل رقعة العالم الإسلامي واختراقاته لدول العالم الأرضي برمتها، وترجمت على أرض الواقع بمسلك الإرهاب والعنف والبطش والهمجية والوحشية والذبح وقطع الرؤوس والترهيب والترغيب والقتل والتهجير الجماعي، خاصة تجاه الأقليات الدينية والطائفية وعلى رأسهم المسيحيين في الشرق والصابئة والأزيديين والشبك وغيرهم. فداعش ليست تشوهاً أو ورماً سرطانياً في جسد الأمة الإسلامية كما يدعي البعض، بل هي جزء لا يتجزأ من نسيجها وممارساتها وتاريخها المليء بالعنف والوحشية، ولو عدنا إلى الوراء أكثر لنمعن النظر في تاريخ العالم الإسلامي فسوف نعثر على أهوال ومشاهد دموية يقشعر لها البدن. ففي مقال مهم للزميل توفيق شومان تحت عنوان: «داعش» وتاريخنا: «هي منّا .. ونحن منها»، ذكر أمثلة تفوق الخيال واستند في مقاله لما ورد في كتاب «من تاريخ التعذيب في الإسلام»، للمفكر العراقي الراحل، هادي العلوي، منها: إن الحجاج بن يوسف (660 ـ 714 م)، كان يستمني كلما قتل أو أعدم أو سحل خصومه، في حين أن المعتمد بن عباد (1040 ـ 1095 م)، أقام مزرعة من الرؤوس البشرية المقطوعة في إحدى حدائق قصره في إشبيليا.

ويروي المؤرخ البلاذري (توفي 892 م) في كتابه (أنساب الأشراف) أن مسلم بن عقبة، القائد العسكري المعروف خلال ولاية

يزيد بن معاوية، استباح المدينة المنورة لثلاثة أيام، نهباً واغتصاباً وقطعاً للرؤوس، وأن آلافاً من الولادات غير الشرعية حصلت جراء «جهاد الاغتصاب»، ومع ذلك، حين قارب مسلم بن عقبة الموت، أشهد اللّه على إيمانه قائلاً: «أللهم إنك تعلم أني لم أشق طاعة خليفة، ولم أفارق جماعة، ولم أعص إماما».

وفي المأثور التاريخي الإسلامي، أن الحجاج بن يوسف، قتل وأحرق وصلب وذبح ما يتجاوز مئة ألف شخص، لكن سابقه، زياد بن أبيه (ت. 673 م) تعداه في الإثم والعدوان، عددا وأمثولات جهادية، ومن مشهورات أفعاله، كما يرويها المؤرخ الطبري (ت. 924 م) أنه كان يدفن معارضيه أحياءً، ويفقأ عيونهم، ويحرقهم على نار هادئة ثم يجز رؤوسهم، وكانت تأخذ منه نشوات القهقهة مأخذاً، حين يُطلق كلابه الجائعة على مسجونيه. ويعزى إليه، أولية إنزال عقوبة قطع اللسان في الدولة الأموية المتغلبة. فقد قطع لسان رشيد الهجري، ثم صلبه، لخلاف في العقيدة، وبحسب المرويات التاريخية أن زياد بن أبيه، أول من أباح قطع الرأس وحمله على السيف، وكان ذلك الرأس لعمرو بن الحمق، فجرت بعده العادة، كأنها ذهبت مثلا.

وإذا كان الحرق، غير مألوف ومعروف في الجاهلية الأولى ولا في الإسلام الأول، فالخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (690 - 744 م)، أباحه واستكثر منه، مضيفا إليه قطع الأطراف، مثلما فعل مع غيلان الدمشقي، أو كما فعل عامله على العراق خالد القسري، مع الجعد بن درهم، حيث تم ذبحه وحرقه، وهو المصير نفسه الذي حل بالمغيرة بن سعيد وأتباعه، والحارث بن سريج وأنصاره، على ما يقول الطبري ويروي.

وحين استحكم العباسيون وأصبحوا من ذوي الشوكة والغلبة، قتل أبو مسلم الخراساني (ت. 755 م) مئات الآلاف، وقيل إن آلاف المذبوحين غطوا بقاع الشام والعراق، ويروي أبو فرج الأصفهاني أن أبا جعفر المنصور (ت. 776م) أوغل في الشناعة، فكان يدفن معارضيه أحياء حتى الموت، وبعدما كان تقطيع الأوصال يجري دفعة واحدة، غدا في عهد الخليفة هارون الرشيد (ت. 810 م) أربع عشرة دفعة، وهذا بالضبط ما فعله الخليفة الرشيد ببشير بن الليث وفقا لرواية الطبري، وتشعبت أسباب الذبح والقتل من ولاية متغلبة إلى أخرى، وتراوحت بين سبب سياسي أو عقيدي، أو هروب من الجيوش، أو انعدام القدرة على دفع الخراج، أو لوشايات يصعب حصرها. وأبدع العباسيون والسلاجقة والمماليك والعثمانيون في فن التلذذ بضحاياهم، ومن أمثلة ذلك:

- التشميس: ويعني ترك الضحية لمصيره تحت شمس حارقة حتى الموت.
- المسمرة: ويعني دق المسامير في أيدي الضحية على جذوع الأشجار حتى يلقى حتفه.
- الحشو: حشو أنف الضحية وعينيه وفمه بالتبن، حتى تخرج روحه من خلفه، إذ كان الاعتقاد سائدا، أن الروح تخرج من الفم، وبهذه الطريقة يسدون منافذ الروح التقليدية على ما يزعمون.
- السلخ: ويعني سلخ جلود البشر وهم أحياء، وقد أورد ابن الأثير، أن الخليفة العباسي المعتضد بالله، (ت. 904 م) سلخ جلد معارضه محمد بن عبادة،

وكذلك فعل السلاجقة بقيادة محمد بن ملكشاه، مع أحمد بن العطاش وأصحابه ممن وقعوا في الأسر.

في العصر العباسي، شاعت طريقة سمل عيون الخلفاء لإسقاط خلافتهم شرعا، فالأعمى لا يحوز الولاية، وعلى ذلك، تم تعطيل أهلية القاهر بالله، بسمل عينيه من قبل ابن أخيه الراضي بن المقتدر، ومثل ذلك جرى مع المتقي لله، حيث سمل عينيه ابن عمه المستكفي، ولا يخرج عن السياق، الخليفة العباسي المتوكل (ت. 861 م) فقد ذبحه إبنه المنتصر، وكان ولي عهده، وقال فيه البحتري شعرا:

أكان ولي العهد أضمر غدرة؟ / فمن عجب أن ولي العهد غادره

السلطان العثماني مراد الأول (1326 م)، سمل عيني ابنه، صاروجي، بعدما نازعه الملك، على ما يقول محمد فريد بك المحامي، صاحب الكتاب المعروف «تاريخ الدولة العلية العثمانية»، فيما فاتح مدينة القسطنطينية (1453 م)، محمد الثاني، قتل أخاه الرضيع أحمد، في حين أن السلطان سليم الأول دس السم لوالده بايزيد الثاني واستولى على الحكم في العام 1512م، ثم قتل خمسة من أولاد إخوته، ولاحق أخويه أحمد وكركود فقتلهما في العام 1513. وفي معركة «غالديران» العام 1514 مع الشاه الصفوي إسماعيل، سُبيت زوجة الأخير، فأهداها السلطان سليم الأول لكاتبه، تبعا لما يقول محمد فريد بك المحامي.

لم يخرج السلاطين العثمانيون، كما يقول المؤرخ خليل

إينالجيك، في كتابه «تاريخ السلطنة العثمانية» (ترجمة محمد الأرناؤوط)، عما هو معروف بـ«قانون ناما» الذي وضعه محمد الفاتح، بعدما استحصل على «فتاوى شرعية» أجازت قتل الإخوة والأشقاء والأقارب حفاظاً على مصلحة السلطنة العليا، ويرد في القانون: «يمكن لأي من أبنائي، الذي سيهبه الله السلطنة، أن يتخلص من إخوته، وهو ما تقره غالبية العلماء»، ووفقاً لهذا القانون، حيث يقرر الله مصير الممالك والملوك، فسليمان الأول قتل ولديه، مصطفى (1553) وبايزيد (1561)، وخنق مراد الثالث خمسة من إخوته، ومحمد الثالث (1595 ـ 1603) أعدم تسعة عشر من إخوته، وعثمان الثاني (ت ـ 1622) حاز «فتوى» مباشرة بقتل شقيقه الأكبر محمد، واعتمد السلاطين العثمانيون حبس أشقائهم في غرف خاصة في القصور، وقد غدت تُعرف لا حقاً بـ«الأقفاص» وتمتد لسنوات. ولما دُعي سليمان الثاني للحكم، كان قضى أربعين سنة في «القفص»، إلى جوار الخصيان والجواري والعبيد، وبطبيعة الحال، بعد أن تؤول السلطة لسلطان السلطنة الجديد، يزور ضريح الصحابي أبي أيوب الأنصاري، ويؤم المصلين جماعة في أول يوم جمعة، يلي إعلان سلطانه.

من نافل القول، إنه من الصعب حصر السير الشخصية للولاة المتغلبين أو إيجاز تاريخ تداولهم السياسة وإدارة الأمر، ولكن السؤال الذي يؤرق الحاضر، يكمن في الحيز المسموح والمطلوب لفصل القداسة عن التاريخ، ذاك التاريخ الذي أعيد إحياؤه ممثلا بـ«داعش» وخلافتها وشرائعها القائمة على السبي والذبح والقتل باسم الشريعة وأحكامها.

هذه لوحة شاملة وجلية للأساس التاريخي الذي تستند عليه داعش في ممارساتها الحالية وهي النقيض للفرح والحب والسعادة والتسامح والاطمئنان والأمان والإبداع، والرديف للخوف والهلع والرعب والحزن والكراهية والحقد والتعصب والعنف والوحشية والهمجية، وهذه هي حقيقتها التي لم يدركها الرأي العام العالمي بعد. فوسائل الإعلام لم تتناول سوى الجزء الظاهر من جبل الجليد، أي تلك الشرذمة من المجرمين المعتوهين الذين يفتكون بالسكان أينما حلوا وهم بضعة آلاف يعملون كأداة تنفيذية لأيديولوجية أكبر وأخطر من أفعالهم الإجرامية اليومية ألا وهي إيديولوجية الإسلام السياسي ودولة الخلافة الإسلامية على غرار ما حصل قبل ألف وخمسمائة عام عندما انطلقت الدولة الإسلامية الفتية الأولى من بقعة منسية على الخارطة العالمية في شبه الجزيرة العربية هي يثرب، التي سميت بالمدينة فيما بعد، لتكبر وتنمو ككرة الثلج المتدحرجة وتقضي على إمبراطوريات كبيرة كالامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية وغدت في ظرف زمني قصير الإمبراطورية الأعظم في العالم في العصرين الأموي والعباسي، ومن ثم في العهد العثماني. وهذا ما تخطط له دولة الخلافة الإسلامية الحديثة داعش إذا لم يكبح جماحها أحد، فهي كالوباء الذي ينتشر عابراً الحدود والقارات.الغرب مذهول من هذا الانتشار السريع لدولة داعش الإسلاموية في مناطق واسعة من العراق وسوريا ومندهش من التأييد التي تحظى به هذه الزمرة الدموية من جانب كل الجماعات الإسلاموية الجهادية تقريباً ما عدا القاعدة التي ترى فيها منافساً يمكن أن يقضي على نفوذها

في مجال الإرهاب العالمي. لم تنجح أمريكا في تدمير تنظيم القاعدة الإرهابي الدولي على عكس إدعاء الرئيس الأمريكي باراك أوباما بل على العكس تمخضت القاعدة عن تنظيم أشد فتكاً وأقوى وأكثر وحشية وبطشاً وإرهاباً وإجراماً هو تنظيم داعش. لقد استعادة القاعدة أنفاسها في العراق وأفغانستان وسوريا واليمن وأفريقيا وليبيا وغيرها من دول العالم الإسلامي، خاصة بعد انسحاب القوات الأمريكية في العراق حيث استغلت ضعف القيادة السياسية في العراق واعتمادها على قادة عسكريين غير مؤهلين لمواجهة شراسة القاعدة وفروعها فحدثت الفوضى وفقد البلد سيطرته على اجزاء واسعة من الأراضي. فجيش أميركا لم يهزم داعش وكان آلاف العراقيين يقتلون بتفجيرات داعش شهريا حين كان هذا الجيش يحتل العراق من أقصاه إلى أدناه و معلوم أن بوش هو من جاء بالقاعدة تطبيقا لشعاره الغبي «نستدرج العدو إلى الميدان العراقي لنسحقه بعيدا عن شوارع نيويورك و واشنطن» ولكن القاعدة هي التي سحقت أجساد المدنيين العراقيين بفضل سياسة أميركا . وفي سوريا مازال الغرب مصراً على محاربة النظام وتجاهل إيران وتقديم الدعم والتسليح للإرهابيين في جبهة النصرة والجبهة الإسلامية رغم اعتراف نائب الرئيس الأمريكي جو بايدن واتهامه لحلفائه في التحالف الجديد بأنهم هم من دعم ومول وسلح داعش والنصرة والتنظيمات التكفيرية الأخرى التي حولت سوريا الى جحيم وخراب منذ أربع سنوات. ففي كلمة ألقاها يوم الخميس 2 تشرين الاول / اكتوبر في جامعة هارفارد في ولاية ماساتشوستس الامريكية قال بايدن: «مشكلتنا الأكبر كانت في حلفائنا بالمنطقة،

الأتراك كانوا أصدقاء رائعين وكذلك السعوديون وسكان الإمارات وغيرهم. ولكن ماذا فعلوا؟ كان همهم الوحيد هو إسقاط الأسد وخاضوا حربا بالوكالة بين السنة والشيعة، وقدموا مئات ملايين الدولارات وعشرات آلاف الأطنان من السلاح لكل من وافق على القتال ضد الأسد».

هذه الالاف المؤلفة من أطنان الأسلحة ومئات الملايين من الدولارات وصلت بالتحديد، وباعتراف بايدن، الى التنظيمات التكفيرية الإرهابية، وعلى رأسها تنظيم داعش الإرهابي، حيث قال ما نصه: ان «الناس الذين حصلوا على المساعدة كانوا مسلحي «جبهة النصرة» و«القاعدة» وعناصر متطرفة قادمة من مناطق أخرى في العالم. أتعتقدون أنني أبالغ؟ أنظروا بأنفسكم إلى النتيجة». وكان يقصد بالعناصر المتطرفة أنصار تنظيم داعش من الأجانب والعرب والعراقيين والسوريين بالطبع.

وفي محاولة للتخفيف من وقع هذا الاعتراف الصاعق سعى بايدن عبر التأكيد، وبشكل لا يخلو من سذاجة، على أن هؤلاء الحلفاء ندموا على فعلتهم وانخرطوا في التحالف المناهض للإرهاب للتكفير عن ذنوبهم، فهم الآن، وفقا لتعبير بايدن: «يعون خطأهم ووافقوا على الانضمام إلى التحالف الدولي المعادي للإرهاب.. كلهم على غير انتظار، فهموا ما يجري». إن أهمية ما قاله بايدن لا تكمن في أن الرجل كشف سرا، فما قاله كان معروفا للجميع، ولكن تكمن في إقرار المسؤول الثاني في الإدارة الأمريكية شخصيا وبشكل صريح وعلني بأن تركيا والسعودية والإمارات وباقي حلفاء أمريكا هم من كانوا وراء «داعش» و«القاعدة»

والتنظيمات التكفيرية الأخرى، وإنهم من أشعل الفتنة الطائفية بين الشيعة والسنة.

اعترافات بايدن، جاءت كما يبدو كمحاولة لترميم صورة أمريكا وتركيا والسعودية والإمارات وقطر والأردن وباقي الحلفاء، التي تضررت كثيرا أمام الرأي العام العالمي، بعد أن تبين إن هذه الدول كانت من اكبر داعمي وممولي مسلحي «داعش» والقاعدة والتنظيمات التكفيرية، في الوقت الذي كان قادتها وإعلامها يخدعون شعوبهم وشعوب العالم، بطبيعة المهمة التي كانوا ينفذونها في سوريا، لذا جاءت الاعترافات كنوع من النقد الذاتي والاعتراف بالخطأ، ولكنه اعتراف يحمل الحلفاء دون أمريكا مسؤولية ما حدث ويحدث في سوريا، وكأن أمريكا لم تكن تعلم بما كان يخطط له الأمير بندر بن سلطان في سوريا بعد إن سلمه الملك عبدالله الملفين السوري والعراقي، والرجل معروف لدى الدوائر الأمريكية بارتباطه الوثيق بالمجموعات التكفيرية التي طالما استخدمها كسلاح في خدمة المصالح السعودية.

هو إذن مخطط جهنمي أُعد له في غرف مظلمة في واشنطن والرياض وأنقرة، لضرب استقلال واستقرار البلدان العربية، وخاصة سوريا والعراق ومصر وتونس وليبيا والجزائر.

يمكننا القول على ضوء ما ذكرناه أعلاه، أن ظهور القاعدة وداعش وأمثالهما وتضخمها المذهل إن هو إلا إشارة لتشابك عدد من الإخفاقات البنيوية لسياسة الغرب المتجذرة فيه منذ العهد الاستعماري، في تعاطيها مع العالم الإسلامي. وكردة فعل لإطاحة الغرب بالخلافة الإسلامية أو ما تبقى منها في الدولة العثمانية

حيث ظهر الفكر الجهادي ونما وتطور في أرض خصبة تتوسل تأويلاً منحرفاً لنصوص دينية تحث على الجهاد وقتال الكفار والملحدين والمشركين أينما وجدوا. وتحت هذا الشعار نشأت حركة الإخوان المسلمين، ومن ثم برزت حركات تكفيرية في مصر والجزائر واليمن وكذلك في الباكستان وأفغانستان ومن ثم في العراق وسوريا ترفع راية الجهاد الشامل ووضعه في مصاف السياسة الإستراتيجية العليا للحركات الإسلاموية الجهادية المختلفة. منها ما يدعوا للجهاد ضد الأنظمة المحلية في الدول الإسلامية الموالية والتابعة للغرب وأخرى تدعوا لمحاربة الغرب في عقر داره. الأولى تتبنى أطروحة إقامة دولة إسلامية تسمى دولة الخلافة تطبق فيها الشريعة وترغم السكان على الطاعة والخضوع وتطبيق التعاليم الإسلامية بقوة السلاح إذا تطلب الأمر وذبح وتهجير كل من يعارض ذلك، وهذه هي إستراتيجية داعش، والثانية تحبذ الانتشار الأخطبوطي في كل مكان في الأرض على شكل خلايا نشطة أو نائمة مبعثرة دون أن يكون لها موقع محدد ومعروف يسهل تشخيصه وتدميره على يد قوى الشر الكافرة، وهي إستراتيجية تنظيم القاعدة الإرهابي. وهما وجهان لعملة واحدة لا اختلاف بينهما سوى بالأسلوب ودرجة الهمجية في التعامل مع البشر. العدو المشترك لهذين التنظيمين الإرهابيين هو القوى الغربية والطائفة الشيعية وبقية الأقليات الدينية والمذهبية لا سيما مسيحيو الشرق. والأنظمة المحلية الفاسدة والموالية للغرب. ولقد تمكنت هذه التنظيمات الراديكالية المتطرفة والتكفيرية أن تستقطب وتكسب ولاء وبيعة عدد من التشكيلات

الاجتماعية السكانية مثل الطوارق في مالي وسنة اليمن ومسلمو شمال نيجيريا والتنظيمات الإسلاموية المسلحة في أفغانستان والباكستان، وجزء كبير من سنة العراق وسنة سوريا، سواء طوعاً أو قسراً. فبريطانيا وفرنسا استخدمتا سياسة فرق تسد في القرن العشرين عندما كانتا تمثلان القوتين الاستعماريتين الأقوى والأشرس في ذلك الوقت، ومن ثم سلكت الولايات المتحدة الأمريكية، وريثتهما الطبيعية، نفس السياسة ولعبت على الاختلافات السنية الشيعية في العالم الإسلامي والتي انعكست بوضوح في تعاطيها مع الملفين السوري والعراقي. ففي العراق ساندت الشيعة مما جعل السنة يشعرون بالتهميش والاستياء والغضب والشك والحذر، وفي سوريا ولبنان ساندت السنة ضد الشيعة والعلويين مما زاد من صعوبة وتعقيد المشهدين السياسي والميداني، في دمشق وبيروت.

محدودية الاستراتيجية الطائفية السنية والشيعية لدى كل من طهران والرياض:

يعتمد السيناريو الميكيافيلي لدى الطرفين على العلاقات الخاصة العابرة للحدود التي تربط بين الشيعة وإيران والسنة والعربية السعودية في العالم الإسلامي. وخاصة العلاقات بين رجال الدين والمؤسسات الدينية الشيعية في ما بينها والسنية فيما بينها ،فلم تكن العلاقات بين رجال الدين داخل الطائفة الواحدة على مايرام دائماً ،فلقد حاول آية الله العظمى بلا جدوى تحشيد زملائه ونظرائه في المراتبية الدينية لتصدير مبادىء ثورته

الإسلامية بعد سنة 1979 لكنه لم ينجح كلياً. فكان هناك دائماً تنافس بين مراكز الفقه الشيعي وحوزاته الدينية في قم في إيران والنجف في العراق مما يعكس حقيقة تعقيد وإشكالية العلاقات بين الجارين الشيعيين. فطهران لاتنظر لبروز سلطة شيعية في العراق من منظار المحور الاستراتيجي الذي سمي بالهلال الشيعي فقط. ففي مرحلة الاضطهاد والقمع الصدامي ضد شيعة العراق وأفول نجم النجف كمركز إشعاع شيعي في العالم الإسلامي، كانت المستفيدة من ذلك قم، وبدرجة اقل، مشهد في إيران حيث غدت قم العاصمة المعترف بها والمؤثرة لشيعة العالم. في حين عادت كل من النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء اليوم لتستعيد هيبتها ومكانتها كمراكز جذب شيعية نظراً لقداستها وضمها لمراقد أئمة الشيعة العظام علي والحسين وموسى الكاظم ومحمد الجواد والحسن العسكري، وباعتبارها، أساسية على الصعيد الفقهي والعقائدي، أما شيعة العراق فيتعاطون اليوم على أساس وطني وفق آلية ومنهجية حددها المرجع الأعلى الشيعي المقيم في النجف آية الله علي السيستاني. وحسب الباحث الفرنسي المتخصص بالإسلام أوليفييه روا Olivier Roy في مقابلة لصحيفة البدائل الدولية، قال: إن طهران لا تقود الشيعة في الشرق الأوسط، وأضاف الباحث الفرنسي قائلاً: إذا كانت إيران حاولت في سنوات الثمانينات استخدام الحركات السياسية الشيعية في المنطقة لأغراض ثورية، إلا أن هذه الاستراتيجية أخفقت، وفي سنوات التسعينات سعت طهران لتحسين علاقاتها مع أمراء الخليج متخلية عن الحركيين والناشطين الشيعة تحت رحمة القمع المسلط

عليهم من قبل تلك الأنظمة لذلك عملت بعض تلك الحركات والمنظمات الشيعية الحركية النشطة لتأكيد استقلالها عن طهران وفتح قنوات للحوار مع الأنظمة الخليجية القائمة. وبالتالي فقدت إيران قيادتها الدينية والسياسية التي كانت تسعى إليها وتتمناها. وتعترض أغلب القيادات والزعامات الدينية والسياسية الشيعية في المنطقة على سلطة ولاية الفقيه التي منحها لنفسه المرشد الحالي للجمهورية الإسلامية علي خامنئي والتي حاول فرضها على كامل العالم الشيعي منذ أن أعلن نفسه مرجعاً للتقليد في ديسمبر 1994 كخليفة للمرجع الشيعي الإيراني آية الله العظمى علي الآراكي الذي توفي عن عمر 102 عاماً، بدون أن يمتلك المؤهلات اللازمة لذلك. انفجرت نقاشات فقهية واسعة في أعقاب تصدي خامنئي للمرجعية وولاية الفقيه وبشأن طبيعة الدولة الإسلامية. وأعلن عدد من كبار رجال الدين الشعة وآيات الله العظام والمراجع المجتهدين معارضتهم علناً لمبدأ ولاية الفقيهالتي أرسى أسسها الراحل الإمام الخميني في إيران. فعلماء مراجع كبار من أمثال علي السيستاني، وحسين الصدر عم مقتدى الصدر واسحق الفياض وغيرهم أعربوا عن عدم اعترافهم بولاية علي خامنئي ومرجعيته. فنحن نشهد ظهور قطب شيعي عراقي مستقل عن إيران، ويرنو الى انتماء وطني عراقي قبل كل شيئ مع بعض الاستثناءات مثل ولاء آل الحكيم والمجلس الأعلى لإيران ولكن بحدود فهم يرفضون التبعية التامة والإملاءات الإيرانية ونفس الشيء ينطبق على مقتدى الصدر زعيم التيار الصدري رغم قربه من الآيديولوجية الخمينية لكنه لا ينفذ على نحو أعمى أوامر طهران، والذي

يجمعهم هو معاداة أمريكا . ورغم كون المرجع الديني الأعلى في العراق آية الله العظمى علي السيستاني إيراني الجنسية من محافظة سيستان ـ بالوشستان إلا أنه وقف دائماً بالضد من مبدأ ولاية الفقيه الخمينية مواصلاً بذلك وفائه لموقف أستاذه المرجع الأعلى الإيراني الأصل السابق أبو القاسم الخوئي.

يمكننا القول أن النجف وكربلاء ومعهما مدن شيعية مقدسة أخرى كالكاظمية وسامراء، استعادت مواقعها ومكانتها كمراكز للفكر الشيعي المستقل، فكثير من رجال الدين الشيعة في العراق لايتفقون من الناحية الفقهية على أطروحة ولاية الفقيه لأنها ليست من التقاليد الفقهية الشيعية الأصيلة ما من شأنه إضعاف المركز الشيعي الإيراني في قم الذي فرض نفسه بفضل ثقل مرجعية الخميني وثورته الإسلامية وضعف المراكز الشيعية العراقية جراء سياسة القمع والاضطهاد التي مارسها صدام حسين ضدها .

عندما تفاقمت الأزمة في العراق وما رافقها من استقطاب وتشنج طائفي في أعوام، وكان العراق على أعتاب حرب أهلية طائفية دامية، من 2004 الى 2007، اقتنعت الولايات المتحدة، بضرورة فتح حوار غير مباشر مع الإيرانيين للتنسيق ومحاولة تفادي وقوع الكارثة الطائفية، خاصة عندما أعلن الناطق الرسمي باسم الحكومة العراقية الأسبق علي الدباغ في 16 آذار 2006 أن الإيرانيين تغلغلوا في جميع مرافق جهاز الدولة العراقية الجديدة وفي كل مكان من بنية السلطة، خاصة في وزارة الداخلية. وقد اشاعت القوى السياسية السنية العراقية أن مرتبات مقاتلي منظمة بدر التي يقودها هادي العامري وزير النقل السابق تدفع مباشرة من طهران، وأمام هذا

الواقع اقترحت واشنطن على طهران فتح مباحثات بشأن مستقبل العراق. وكان الراحل عبد العزيز الحكيم الزعيم السابق للمجلس الأعلى الإسلامي العراقي قد اقترح على مجلس الخبراء وعلى القيادة الإيرانية قبل وفاته فتح حوار بناء مع واشنطن لدراسة النقاط المشتركة المتعلقة بالعراق وإيجاد أرضية للتنسيق بينهما بهذا الصدد. ولقد سبق لسفير الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق في العراق زلماي خليل زاده، الذي يتكلم بطلاقة العربية والفارسية، أنه يؤيد مثل هذا الحوار وأبلغ الإيرانيين استعداد الولايات المتحدة لذلك ومناقشة الشؤون العراقية معاً وحصوله على رد إيجابي من جانب الإيرانيين، على أن يتم ذلك بعد تشكيل الحكومة العراقية الجديدة في ذلك الوقت، لأنه الأمريكيين لا يريدون إعطاء انطبع بأنهم يتدخلون على نحو مباشر وسافر في تشكيل الحكومة العراقية لأنها من شأن العراقيين وحدهم.ولن ما أن تشكلت حكومة توافق عراقية بزعامة نوري المالكي أعلن الرئيس الإيراني السابق أحمدي نجاد في مؤتمر صحافي، أنه لم تعد هناك ضرورة للتباحث مع واشنطن بعد تشكيل حكومة عراقية مستقرة ومستقلة. علماً بأن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن مستعد للتباحث علناً ومباشرة مع غيران بدون مقابل أو شروط مسبقة، كما أعلن زلماي خليل زاده في مقابلة مع صحسفة لوموند الفرنسية بتاريخ 16 مارس آذار 2006 ردا على تصريحات الرئيس الإيراني. وقال: «لقد وافقنا على فتح حوار مع الإيرانيين بناءً على طلبات من قبل عدد من القادة العراقيين وكنا مستعدين للمناقشة مع كافة جيران العراق بما فيهم إيران، ولكن لنكن واضحيح لم يكن المقصود التفاوض معهم حول مستقبل العراق.

فنحن مهتمون بالسياسة المتبعة والدور الذي ينوون لعبه في العراق. ولقد كنا مستعدين لمناقشة أي موضوع بهذا الصدد، وهو ليس بالأمر الجديد بالنسبة لي». حيث سبق أن تباحث مع الإيرانيين قبل غزو الولايات المتحدة للعراق في 2003، خاصة وإنه أفغاني الصل ويتقن الفارسية. ولقد أعلن زلماي خليل زاده أنه: «رغم التوترات والاستقطابات الطائفية الخطيرة في العراق إلا أننا لم نصل بعد الى النقطة الحرجة وهي حتمية وقوع الحرب الطائفية الأهلية، بالرغم من خطورة الأوضاع الأمنية في العراق، لقد دخلنا الى العراق وأطحنا بنظام صدام حسين ونحن مسؤولون عنه وعن كل ما يحدث فيه ولا أخشى الاعتراف بذلك». وكان السفير الأمريكي زالماي زاده قد اعلن كذلك في ذلك الوقت أن العراقيين يسقطون ضحايا الإرهاب بقدر ما هم ايضاً ضحايا الميليشيات ولابد من السيطؤة على الميليشيات في نفس الوقت الذي يجب فيه دحر الإرهابيين وهي نفس المعادلة القائمة اليوم ونحن في مطلع العام 2015.

فمازالت إيران تحتل موقع الصدارة في المسألة العراقية والشرق أوسطية والإقليمية نظراً لعلاقات مع أقطاب العملية السياسية من الشيعة والسنة على السواء، ومع الأكراد ايضاً، وعلاقاتها المتميزة مع النظام السوري ومع حزب الله ومنظمة حماس الفلسطينية والحوثيين وملفها النووي وتطورها في مجال صناعة الأسلحة والصواريخ البعيدة المدى وموقعها النفطي في خارطة الدول المنتجة للبترول.

الفصل الثالث عشر

السلطات الدينية في التشيع الإمامي المعاصر

Les Autorités religieuses dans le chiisme duodécimain contemporain

بقلم: صابرينا ميرفان[*]

في سنة 1890، ومن أجل مليء خزينة الدولة الإيرانية، منح الحاكم ناصر الدين شاه للبارون رويتر المواطن البريطاني، حق احتكار وبيع وتصدير التبغ بضمانات لمدة خمسين عاماً. وبدا ذلك في نظر الإيرانيين وكأنه بيع لثروات البلاد للأجانب بأبخس الثمان. تنامى الغضب، سواء في أوساط رجال الدين أو تجار البازار وكذلك في أوساط الناس. رفض الشاه الخضوع لتعاليم ومطالب العلماء أو الانصياع أمام التظاهرات الشعبية. أما المصلح الديني النشط الشيخ جمال الدين الأسدآبادي الأفغاني، الذي نفاه الحاكم المصري، فقد التمس سماحة المرجع الأعلى الشيعي المقيم في سامراء في العراق محمد حسن الشيرازي للتدخل، وفي ديسمبر 1891، أصدر هذا الأخير فتوى حرم فيها استهلاك التبغ، ولقد

---

[*] باحثة في المركز القومي للبحوث العلمية والمدرسة العليا للدراسات التطبيقية للعلوم الاجتماعية Sabrina Mervin (CNRS, EHESS, UP, UAPV).

انصاع الجميع لفتوى المرجع وقاطعوا التبغ في كل مكان حتى في بلاط الشاه نفسه، مما حدا بهذا الأخير للإذعان والتراجع وإلغاء الصفقة الشهيرة. إذا كانت الواقعة تشكل حدثاً تاريخياً، كما يعاملها المؤرخون في إيران، فإن العلماء الشيعة يذكرونها مراراً باعتبارها حدثاً نموذجياً، أو رواية نموذجية، ويستخدمونها، ليس فقط لتشييد الاعتقاد بفعالية المقاطعة، أي التضامن الوطني في مواجهة الشركات الأجنبية فحسب، بل وكذلك حول دور علماء الشيعة في المجتمع وعلاقتهم بالسلطة وامتداد أو مدى سلطتهم. وهكذا على سبيل المثال يرويها رجل الدين اللبناني محسن الأمين لأصدقائه القوميين في دمش، لتشجيعهم على مقاطعة إدارة الكهرباء التي تسيطر عليها الشركات الفرنسية في سوريا في سنوات الانتداب في ثلاثينات القرن الماضي: «الشاه نفسه لم يعد يستطع تدخين النارجيله لأن نساء البلاد أخفين النرجيلة والتبغ تنفيذاً لفتوى الشيرازي» وهذا ما يثبت فعالية التضامن الوطني. أما بخصوص سلطة رجال الدين فأكدتها التفاصيل التالية التي تكمل رواية مقاطعة التبغ ومازالت تروى في أيامنا هذه في أوساط رجال الدين الشيعة كتابة وشفاهاً: «أراد مدير الشركة البريطانية أن يستعلم عن قوة من عرقل مشروعه بغية محاربته بصورة أكثر فعالية فسأل: كم من الرجال يملك هذا؟ وكان الجواب إن رجل الدين لا يملك جيشاً، ثم سأل ما هو حجم ثورته؟ فقيل له أن رجل الدين لا يملك ثروة ويعيش على نحو بسيط ومتواضع، فعقب عندها المدير البريطاني: في هذه الحالة لا يمكن أن نفعل شيئاً ضد هذا الرجل». ويردد الشيعة هذه القصة بفخر فكل

سلطة علمائهم تكمن بكلمة، يمكنهم أن يتصدوا للسلطة القائمة ويتحدوها في حين أن لا يمكن للسلطة أن تحكمهم لأنهم لا يملكون طموحات اجتماعية ومدنية حقيقية. كمثال الخميني الذي تحدى الشاه. فمعه وصلت سلطة رجال الدين الى مبتغاها مع التبعات التي نعرفها أي إقامة الجمهورية الإسلامية في إيران.

من المؤكد القول أن شخصية رجل الدين المعارض المتحدي للسلطة ليست حكراً على الشيعة، فتاريخ الإسلام السني يزودنا بالعديد من الأمثلة على ذلك مثل إبن تيمية المتوفي سنة 1328 وعبد السلام ياسين وغيرهم. الأول هاحم المنغول الغزاة الذي اغتصبوا السلطة والذي اعتبر دخولهم للإسلام شكلي ومصطنع، كما انتقد وهاجم التصوف والمتصوفين الذي ينجرون في مجتمعاتهم لممارسات طقوسية لا تتوافق مع الإسلام الرصين والمتشدد الذي يدعو له إبن تيمية. والثاني هو شيخ مغربي معاصر تجرأ في معارضته للملك الحسن الثاني موجهاً له نصيحة وهو بذلك يضع نفسه في سياق التقليد الإسلامي الذي يتيح للفقيه ورجل الدين والعالم أن يقدم النصح وفق مبدأ العمل بالمعروف والنهي عن المنكر الذي على الحاكم أن يتبعه ويتقيد به، وايضاً في سياق التقليد المحلي لرجال الدين المعارضين للسلطة السياسية الجائرة والمعروفين لدى جمهورهم. ولقد تدعمت سلطته باعتباره معارض سياسي في أعقاب هذا التحديلأنه حكم عليه بالإقامة الجبرية. ومع ذلك من الشائع القول أن علماء السنة عموماً، وعلى مر التاريخ، يميلون إلى إضفاء الشرعية على السلطات القائمة، في حين يتبنى علماء الشيعة موقف المتحفظ أو المعارض حيال

السلطات القائمة. وفيما يتعدى التشابه البديهي لدى علماء الطائفتين، من الواجب الإشارة إلى أن علماء الشيعة يتحلون بخصائص مميزة سواء من ناحية أساس سلطتهم أو في أنماط ممارستها. وللتبسيط يجدر القول أن سلطة علماء السنة، منذ فرض المركزية من قبل الإمبراطورية العثمانية، تتحدد بتطبيق التنظيمات والإشراف على المجال الديني، وإثر نشوء نمط الدول الحديثة فإن هذه السلطة لرجال الدين بدأت بالتقلص والإنحسار، في حين يحدث العكس مع رجال الدين الشيعةالذين حصلوا على سلطاتهم الدينية ورسخوها عبر قرون وبالأخص منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. من هنا يمكننا أن نقيم أهمية فتوى لشيرازي في سياق الحركة ككل.

تقول العقيدة الشيعية إن الأئمة الإثني عشر المعصومين، وهم أحياء، يكونون أصحاب أي شكل من أشكال السلطة، أي يملكون السلطة التامة. وفي الواقع يفسر علماء الشيعة وأئمتهم الآيات القرآنية على نحو مختلف عما يقوم به علماء السنة خاصة الآية 59 من السورة الرابعة IV, 59: «يا أيها المؤمنون أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم». فالسنة يعتبرون أن أولي الأمر يمكن أن يكونوا الخلفاء أو الملوك أو الرؤوساء،في حين يعتبر الشيعة أن هذه الجملة تخص الأئمة حصراً. وعلى غرار النبي، الذي نقلوا رسالته، فهم في نظر أتباعهم المرشدين والقادة للأمة الإسلامية وحملة السطتين الروحية والزمنية أو الدينية والدنيوية. لذلك فإن كافة الخلفاء والملوك الذين أعقبوا النبي ـ عدا علي بن أب طالب ـ اعتبروا غير شرعيين وظلام ومضطهدين للقادة الشرعيين. والإمامة في

العقيدة الشيعية هي أحد الأصول في الإسلام ومكملة للنبوة. ومثل النبي وإبنته فاطمة، وخليفته الشرعي علي، فإن كافة الأئمة المنحدرين من صلب فاطمة وعلي معصومين، ولن يرتكبوا أي خطأ أو فاحشة، ووفق الأحاديث الشيعية القديمة من حق الأئمة فقط الانحراف عن ضوابط ومعايير وقواعد القانون المقدس. والحال إن الإمام الثاني عشر اختفى في غيبة سنة 874. فهو حي لكنه مختفي عن الأنظار، استمر في المرحلة الأولى المسماة بالغيبة الصغرى، بالتواصل مع الأمة والمؤمنين المخلصين من أتباعه من خلال وسطاء أو سفراء أربعة، ومن ثم، ابتداءاً من عام 941، توقف عن الاتصال المباشر بعد وفاة رابع سفير له ودخل في مرحلة الغيبة الكبرى المستمرة إلى يومنا هذا. ويعتقد الشيعة أن الإمام المنتظر أو القائم صاحب الزمان سيظهر في آخر الزمان ليقيم حكومة العدل قبل يوم القيامة. وهكذا وجد الشيعة أنفسهم منذ العام 941 بدون زعيم وقائد ومرشد سواء للأمور الروحية والدينية أو للشؤون الزمنية أو الدنيوية. يقول حديث شيعي «إن كل راية ترفع قبل ظهور القائم ستكون حتماً لطاغوت» وكل سلطة سياسية غير سلطة الإمام، هي ظالمة أو باغية وغير شرعية. والحال، ومع مرور الزمن، بات من الصعب أكثر فأكثر على الطائفة الشيعية خلوها من سلطة تمثلها أو مرجع يرجعون إليه وبقيت أسئلة مركزية مهمة بلا أجوبة من قبيل لمن تدفع الحقوق الشرعية أو الدينية؟ من يقود صلاة الجمعة أو يعلن الجهاد؟ من يملك سلطة الفصل في النزاعات ويحكم وينفذ الحدود والأحكام بغياب الإمام؟ وبالتدريج بدأ العلماء الشيعة بإعداد وصياغة منهج عقائدي بغية منح أنفسهم

صلاحيات وسلطات الإمام الغائب والتصرف باسمه باعتبار العالم الفقيه هو نائب الإمام. ومن ثم وضعوا سيروة او منهجية عقلنة أو أدلجة العقائدة الشيعية وعلى مراحل متعاقبة، من خلال إدخال مفاهيم أساسية اعتبرت بمثابة مفاتيح لفهم العقيدة. إنةهذه السيرورة الفقهية الطويلة هي التي سمحت للإمام الخميني بوضع نظريته في ولاية الفقيه التي بنيت عليها الدولة الإسلامية في إيران. وكان فتح باب الاجتهاد هو الجانب الأساسي لهذه السيرورة. فممارسة الاجتهاد تعني استخلاص واستنباط المفاهيم والأحكام في الشريعة الإسلامية من المصادر الأربعة المعترف بها لهذه الشريعة وهي النصوص المقدسة وتتضمن القرآن والسنة النبوية، من جهة، ومن جهة أخرى، سلسلة من الطرق والمناهج والتقنيات التي تمحورت حو مفهوم الإجماع والقياس عند السنة، والعقل عند الشيعة. والقصد هو صياغة القواعد والمعايير والضوابط للشريعة وتطبيقها. فممارسة الاجتهاد يتيح إمكانة الإجابة على التساءلات والاستفسارات الدينية والفقهية الجديدة والمستجدة والحالات الجديدة وإدخال التعديلات والتغييرات اللازمة في المعايير والقواعد التشريعية المتبعة مع الرجوع دوماً للنصوص والاجتهاد هو النقيض للتقليد بمفهومه السني الذي يعني التقيد حرفياً بالنصوص والمعايير التي وضعها القدماء قبل غلق باب الاجتهاد عن السنة، أما التقليد عند الشيعة فمعناه أن يقلد الفرد الشيعي أحد المراجع الكبار في كافة شؤونه الدينية والدنيوية ومعاملاته والحقوق الشرعية التي يدفعها الخ حسب تعليمات مرجع التقليد المجتهد.

في حركة الانفتاح هذه يكمن الاختلاف الجوهري أو

الأساسي بين تاريخ العقائد الشيعية والسنية. فحتى لو تعدلت هذه النظرية وصفيت أو نقيت اليوم، إلا أن المؤرخين يتفقون بأن التشريع الإسلامي السني متجمد نظرياً منذ تثبيت المدارس الفقهية السنية الأربعة، المالكية، والحنفية، والحنبلية، والشافعية، في القرن الحادي عشر. ومنذ ذلك التاريخ صار لدى الفقهاء السنة نزوع نحو الامتثالية او التقيد بالاعراف المقررة فيما عدا استثناءات معروفة لعلماء كبار في الإسلام السني من أمثال الغزالي المتوفى في 1111 ميلادية وابن تيمية المتوفى في 1328 أو السيوطي المتوفى سنة 1505. واستمرت هذه الحالة لغاية القرن الثامن عشر الميلادي عندما بدأ بعض العلماء السنة ممارسة الاجتهاد بحدود .وتعاضمت الحركة في أواخر القرن التاسع عشر عندما طالب الإصلاحيون والمحدثون إعادة فتح باب الاجتهاد بغية وضع الإسلام في توائم مع روح العصر الحديث. ويعتبر الاصطدام مع ثقافة الغازي الأوروبي هو الذي حث بعض العلماء الإصلاحيين للقيام بعملية تأمل وإعادة تفكير في هذه المسألة. سلكت العقيدة الشيعية مسلكاً معاكساً. ففي وقت أغلق فيه باب الاجتهاد عند السنة، قام الشيعة بفتحه على مصراعيه وكسب المزيد من السلطات للعلماء. أعطى العلامة الطوسي المتوفى سنة 1067 أول دفعة لهذا النهج وتبعه علامة الحلة إبن إدريس المتوفى سنة 1201 والمحقق الحلي المتوفى سنة 1277 والعلامة الحلي المتوفى سنة 1325 وغيرهم من علماء الشيعة في جبل عامل في لبنان من أمثال زين الدين العاملي المعروف باسم الشهيد الثاني المتوفى سنة 1557 وابنه حسن العاملي المتوفى سنة 1602. وفي نفس الفترة عين الحاكم

الإيراني شاه طهسمب الفقيه المحقق الكركي المتوفي سنة 1534 كممثل رسمي للإمام الغائب الحجة المنتظر ولقد سمي هذا التيار الشيعي الإمامي الإثنين عشري بالتيار الأصولي الذي تعزز كيانه في القرن الثالث عشر وأصبح هو التيار الغالب، وبذلك تشذبت العقيدة الشيعية وصقلت وأنضجت، على يد الأصوليين بالضد من الإخباريين المتقيدين بالنصوص.

تأسيس المرجعية كدعامة للسلطة الدينية للفقيه:

ثم خطت المؤسسة الدينية الوليدة أي المرجعية خطو أخرى من خلال تنظيم ومنهجة التقليد أو العودة للعالم المؤهل لممارسة الاجتهاد، في مجال المباديء والمفاهيم والمسائل الدينية. وكان أول من فرض مبدأ التقليد هو العالم المجتهد مرتضة الأنصاري المتوفي سنة 1864، الذي أسس وظيفة المرجع الديني أو مصدر التقليد لكافة المؤمنين الشيعة. ووفق هذه النظرية، يتوجب على كل مؤمن أن يتقيد بآراء وفتاوي وتعليمات مرجع التقليد الذي يختاره في كل ما يتعلق بالمسائل المتعلقة بالشريعة الإسلامية. ومن هنا نشأ معنى جديد لمصطلح أو مفهوم التقليد الذي صار يعني عند الشيعة اتباع فتاوي وآراء وتعاليم المرجع الديني المجتهد، الحي وليس التقيد، كما هو الحال عند أهل السنة، بتعاليم وفتاوي ونصوص وكتابات رجال الدين المتوفين في إحدى المدارس الفقهية الأربعة المشار إليها أعلاه. ومنثم توسعت التعاليم لتشمل كافة مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية. واستطاع العلماء الشيعة الاستحواذ على بعض وظائف الإمام الغائب مثل إعلان الجهاد وهذا ما فعله المرجع جعفر كاشف

الغطاء المتوفى سنة 1812 عندما سمح لفاتح علي شاه بخوض الجهاد ضد الروس. واذا كان هذا العالم قد كفل وضمن الأمير الحاكم، إلا أن علماء آخرين توقفوا عن التعاطي والتنسيق مع السلطة لاقائمة حتى لو قادهم ذلك الى معارضتها، والفتوى التي أصدرها المرجع محمد حسن الشيرازي في قضية التنباك كانت أول مرحلة في هذا الاتجاه. وبعد ذلك انخرط عدد من العلماء المجتهدين والمراجع الشيعة في القضايا السياسية كمشاركتهم في الحركة الدستورية 1906-1911، التي هدفت الى الحد أو التقليل من سلطات الشاه. وبعد كتابات الأنصاري، أوضح علماء آخرون أصول العقيدة الشيعية فيما يخص بأنماط وآليات ممارسة لاتقليد ومعايير وشروط اختيار المرجع ووضعوا أساسات عمل المؤسسة المرجعية. وفيما بعد ظهرت كتابات حاولت أن تثبت أن هذه الممارسات تعود الى بدايات التشيع وذكرت قائمة من أسماء المراجع ابتداءاً من أقدمهم. حتى لو تبنى بعض الباحثين هذه الفكرة إلا أنها كانت تقليداً مبتكراً.وحسب مبدأ التقليد يتعين على كل مقلد أن يتبع تعاليم وفتاوي وآراء المرجع الذي يقلده والتي سطرها في رسالته العملية.ولو اختار المقلد مرجعاً فإنه يطبقها طوعاً لأنها ليست قسرية مفروضة عليه بل يقوم باختيارها بكل حرية. إن إرساء الانتماءات الإثنية والعائلية والعشائرية والمناطقية يشكل عوامل مؤثرة بالطبع لكنها ليست بالضرورة حاسمة. إلى جانب أن أتباع مرجع ما يتبعون تعاليم وفتاوي مرجع آخر في بعض المسائلفعلى سبيل المثال، في سنوات الثمانينات كان عدد كبير يقلدون أبو القاسم الخوئي الذي توفي سنة 1992، في المسائل

الدينية التقليدية لكنهم يقلدون الخميني المتوفي سنة 1989 في المسائل السياسية. فالخوئي كان صارماً ومتشدداً في مادة الحجاب، لأنه يأمر النساء بإخفاء وجوههن ويترك لهن خيار اتباع مرجع آخر حول هذه النقطة، لذلك يتبع البعض الخميني بهذا الصدد. وأخيراً على المؤمن أن يدفع الضرائب الدينية للمرجع الذي يتبعه أو يقلده، فيدفع له الزكاة،وهي ضريبة يتفق حولها عدد كبير من الفرق الإسلامية، وكذلك الخمس الخاص بالمذهب الشيعي ويقدر بخمس ما يتبقى للمؤمن بعدما ينفق ما يحتاجه في حياته.وبتأسيس نظام التقليد أقيمت صلة مباشرة بين المؤمن ومرجعه من الصف الأول من رجال الدين الذي يرجع إليه ليطبق تعاليم الشريعة ويضمن الخلاص لنفسه من الناحية الدينية والإيمانية. وهذا هو السبب الذي يجعلنا نتحدث عن هيئة رجال الدين فيما يتعلق بالسلطات الدينية الشيعية، والمنظمة على نحومراتبي، لكنها تختلف عن المراتبية المسيحية التي يقارنونهم بها في بعض الأحيان، ولا صلة له بالنظام السني الذي وضعه العثمانيون الذي استلهمته الدول الإسلامية الحديثة. لاتوجد آلية محددة لتقرير من هو المرجع، فهو ليس منتخباً ولا معيناً، بل يقال إنه برز، لأنع العملية تجري على ثلاث مستويات، المستوى الأول هو حلقات رجال الدين من الصف العالي، وأوساط التجار والممولين المؤثرين، وأخيراً مستوى المؤمنين الذي يكرسون المرجع بتقليدهم له أو العكس. يضاف الى ذلك تأثير الدولة الذي سنعود له لاحقاً. يجب أولاً الاعتراف بالمرجع كونه الأعلم في زمنه ويملك شهرة في مجال تعليم وتدريس العلوم الدينية وهذا هو أول اعتبار ومعيار

للاختيار. ومن ثم، يجب أن يثبت ورعه وتقواه وزهده وكذلك نزاهته واستقامته الأخلاقية وصدقه وأمانته في أن يكون صالحاً لتسلم الضرائب واستخدامها لتأمين احتياجات المحتاجين وطلاب العلوم الدينية. هذه هي الصفات التي يجب أن يتحلى بها من يتصدى للمرجعية ويحتل هذا الموقع الى جانب المعايير والضوابط الأولية الأساسية وهي أن يكون رجلاً معروف الأصل والعائلة وبالغاً ويتمتع بذكاء.

يصعب تقدير وتقويم الشرط الأول وهو شرط الأعلمية في العلوم الدينية، لذلك وضعت بعض المعايير الموضوعية نوعاً ما للبت فيه. أولاً يجب أن يكونوا من بين علماء الصف الأول المؤهلين أساساً لممارسة الاجتهاد أي يمتلكون إجازات الاجتهاد من اساتذتهم المراجع الكبار، ومن بين حلقات العلماء المجتهدين، يجب أن يكون المتصدي للمرجعية معروفاً بأنه أحد المتفوقين ومن ينطبق عليهم صفة الأفضل، الأمر الذي لايمكن أن ينطبق على رجل دين شاب أو يافع أو مبتديء بل يتطلب الأمر العمر الطويل والخبرة والتجربة والممارسة، وأخيراً فإن شهرة المرشح للمنصب تقاس بعدد الطلاب الذين يتبعون دروسه وطريقة تلقيهم لتعاليمه فلو جهدوا في تدوين دروس أستاذهم ونشرها فإن من شأن ذلك أن يمنحه المزيد من الثقل والمكانة. لذلك، في داخل الحوزة وحلقات نظرائه من المجتهدين يبدأ بالتميز عن أقرانه ويبرز من بينهم ولو استجاب لطلبات وتحريضات المحيطين به لكتابة رسالة عملية في الفقه والتشريعات والفتاوي يمكن أن تكون مرشداً للمؤمنين، عندها يمكنه أن يعلن كمرشح يتصدى للمرجعية، ومن ثم يسعى أشخاص

مؤثرون، رجال دين، ووجهاء مجتمع وممولين، للتدخل لتسويقه وفي نهاية السلسلة يقرر المؤمنون والمقلدون الرجوع إليه أو لا مما يعني تكريس أو عدم تكريس مرجعيته فالبيعة الجماهيرية او التبعية والإخلاص الشعبي لشخص المرجع هي المرحلة الأخيرة وبهذه الطريقة يبرز المرجع وقد يظهر عدة مراجع متساوون في المستوى في نفس الوقت ولكن مع الوقت سوف ينبث من بينهم من هو المرجع الأعلى الذي ليس هو بالضرورة الأهم والأعلم بل الأشهر والأكثر تأثيراً.

هناك صلات وثيقة تربط المرجع بطلاب العلوم الدينية في الحوزة العلمية، وهذا التعبير كان يخص الحلقة المحيطة بالمعلم من مجموعة من الأتباع والتلاميذ قبل أن يتوسع المفهوم ليشمل المدرسة الدينية ومن ثم لنظام التعليم الذي تمليه وصار يعرف بالحوزة العلمية. أقدم حوزة علمية أسسها الشيخ الطوسي المتوفي سنة 1067 في النجفإحدى أهم المدن الشيعية المقدسةإلى جانب عتبات مقدسة أخرى في العراق مثل كربلاء والكاظمية وسامراء وهي مدن تحتضن قبور أئمة معصومين عند الشيعة ومراكز للزيارة وهي الى جانب كونها مدن مقدسة، فهي بؤر للمعرفة وبالأخص النجف.التي كان المقر التاريخي للمرجعية الشيعية منذ تأسيسها. وإذا كانت مدن أخرى قد شهدت ظهور هذا المرجع أو ذاك، إلا أن النجف هي التي أخرجت العدد الأكبر من المراجع وهي في تنافس مستمر مع مدينة قم الإيرانية. التي كانت قديماً إحدى الملاذات للمعرفة العلمية الشيعية وأعيد تفعيلها منذ العام 1920. وغدت قم في وقت من الأوقات أكبر منافس لمدينة النجف خاصة

بفضل اندلاع الثورة الإيرانية التي أتاحت لقم لكي تتوسع وتتطور وتتحدث في القت الذي ضرب القمع والاضطهاد شيعة العراق مما ساهم في أفول مؤقت لمدينة النجف. ولكن بعد إطاحة صدام حسين يتوقع من النجف أن تولد من جديد وتستعيد مكانتها وتجدر الإشارة إلى أن المرجع الأكثر شهر وأتباعاً ومقلدين هو علي السيستاني الذي يتخذ النجف مقاماً لإقامته ومقراً لحوزته ومرجعيته رغم جنسيته الإيرانية.

استدعت مركزة المرجعية في النجف في أواسط القرن العشرين تنظيم مؤسسة المرجعية في زمن المرجع أبو الحسن الأصفهاني الذي منهج عملية اللجوء الى ممثلين للمرجعية مكلفين بتأمين الصلات والروابط مع الأتباع والمقلدين المقيمين في المدن والمناطق البعيدة. وفتح المرجع مكاتب تمثيلية له حيث يتواجد مقلدوه تقوم بنشر كتاباته ومؤلفاته وفتايه وتجمع الضرائب الدينية من خمس وزكاة. إن مثل هذه المركزة حققت بعض البيروقراطية للمؤسسة الدينية مع حركة تنحو نحو اللامركزية التي أدت إلى وجود التعددية في السلطة الدينية.

هذه الصيغة سمحت بظهور مرجع أعلى ولكن في التاريخ المنظور للمرجعية لم يحدث دائماً اتفاق أو اجماع حول شخص مرجع أعلى واحد وأحياناً كان هناك عدة مراجع متساوين في المرتبة يقومون بالواجب في آن واحد وهو واقع الحال اليوم، وبعد الكثير من السجالات والكتابات تبلور الميل نحو تعددية مرجعية ناجمة عن رغبة القائمين عليها كرد فعل على محاولات المركزة الإيرانية التي يناور بها علي خامنئي منذ أواسط التسعينات.

فأوساط رجال الدين الشيعة متمسكة باستقلالية المرجعية عن الدولة، المبنية على الطابع العابر للحدود والمواطنية للتشيع، وعلى تنظيم المؤسسة المرجعية. وبفضل الضرائب الدينية التي يستلمها المرجع يتم تمويل المدارس الدينية أو الحوزات الموجودة تحت سلكتهبتقديم مرتبات للمدرسين ومنح مساعدات مالية للطلاب ودفع مرتبات لممثلي المرجع في المدن والمناطق البعيدة، والقيام بتشييد مساجد وحسينيات ومستشفيات ومستوصفات وملاجيء أيتام ودور للعجزة وجمعيات أخرى ذات نفع عام للمجتمع. المبالغ المستلمة تعزز رأس ماله الرمزي أي هيبته وسلطته الدينية.الى جانب هذا النظام يتيح للمرجعية تأهيل رجال الدين وضمان احتياجات المراتبية الدينية المستقلة حتى في إيران رغم ضغوط الحكومة الإسلامية. وهذا يشكل اختلافاً كبيراً مع العالم السني حيث جهدت الدول باللجوء الى عدة استراتيجيات للسيطرة على تكوين طبقة رجال الدين وتعيينهم في وظائف دينية رمسية. لكن هذا لا يمنع نشوء سلطات دينية موازية تعلن نفسها بنفسها تحت جزءاً من الساحة الدينية لكنها لا تعود لأية مراتبية وتتمتع بوضع هش في أغلب الأحيان. بينما تسيطر أوساط رجال الدين الشيعة وتنظم المجال الديني من خلال سلطة المرجعية مما حث بعض الدول للقيام بمحاولات الهيمنة على المرجعية. وهكذا، قبل الثورة الإسلامية في إيران، كانت الحكومة الإيراني بطريقة ما، تحاول أن تؤثر على المرجعية، وعلى اختيار مرجع جديد. ومنذ وصوص البروجردي سنة 1945 للمرجعية، كان شاه إيران يوجه برقية تعزية للبروجردي عند وفاة كل مرجع والذي كان يرغب أن

يحل هذا الأير محله. لهذا كان الشيعة ينتظرون لمن توجه البرقية لمعرفة موقف واختيار العاهل الإيراني، وعد وفاة البروجردي أرسل الشاه برقية التعزية للمرجع العراقي السيح محسن الحكيم في إشارة لاختياره له كمرجع أعلى. إلا أن قيام الجمهورية الإسلامية غير الوضع على نحو راديكالي، على الأقل داخل إيران، لأن الخميني كان يقوم بمهمة الولي الفقيه والمرجع الديني الأعلى الذي يمارس السلطة السياسية والمرجعية أو السلطة الدينية. مع إنه لم يمارسهما بشكل مطلق لوجود مراجع آخرين بمستواه أو حتى أعلى منه فقهياً يتبعهم ويقلدهم مؤمنون كثيرون حتى في إيران نفسها كالخوئي ومنتظري. وفي آخر أيامه قبل وفاته بقليل شعر أن خلافته ستطرح مشاكل جدية فأعاد الخميني مراجعة نظريته في ولاية الفقيهلكي يكون هناك فصل بين السلطة الدينية والسلطة السياسية، وهو ماحدث بالضبط كأمر واقع في إيران اليوم. لذلك عين الخميني على راس الدولة عي خامنئي وهو رجل دين لايمكنه أن يدعي تصديه للمرجعية نظراً لمرتبته الدينية التي لم ترق الى مستوى مرجعية التقليد بعد ولعد امتلاكه المؤهلات اللازمة في مجال المعرفة الدينية والفقهية لأنه لم يكن حتى مجتهداً. لذلك كان هناك مراجع دين كبار أعلى منه يشرفون على الجمهورية الإسلامية. وفي سنة 1995 أعلن علي خامنئي اجتهاده وصلاحيته لتبوأ منصب المرجع وإزاء الاعتراضات التي أثارها هذا القرار أعلن الخامنئي أنه ليس مرشحاً للمرجعية في إيران بل في مناطق شيعية أخرى في العالم. والمفارقة هي أن الشيعة خارج إيران وجدوا أنفسهم أمام مرجعية تفرضها إيران عليهم في حين

يحتفظ المواطنون الإيرانيون بإمكانية الاختيار الحر للمرجع الذي يقلدونهورفض أغلب الشيعة الانصياع والاذعان لهذه السياسية المركزية التي تمارسها إيران في مجال المرجعية. ومن ثم تراجعت إيرانوقبلت بتطوير مرجعية متعددة الأشخاص والوجوه يمكن حصرها في الداخل لكنها خارج السيطرة في الخارج. ولنا في حالة محمد حسين فضل الله في لبنان مثال ساطع على ذلك، فهو لم ينحاز أو يخضع للمرجعية الإيراني أو الإدارة الإيرانية بل فرض نفسه كمرجع منافس ومستقل بالرغم من الضغوط التي تعرض لها لثنيه عن ذلك. حاول النظام العراقي كذلك السيطرة على المرجعية الشيعية وبما أن الخوئي كان خارجاً عن سيطرة النظام العراقي حاول تهيئة مرجع بديل للمرجعية التقليدية ووجد ذلك في شخص محمد محمد صادق الصدر المنحدر من آل الصدر وهي عائلة دينية مرموقة، لم يتقبل الشيعة العراقيين في الخارج ولا بقية الشيعة من غير العراقيينهذا التدخل في شؤون المرجعية من جانب النظام العراقي، لكن محمد الصدر كسب بالتدريج شعبية وقاعدة جماهيرية في النجف وفئة واسعة من المقلدين خاصة بعد ان ركز على مفهوم المرجعية الناطقة وهي مرجعيته مقابل المرجعية الصامتة وهي مرجعية النجف التقليدية أي الخوئي ومن أعقبه. وسعى لكي يقيم مسافة بينه وبين النظام البعثي الحاكم الذي شجع على بروزه في السابق. ومن ثم صار يعلن معارضته علنا للنظام وينتقده بشده مخاطراً بحياته في ذلك فوضع في الإقامة الجبرية ولم يتمكن النظام من منعه في إمامة صلاة الجمعة وإلقاء الخطب في الجماهير المتحمسة له فقام

باغتياله في شباط 1999. ومن بعده نشط أتباعه في النجف وصار لديهم امتدادات وممثلين في الخارج لا سيما في السيدة زينب في سوريا، حيث كان يقيم الكثير من اللاجئين المعارضين العراقيين االشيعة. وهكذا فشلت الدولتان في الهيمنة على شؤون المرجعية وتطويع المراتبية الدينية الشيعية فيهما. وكان وجود المرجعية يعني اكتساب الهيبة والمكانة الرفيعة داخل الطائوائف الشيعية برمتها ويجلب نشاأ اقتصادياً لا يستهان به. فاستقلالية المرجعية حيال الأنظمة الحاكمة يعزز الطابع المحلي للتشيع لأنها تضم تحت سقف السلطة الدينية للمرجعية شبكات من الأنصار والأتباع المتمركزين في مختلف البلدان وهذا لم يمنع إرساء وتثبيت الشيعة في مناطقهم الأصلية، ولا تمسكهم بهويتهم الوطنية. بل وأكثر من ذلك، فحركة اندماج الطوائف الشيعية في الدول التي يكونون مواطنين فيها بدت تتعزز، على مستوى تنظيم الشؤون الدينية للطائفة حيث كانت لبنان أول بلد يسمح للطائفة الشيعية أن تمثل رسمياً بالمجلس الأعلى الإسلامي للشيعة وإن رجل الدين الذي نجح في تأسيس ذلك سنة 1967 هو موسى الصدر وهو إيراني - عراقي من أصل لبناني، وكان خلق المجلس خطوة أخرى نحو الاعتراف بمراتبية شيعية داخلية تكفلت بحل القضايا الدينية الشيعية اللبنانية مع الاحتفاظ بعلاقات موازية مع المراتبية العابرة للدول الناجمة عن نظام المرجعية. فاستقلال المرجعية حيال الدولة يمس الحوزة وتكوين وأهيل رجال الدين. فالاصلاح في نظام التعليم الديني العالي الشيعي لايقارن مع ما يجري في اتلمؤسسات الدينية السنية الكبيرة مثل الأزهر التي تتحدث أو تتطور تحت

ضغط الدولة. ويحصل ذلك بصورة أبطأ إثر مبادرات فردية متفرقة للمجتهدين الكبار او للمرجع. فالأجيال الجديدقمن رجال الدين الشيعة المؤهلين لا تقدمهم الدولة بل المراتبية الدينية. مما يفسر جزئياً أن الحركات الإسلامية الشيعية خرجت من رحم المراتبية، على عكس ما يجري في الحركات الإسلامية السنية.

العلماء الشيعة بين النموذج الكلاسيكي والإصلاحي:

لنتذكر أن مؤسسي الحركات الإسلامية السياسية السنية من أمثال حسن البنا وسيد قطب، كانوا من صغار المثقفين وليس مفكرين كبار، وعلموا أنفسهم ببعض العلوم الدينية. وهذا الوصف ينطبق على عدد من خلفائهم في قيادة الحركات الإسلامية السنية بالرغم من التحقا بعض الشيوخ ورجال الدين الصغار بهم. ولكن لم يكن هذا هو واقع الحال مع قادة الحركات الشيعية. فلا توجد أية فرصة لأية سلطة دينية تعلن نفسها بنفسها هكذا خارج السياق المتفق والمتعارف عليه عن الشيعة أن تسمع صوتها بدون الاعتراف بها من جانب أوساط رجال الدين المعترف بهم كمراجع ومجتهدين. والحال إذا كانوا من الناحية النظرية منفتحين لأي جديد قادم إليهم ولكن بشرط أن يثبت قدراته ويجتاز الاختبارات في مجال العلوم الدينية وأن يتميز باستحقاقه لدرجة الاجتهاد وحصوله على الإجازة من أحد المراجع أو من أكثر من مرجع، ويلاحظ أن عدد أمثال هؤلاء قليل ممن يخرجون عن الصف. فكبار رجال الدين الشيعة من المراجع يشكلون أرستوقراطية دينية تجدد نفسها من خلال الحوزة.

وأغلبهم ينتمي لعائلات علمية معروفة خرجت عدداً من العلماء منذ عدة أجيال.وتستمد تلك العائلات شرعيتها من أصول مرموقة وذات هيبة ونفوذ كأن يكون الجد الأعلى عالم طبع تاريخ التشيع ببصماته، وأكثر من ذلك يدعي البعض أنه من سلالة النبي محمد حيث تؤيد السلطات الدينية في الحوزة شجرة العائلة وجذور نسبه من خلال علم الرجال، وهي عائلات السادة، حيث يحمل هؤلاء هذا العنوان الشريف ويعتمرون العمامة السوداء التي تدل على نسبهم النبوي أو العلوي. وإذا كنا قد لاحظنا في الأوساط السنية أن اتباع التعليم أزو الدراسة في مجال العلوم الدينية للتأهل لمنصب رجل الدين الرسمي إن هو إلا استراتيجية للرقي الاجتماعي لكنها عند الشيعة وسيلة لإنتاج النخبة الدينية.

تضمن هذه النخبة الدينية تماسكها وانسجامها من خلال التصاهر والتزوج بنساء من عائلات رفيعة النسب أو من عائلات العلماء فيما بينهم بحيث يمكن للبعض أن يبقى مرتبطاً بالوسط بسلسلة من الزيجات بين العائلاتعبر عدة أجيال. الى جانب ذلك تتعزز المصاهرات والقرابة من خلال العلاقات والارتباطات التي تبنى بين المعلم المرجع وتلميذه وبين الطلاب الذي يتابعون معاً دروس أستاذهملسنوات طويلة،وهو طريق صعب ووعر وعسير وغالبا ما تكون العوائل المتناسبة ببعضها من قوميات مختلفة. فعائلة الصدر على سبيل المثال اللبنانية الأصل فإن صلة الوصل تحمل اليوم إسم آل شرف الدين، ومرتبطة بفرع لها في العراق وآخر في إيران ويحمل نفس الإسم ـ آل الصدر ـ وإن زعماء وقادة

الحركات الدينية الإسلامية الشيعية الثورية جاءوا من هذه العوائل الكبيرة مثل المرجع الديني آية الله العظمى محمد باقر الصدر، زعيم الحركة الإسلامية العراقية الذي أعدمه نظام صدام حسين سنة 1980، يرتبط بقرابة مع إبن عمه اللبناني موسى الصدر الذي جاء من إيران واستقر في لبنان وكان مهندس الصحوة الشيعية اللبنانية قبل أن يختفي بطريقة غامضة أثناؤ رحلة له إلى ليبيا سنة 1978، أو الخميني قائد الثورة الإيرانية المتوفي سنة 1989. وكان بعض قادة الحركات الإسلامية الشيعية من كبار رجال الدين المجتهدين كمحمد باقر الصدر والخميني الذين كانوا مراجع تقليد ويمتلكون المؤهلات والبروفايل اللازم لتولي هذه المهمة، ويقدمون خطاباً تجديدياً في هذا المجال. فالأول دعا الى تجديد وإصلاح عمل المرجعية وتحويلها الى مؤسسة والثاني قدم إعادة تعريف وتحديد للمهام الملقاة على عاتق الولي الفقيه أما موسى الصدر فكان من أوائل من حصل على تعليم مزدوج جامعي في كلية الحقوق في جامعة طهران وتعليم ديني في الحوزة العلمية في مدارس قم والنجف. وهناك علماء إيرانيين آخرين ساهموا بنشاط في الثورة، مثل محمد بهشتي، الذي أغتيل في بدايات الثورة سنة 1981 يمتلكون مثل هذه المؤهلات القيادية.

النموذج الكلاسيكي الشيعي استمر ودام ومازال مستمراً، فالمرجع الخوئي المنافس الكبير لخميني، ينحدر من عائلة دينية، ويمارس وظائفه دون أن يهتم حقاً بالماسئل التي تحتل مركز السجال والنقاشات الدائرة في أوساط رجال الدين مثل علاقة هؤلاء بالسياسة، أو ضرورة تحديث الخطاب الديني والمؤسسات الدينية

الخ. علي السيستاني المرجع الأعلى الحالي مثل سلفه الراحل، لديه نفس الرؤية الكلاسيكية لوظيفته كمرجع أعلى. بل حتى يشاع عنه أنه لا يقرأ الصحفولا يركز على نحو عميق في الشؤون الدولية رغم كونه المرجع الأكثر تقليداً في العالم الشيعي اليوم. هناك مواقف مختلفة عن هذا كما هو حال المرجع اللبناني محمد حسين فضل الله رغم اصوله واساسيات تكوينه الفقهي الكلاسيكية الحوزوية لكنه شارك في الحركة الإسلامية السياسية منذ سنوات الستينات ويتبنى خطاباً إصلاحياً وتحديثياً. ويطالب بمراجعة ضرورية وإعادة النظر بالمزايا والخصائص والشروط والمؤهلات الضرورية للمرجع فبالنسبة له ينبغي أن يمتلك المرجع، إلى جانب ملكاته ومعارفه الدينية والفقهية، معرفة جيدة بالشؤون الدنيوية المعاصرة، وبالتالي يمكننا تمييز مفهومين متميزين ومتباينين لوظيفة المرجع. النموذج الكلاسيكي للمرجع المتوحد المراقب والبعيد عن السياسة والالتزام السياسي وتقليدي، بينما نموذج المرجع الجديد هو ذلك الذي يتعاطى مع الشأن السياسي ويستمع للتغيرات الاجتماعية وينخرط في إصلاح الأفكار والمؤسسات الدينية. فبروفايل الأجيال الجديدة من العلماء في حالة تغير تدريجي، فإذا كان رجال الدين الكبار اليوم، وبالأخص في العالم العربي، ينتمون لعوائل علمية، وتم إعدادهم و تأهيلهم في الحوزات، دخل الى الساحة علماء دين جدد في أعقاب تأثير إيران ما بعد الثورة. فلقد شجعت إيران عمليات تبسيط للمعرفة الدينية وفتح أبواب مدارسها مشرعة في قم ومشهد للإيرانيين والأجانب. وأدى ذلك إلى إزالة الحواجز الفاصلة في أوساط رجال الدين حيث ولج إليها طلاب علوم دينية ينحدرون من

عائلات غير علمية وغير متخصصة في الشؤون الدينية، إضافة الى تنامي التعليم والتحصيل العلمي المزدوج، الجامعي والديني الحوزوي، ولقد شجعت إيران هذه الظاهرة بإنشاء هيئة لتعادل الشهادات فهناك اليوم في إيران عدد لا بأس به من علماء الدين من يملكون شهادات جامعية ويحمل بعضهم شهادات دكتوراه، كما يوجد مثقفون قادمون من النظام الجامعي، يتلقون ويتابعون دروس دينية. إذن هناك رجال دين مثقفين ومثقفون دينيون.ولقد امتدت هذه الظاهرة إلى الأوساط الشيعية اللبنانية والعراقية. ففي الحوزة التي يشرف عليها محمد حسين فضل الله في بيروت، يتابع نصف طلابها دروس جامعية مدنية. ومدير الحوزة نفسه رجل دين حوزوي ولديه دكتوراه في الفلسفة الإسلامية.

فالتعليم والدروس المتبعة في المدارس الديني الشيعية طورت وأجريت عليها إصلاحات، منذ الانتقادات الأولى التي أبداها رجال الدين ضد انعدام التنظيم والضبط البيداغوجي أو التربوي في نهاية العشرينات. وتمكن علماء تدريجياً من إدخال علوم دنيوية طبيعية في الدروس الدينية وعقلنة سير الدروس والمحاضرات من خلال وضع برامج وصفوف وساعات ثابتة وأوقات محددة، على غرار المدارس الحديثة والجامعات. فنظام الحوزة يستند على مبدأ الحرية التامة للطلاب في اختيار أستاذهم وعلى الصلة التي تربط الأستاذ بتلميذه. وبالتالي فإن أي تنظيم مدني وفق نموذج المدارس المدنية الحديثة سيكون على تعارض مع مباديء الطريقة أو المنهج الحوزوي، لذلك واجه إصلاح الحوزة مقاومة كبيرة من قبل أوساط رجال الدين العاملين فيها، ومايزال بعض العلماء يذكرون بنوع من الحنين تلك

المبادىء الحوزوية القديمة التي كانت بمثابة الضمانات لإعداد وتأهيل حقيقي للنخبة الدينية التي قدمت لنا كبار المراجع في التاريخ. هناك مبدأ آخر جوهري وهو استقلالية الحوزة، التي يعتقدون أنها ستهدد بأي عملية إصلاح تتجه باتجاه التنظيم السائد في المدارس وبيروقراطيتها. التاريخ الحديث يقدم لنا مثال ملفت للنظر ألا وهو كلية الفقه التي تأسست في النجف سنة 1958. وبعد سنوات من التردد بسبب معارضة زملائهم، افتتح علماء دين إصلاحيين، وعلى رأسهم محمد رضا المظفر، هذه الكلية التي كان تنظيمها على غرار المؤسسات التعليمية الحديثة. ولقد اعترفت بها الدولة رسمياً وألحقت بالجامعة العراقية، ولقد أغلقتها الحكومة العراقية إبان اضطرابات وانتفاضة عام 1991. ومايزال الشيعة يتأرجحون بين ضرورة التحديث والتمسك بمرونة النظام الكلاسيكي التقليدي المستند على سلطة المرجع.

نفس الشيء حصل مع محاولات إصلاح المرجعية.فهذه المؤسسة في حالة تطور مستمر نظراً لحداثة عمرها، وهي موضوع نقاشات وسجالات عديدةبين العلماء ورجال الدين الكبار ويتركز النقاش حول شخصية المرجع وكاريزميته أو جاذبيته الشخصية، وبما أن المرجع لايمكن أن يؤدي مهمات إدارية بنفسه فإنه يفوض أقربائه، وبالأخص أبنائه، وأصهاره، للاهتمام بها والاضطلاع بمهام الاستثمارات المالية أو إدارة شؤون مؤسسات المرجعية. أي تجري الأمور على أساس نظام أبوي غير رسمي. ولقد طرحت فكرة إصلاح المرجعية في مناسبات عديدة بغية تنظيمها وعقلتنها على نحو أفضل. فمن جهة كان المقصود هو مراجعة كيفية تعيين المرجع

بغية صياغتها نظرياً وإقامة إدارة جماعية، ومن جهة أخرى، إنشاء بنية من شأنها الحفاظ على ديمومة المؤسسة المرجعية خاصة بعد وفاة المرجع بعبارة أخرى السماح بسيرورة روتينية، إلا أن تلك المحاولات كانت بلا جدوىفالشيعة ليسوا مستعدين ليمتلكوا مؤسستهم المرجعية التي يمكن مقارنتها بمؤسسة الفاتيكان مع زعيم أو مرجع أعلى منتخب ومراتبية هرمية. فحتى لو كان النموذج مغرياً للبعض. هناك نواة للمراتبية ظهرت في إيران خاصة بعد تحويل العناوين الشرفية مثل حجة الإسلام وآية الله إلى مراتب ودرجات معرفية لكنها ما تزال جنينية وغامضة وغير واضحة. فالسلطة الدينية الشيعية توجد في الفوضى المنظمة على حد تعبير رجال الدين وطلاب الحوزة. وهذا لا يعني أنها فالتة وغير مسيطر عليها. فإذا كانت المرجعية تخضع لقواعد مكتوبة أولية منشورة في عدد من المؤلفات، فهي تخضع ايضاً لاستعمالات وعادات مألوفة وقواعد أخلاقية ضمنية نوعاً ما تناقش في دوائر مغلقة لرجال الدين الكبار، فعلى سبيل المثال إذا منح أحد أبناء المراجع لنفسه حيز مبالغ به من الحريات أو احتكار وظائف أو صلاحيات تأتيه من أبيه المرجع، يجري التذكير بأن المرجعية لا تورث وإن المؤسسات التي يخلقها المرجع لا تعود لأقاربه وأبنائه حتى لو كانوا هم الذين يديرونها بل تعود تبعيتها وملكيتها للمرجع اللاحق للمرجع الذي أسسها. فالنقاش العقائدي والنقد الذاتي لهيئة العلماء تسمح بتنظيم وتقويم المرجعية وتترك الباب مفتوحاً لأي تغيير لنظام يكون مرناً وقابل للتطور والتغيير.

الخاتمة

ها قد وصلنا لنهاية هذه النصوص المختارة من كتابات فرنسية عن الشيعة والتشيع لإعطاء فكرة مختصرة عن نمط التفكير الغربي بما يدور في الشرق من أفكار وصراعات فكرية وسياسية ودينية ومذهبية.

لقد بزغت فكرة هذا الكتاب الصغير إثر مشاهدتي لمقابلة مع صحافي فرنسي مستعرب أو يتحدث العربية بطريقة مقبولة، استضافته إحدى القنوات التلفزيونية الفرنسية للتعليق على أحداث العراق وداعش وطقوس عاشوراء التي يقوم بها الشيعة سنويا لإحياء استشهاد الإمام الشيعي الثالث الحسين بن علي بن أب طالب. وما صدمني هو أن هذا الذي قدم باعتباره خبير بالعالم الإسلامي ومتخصص بالشؤون الشيعية لا يفرق بين فاطمة وزينب و لا يعرف من هن بنات النبي وزوجاته وأبناء علي بن أبي طالب من غير فاطمة بل لم يفلح حتى بأن يوضح على نحو سليم معنى الإمامة والإمام عند الشيعة، بمختلف فرقهم، وما الفرق بين السنة والشيعة بخصوص هذا المفهوم المهم.

استثمرت علاقاتي الخاصة المباشرة، وبعضها حميمية، مع بعض المثقفين الفرنسيين الذين لا تسلط وسائل الإعلام عليهم

عادة الأضواء إلا نادراً، ومن بينهم أساتذة جامعات، وباحثين متفرغين يعملون في المركز الوطني للبحوث العلمية،وكتاب مرموقين، لسبر مدى اطلاعهم ومعرفتهم بالمسألة الشيعية، ومن ثم اختيار بعض النصوص لتشكل مادة هذا الكتاب.

ما لفت انتباهي أن هناك بون شاسع بين المسترقين القدماء من أمثال هنري كوربان المتميزين بعمق أبحاثهم وجدية وصرامة كتاباتهم وعلميتها في هذا المجال، وبين هؤلاء الجدد المتعاطين مع الشأن الإسلامي والذين اتضح أنهم يجهلون كثير من النواحي الجوهرية في القضية الشيعية، خاصة الجانب الفلسفي العميق والجانب العرفاني، الذي تركه لنا أعلام الفكر الشيعي من أمثال ملا صدرا الشيرازي، وملا محسن فيض الكاشاني،وميرداماد، وغيرهم، ولم يكن هؤلاء «الخبراء» متعمقين في أسباب الصراع وتطوره في الفكر الشيعي خاصة بين المدرسة الإخبارية والمدرسة الأصولية، ولا توجد لديهم معرفة كافية بكيفية نشوء المدرسة الشيخية وخصائصها وكيف تفرعت عنها المدرسة البابية التي تحولت الى فرقة شيعية متطرفة ومغالية مثلها مثل البهائية التي خرجت من رحمها وذهبت الى ابعد منها في التأويل الباطني. كما لاحظت أن لديهم إلمام سطحي ساذج عن الولاية الشيعية كمفهوم عقائدي جوهري لأنه يعتبر عن الشيعةبمثابة الركن الرابع من الأركان الرئيسية الخمسة في الإسلام كما يعلنها الشيعة الإثني عشرية وهي التوحيد، والنبوة، والمعاد، والإمامة، والعدل. وعاجزين عن صياغة تفسير أو شرح لماهية وطبيعة السلطة الدينية المرتبطة بالولاية، في حين كانت هذه المسألة إحدى أهم وأخطر مواضيع

الخلاف الشيعي ـ الشيعي، الإخباري/ الأصولي، وإنتصار العقل على الحدس، حيث كان الإخباريون يعارضون مأسسة الإجتهاد أو الفقه المستقل عن النص، وكما هو معروف لدى أبسط مؤمن شيعي أن الأصوليين منحوا للمرجع دوراً أساسياً شرحه لنا المرجع الشهيد محمد باقر الصدر في حديثه عن المرجعية الموضوعية والتي ملخصها أن البشر، في كل الأزمنة والأماكن، بحاجة دائماً،بوصفهم خلفاء الله في الأرض، إلى نوع من «التدخل» الإلهي، الإشرافي أو التوجيهي، لحمايتهم من الضلال والانحراف، وإرشادهم إلى الله لمعرفة الغاية الحقيقية من استخلافهم وإلا سيكونون عرضة أو فريسة لتأثير الغرائز الحيوانية والعواطف، لذلك اختار الله أن يكون هناك دائماً «شاهد» يتحمل مسؤولية نقل التعاليم الإلهية الناصعة الأصيلة إلى البشر، وهذا الشاهد لا بد أن يكون مختار ومنصوص عليه من الله ومعصوم عن الخطأ، وبالتالي ربما يكون نبياً أو رسولاً أو إماماً، بيد أن الله ارتأى اختتام النبوة بمحمد لكنه لم يختتم الولاية التي بدأت بمحمد نفسه فانتقلت الى علي وابنائه واحفاده ونسله لغاية الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر الذي سيكون هو خاتم الولاية في نهاية الزمان. ولقد لمست من أحاديثي مع أغلبهم وقراءة مؤلفاتهم المتخصصة، أنه لايقرأون مفهوم الولاية من هذه الزاوية و لا توجد لديهم مقاربة عميقة للربط بين الرسالة والولاية والإمامة لذلك جاءت مطارحاتهم للموضوع خاوية ومختزلة تقتصر على الجانب السياسي الدنيوي لمفهوم السلطة والقيادة.

أما موضوع المرجعية فيشكل بالنسبة لهم متاهة حقيقية فلا

يعرفون من المراجع سوى من تسلط وسائل الإعلام عليهم الأضواء ويتمتعون ببعض الشهرة كالإمام الخميني والمرجع الأعلى علي السيستاني ومحمد حسين فضل الله. وهم لا يعرفون، على سبيل المثال لا الحصر، عن فضل الله سوى أنه رجل دين خطير ومطلوب دولياً لأنه أفتى بحلية الإرهاب كما يعتقدون، والسماح بممارسة أعمال العنف، وبأنه المرشد الروحي لمنظمة إرهابية في نظرهم هي حزب الله اللبناني،ولم يمعنوا أو يتعمقوا أو حتى يطلعوا على كتاباته وأبحاثه وآرائه الفقهية وفتاويه ومواقفه الإنسانية وآرائه الثورية، خاصة فيما يتعلق بالمرأة وبانجازات العلم الحديث والموقف منها. ولم يركزوا على جرأته ومخالفته لمعاصريه التقليديين وحتى السابقين من كبار المراجع الكلاسيكيين، مثل موقفه من قصة كسر ضلع الزهراء بنت النبي وزوجة علي بن أبي طالب وأم الحسنين على يد عمر بن الخطاب الذي دفعها بقوة وهي واقفة وراء الباب فكسر ضلها وسقط حملها حيث اعتبر محمد حسين فضل الله هذه القصة مجرد أسطورة واستفاض في شرحها واسناد رأيه بالنصوص والشواهد التاريخية والتحليل العقلي والمنطقي للحدث. وكذلك لم يعرفوا شيئاً عن تركيزه على ضرورة تطهير وتنقية الآراء الفقهية والمباديء الدينية والنصوص والأحاديث الملفقة وتخليصها من التأثيرات والموروثات الشعبية الساذجة. فكل ما يعرفونه عن المرجعية الشيعية هو أنها مؤسسة تشبه الفاتيكان وهي جامدة ومتشددة. ولم ينتبهوا إلا مؤخراً أن هذه المؤسسة الحيوية كانت منذ وقت طويل محور اهتمام الإصلاحيين والمفكرين من رجال الدين المتنورين المحتكين بالأفكار والآيديولوجيات والفلسفات

المغايرة، ثم تنامى هذا الاهتمام في ستينات القرن المنصرم تزامناً مع تطورات المجتمع الإسلامي وتاثره بالأفكار الوافدة دينياً وفكرياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً، كما اشار الى ذلك بدقة وعمق المرجع الشهيد محمد باقر الصدر، والمجتهد الشهيد مرتضى مطهري، والراحل محمد حسين فضل الله، حيث اساتنج هؤلاء الإصلاحيين أن إصلاح المجتمع الشيعي وتطويره ليوائم مع متطلبات العصر الحديث، يقع على عاتق المرجعية بعد تطويرها وإصلاحها من الداخل، وهو أمر لن يكون بمقدور المرجعية تحقيقه بدون عملية إصلاح جوهرية وصميمية، لكي تستجيب وتتفاعل مع المستجدات المتسارعة في العالم المعاصر لما تفرضه على المجتمع الإسلامي من تحديات.

بعض المراجع المهمة

حول موضوع الشيعة والتشيع باللغة الفرنسية

Bibliographie du chiisme

Al-Ya'qûbi: Târikh tome 2, p.114.
TAHA HUSSAIN : El-Fitnat-ul-Kubrâ tome 2, p.90.
Khutât al-Châm (imprimé à Beyrout) tome 6, p. 246.
Dk.Haykal, La Vie de Muhammad, p.136.
Khârazmi Hanafi: Manâqib, p.66; Suleymân Hanafi: Yanâbi'ul Mawadda, p.56.
al-Murddjiâle(imprimé A Caire), p.10 avant-propos.

Bibliographie

L'Islam chi'ite : croyances et idéologies L'Islam chi'ite : croyances et idéologies
Yann Richard
Paris, Fayard, 1991
Sunnites Chiites Pourquoi ils s'entretuent ?
2008 éditions de Seuil
Martine Gozlan
Leçon 11: Le Chiisme à travers L'Histoire
La Question Irakienne
Pierre Jean Luizar
Edition Fayard octobre 2002
Islam: Pourquoi le sunnisme et le chiisme s'opposent-ils
depuis 1500 ans?

L'ayatollah chiite Sayyed Mohammad Hussein Fadlallah
Un Clerc defi les comportements stéréotypés et la perception de l'Occident sur les chiites
Par Leela JACINTO
Les Chiites Les Chiites
Geneviève Gobillot
Fils d'Abraham
Brépols, 1998

Henri LAOUST, Les schismes dans l'islam, Payot

H. CORBIN, En islam iranien, Aspects spirituels et philosophiques, I, Le shî'isme duodécimain, Gallimard, Paris, 1971

H. CORBIN, En islam Iranien, aspects spirituels et philosophiques, II, Sohravardî rt les platonicien de Perse, Gallimard, 1971

H CORBIN, En Islam iranien, Aspects philosophiques et religieux, III Les fidèles d'amour, Chiisme et soufisme, Paris, Gallimard, 1991

H. CORBIN, En Islam Iranien, Aspects spirituels et philosophiques, IV, L'école d'Ispahan, L'école shaykhie, Le douzième imam, Gallimard, Paris, 1991

H CORBIN, Temple et contemplation, Essais sur l'islam iranien, Paris, Flammarion,1980

H. CORBIN, L'imagination créatrice dans le soufisme d'Ibn 'Arabî; Flammarion, Paris, 1977

H. CORBIN, Face de Dieu, Face de l'homme, Herméneutique et soufisme, Flammarion, Paris, 1983

Duodécimains Septimans - Druzes- Alaouites- Sohravardi- Baha'isme-

- Heinz Halm, Le chiisme, PUF, 1995
- Geneviève Gobillot, Les chiites, ed. Brepols, 1998
- Mohammed-Ali Ami Moezzi et Christian Jambet, Qu'est-ce que le shî'isme ? , Fayard, 2004

L'islam des partisans d'Ali : le chiisme
Jean-Paul Roux
Mars 2001

L'Islam chi'ite : croyances et idéologies L'Islam chi'ite : croyances et idéologies
Yann Richard
Paris, Fayard, 1991

Les Chiites Les Chiites
Geneviève Gobillot
Fils d'Abraham
Brépols, 1998
En savoir plus sur http://www.lemonde.fr/proche-orient/article/2012/08/21/pourquoi-l-opposition-chiites-sunnites-structure-la-geopolitique-du-monde-musulman_1748286_3218.html#bJF3cMwUHS8lvmKU.99
Quelles sont les différences entre sunnites et chiites ?
Le Monde.fr | 20.06.2014 à 18h10 • Mis à jour le 22.06.2014 à 12h49 | Par Maxime Vaudano

Islam : pourquoi les sunnites et les chiites s'entretuent
Le Point - Publié le 19/03/2013 à 20:01 - Modifié le 04/11/2014 à 17:11

Par ARMIN AREFI

À la une du Point.fr

(11) Cf. les articles de l'Encyclopédie de l'islam (2e éd.): «Mardja'i taklîd», «Mudjtahid». (12) Cf. COLE, 1985.

(13) COLE, 1983 ; KAZEMI MOUSSAVI, 1985.

ABDUL-JABAR Faleh, Ayatollahs, Sufis and Ideologues. State, Religion and Social Movements in Iraq, Londres, Saqi Books, 2002.

AL-AMÎN Muhsin, Sîratuhu bi-qalamihi wa aqlâm âkharîn, (textes réunis par Hasan al-Amîn), s. l., 1983.

AMIR-MOEZZI Mohammad Ali, Le Guide divin dans le Shi'isme originel. Aux sources de l'ésotérisme en islam, Paris, Verdier, 1992.

AMIR-MOEZZI Mohammad Ali, «Réflexion sur une évolution du shi'isme duodécimain : tradition et idéologisation», in Évelyne PATLAGEAN, Alain LE BOULLUEC, éds., Les retours aux écritures, Louvain-Paris, Peeters, 1993, pp. 63-82.

AMIR-MOEZZI Mohammad Ali, « Remarques sur les critères d'authenticité du hadîth et l'autorité du juriste dans le shi'isme imâmite », Studia Islamica, 85/1, février 1997, pp. 5-39.

CALDER Norman, «Accommodation and Revolution in Imami Shi'i Jurisprudence: Khumayni and the Classical Tradition», Middle Eastern Studies, 18/1, janvier 1982, pp. 3-20.

COLE Juan R., «Imami Jurisprudence and the Role of the Ulama: Mortaza Ansari on Emulating the Supreme Exemplar», in Nikki KEDDIE, ed., Religion and Politics in Iran. Shi'ism from Quietism to Revolution, New Haven-Londres, Yale University Press, 1983, pp. 33-46.

COLE Juan R., «Shi'i Clerics in Iraq and Iran, 1722-1780: The Akhbari-Usuli Conflict Reconsidered», Iranian Studies, 18/1, hiver 1985, pp. 18-23.

El AYADI Mohammed, «Abdessalam Yassine ou le poids des paradigmes dans le parcours d'un nouveau clerc», Parcours d'intellectuels maghrébins, Paris, Karthala, 1999, pp. 129-163.

AL-HASANÎ Salîm, al-Ma'âlim al-jadîda li-l-marja'iyya al-shî'iyya. Dirâsa wa hiwâr ma'a âyat Allâh al-sayyid Muhammad Husayn Fadl Allâh, Beyrouth, Dâr al-Malâk, 1993.

KAZEMI MOUSSAVI Ahmad, «The Establishment of the Position of marja'iyyat-i Taqlid in the Twelver-Shi'i Community», Iranian Studies, 28/1, 1985, pp. 35-51.

KEDDIE Nikki R., Religion and Rebellion in Iran: The Tobacco Protest of 1891-1892, Londres, Frank Cass, 1966.

KEDDIE Nikki R., An Islamic Response to Imperialism: Political and Religious Writings of Sayyid Jamâl Ad-Dîn «Al-Afghânî», Los Angeles, University of California Press, 1968.

KEDDIE Nikki R., Sayyid Jamâl Ad-Dîn «Al-Afghanî»: A Political Biography, Berkeley-Los Angeles-Londres, University of California Press, 1972.

KHURI Fuad, «The Ulama: A Comparative Study of Sunni and Shi'a Religious Officials», Middle Easten Studies, vol. 23, no 3, juillet 1987, pp. 291-312.

KHURI Fuad, Imams and Emirs, State, Religion and Sects in Islam, Londres, Saqi Books, 1990. LAOUST Henri, Essai sur les doctrines sociales et politiques de Takî-d-Dîn Ahmad b. Taimîya, Le Caire, IFAO, 1939.

LAMBTON Ann K. S., «A Reconsideration of the Position of the marja' al-taqlîd and the Religious Institution», Studia Islamica, 20, 1964, pp. 115-135.

LAMBTON Ann K. S., «The Tobacco Regie: Prelude to Revolution», Studia Islamica, XXII, 1965, pp. 119-157 et XXIII, pp. 71-90.

LAMBTON Ann K. S., «A Nineteenth Century View of Jihâd», Studia Islamica, 32, 1970, pp. 181-192.
LITVAK Meir, Shi'i Scholars of Nineteenth-Century Iraq: The «Ulama» of Najaf and Karbala', Cambridge, Cambridge University Press, 1998.

MADELUNG Wilferd, Religious Schools and Sects in Medieval Islam, Londres, Variorum Reprints, 1985.

MARTIN Pierre, «La direction religieuse chiite dans une zone de turbulences», Peuples Méditerranéens, Statégies II, no 64-65, juillet-décembre 1993, pp. 241-264.

MERVIN Sabrina, «La quête du savoir à Najaf. Les études religieuses chez les chi'ites imâmites de la fin du XIXe siècle à 1960», Studia Islamica, 81, 1995, pp. 165-185.

MERVIN Sabrina, Un réformisme chiite. Ulémas et lettrés du Gabal Amil (actuel Liban-Sud) de la fin de l'Empire ottoman à l'indépendance du Liban, Karthala-CERMOC-IFEAD, Paris 2000.

MERVIN Sabrina, «Les yeux de Mûsâ al-Sadr», in Catherine MAYEUR, dir., Saints et héros du Moyen-Orient contemporain, Paris, Maisonneuve et Larose, 2002, pp. 285-300.

MERVIN Sabrina, «La hawza à l'épreuve du siècle : la réforme de l'enseignement religieux supérieur chiite de 1909 à nos jours», in Maher AL-CHARIF, Salam KAWAKIBI, Le courant réformiste musulman et sa réception dans les sociétés arabes, PIFD 208, Damas, IFPO, 2004, pp. 69-84.

MODARRESSI Hossein, «Rationalism and Traditionalism in Shî'î Jurisprudence : A Preliminary Survey», Studia Islamica, LIX, 1984, pp. 141-158.

MOMEN Moojan, An Introduction to Shi'i Islam, New Haven-Londres, Yale University Press, 1985. RA'ÛF 'Âdil, Muhammad Muhammad Sâdiq al-Sadr, marja'iyyat

al-maydân, mashrû'uhu al-taghyyurî wa waqâ'i' al-ightiyâl, Damas, al-markaz al-'iraqî li-l-i'lâm wa al-dirâsât, 1999.

RICHARD Yann, «Le rôle du clergé : tendances contradictoires du chi'isme iranien contemporain», Archives des sciences sociales des religions, 55/1, 1983, pp. 5-27.

SACHEDINA Abdulaziz, The Just Ruler in Shi'ite Islam. The Comprehensive Authority of the Jurist in Imamite Jurisprudence, New York, Oxford University Press, 1988.

AL-SHÂKHÛRÎ al-Bahrânî, Ja'far, marja'iyyat al-marhala wa ghubâr al-taghyîr, Beyrouth, Dâr al-amîr/Dâr al-rasûl al-akram, 1998.

STEWART Devin J., «The portrayal of en Academic Rivalry. Najaf and Qom in the Writings and Speeches of Khomeini, 1964-1978», in Linda WALBRIDGE, ed., The Most Learned of the Shi'a. The Institution of the marja' Taqlid, New York, Oxford University Press, 2001, pp. 216-229.

WALBRIDGE, Linda, «The Counterreformation. Becoming a marja' in the Modern world», in Linda WALBRIDGE, ed., The Most Learned of the Shi'a. The Institution of the marja' Taqlid, Oxford, Oxford University Press, 2001, pp. 230-246.

ZAMAN, Muhammad Qasim, The Ulama in Contemporary Islam. Custodians of change, Princeton, Princeton University Press, 2002.

ZEGHAL Malika, «État et marché des biens religieux en Islam», Critique internationale, no 5, automne 1999, pp. 75-95.

ZEGHAL Malika, «Religion and Politics in Egypt: the ulema of al-Azhar, radical islam and the State (1952-1994)», IJMES, 31, 1999, pp. 371-399.

نبذة عن المؤلف

سيرة ذاتية

د. جواد بشارة - سيرة ذاتية

الإسم: جواد JAWAD

الكنية: بشارة BASHARA

مكان وتاريخ الولادة: بابل - العراق - 1955

الجنسية الحالية: مزدوج الجنسية: عراقية وفرنسية

العنوان:

La défence 92800 puteaux , 4 avenue Gutenberg
9095332661: portable: 0614420465
E-mail: jawadbashara@yahoo.fr

المؤهلات العلمية:

- بكالوريا علمي من الثانوية المركزية في بابل سنة 1974.
- ليسانس علوم سينمائية وإعلامية من جامعة باريس 1977.
- ماجستير في الإخراج السينمائي من جامعة باريس 1978.
- دبلوم دراسات معمقة من جامعة باريس الأولى السوربون في النشاطات الإعلامية والسمعية البصرية 1980.
- دكتوراة الحلقة الثالثة في السينما من جامعة باريس الأولى سنة 1982 عنوان الأطروحة «نحو نظرية جديدة في اللغة السينمائية من منظور السيميولوجيا - نظرية الإشارات والرموز أو النظرية الدلالية».
- دكتوراه دولة في الأدب الفرنسي وعلاقته بوسائل الإعلام من جامعة باريس الأولى 1983 عنوان الأطروحة «البنى السردية في روايات وأفلام مارغريت دوراس».

الخبرة المهنية والعملية:

- أسس شركة للإنتاج السينمائي والنشاطات الإعلامية بإسم «أفلام عشتار ASHTAR FILMS» انتجت بعض الأفلام القصيرة ونظمت دورات سينمائية للشباب.

- أسس دار للنشر بإسم بابلونيا «EDITIONSBABYLONIA» ساهمت في نشر وإخراج وطباعة العديد من الكتب الفرنسية.

- خبرة عملية وتقنية في الطباعة والعمل على الكومبيوتر MAC ماكنتوش وPC منذ سنة 1988 على مختلف البرامج العربية والأجنبية.

- ممارسة العمل الصحفي والإعلامي والنقد السينمائي وكتابة الأبحاث والدراسات السينمائية والفنية المنشورة في مختلف المجلات المتخصصة بالفن السينمائي والمسرحي منذ سنة 1967 بصفة محلل وصحافي وإعلامي سياسي واقتصادي واستراتيجي وثقافي في العديد من الصحف الفرنسية ومحرر لدى مجلة دراسات شرقية الصادرة في باريس منذ عام 1986 إلى الآن.

- خبرة واسعة في الإعلام الفرنسي والدولي والعلاقات العامة في المؤسسات الإعلامية الفرنسية.

- مراسل في باريس لإذاعة أوروبا الحرة 2000-2001.

- نشر مايزيد عن خمسة آلاف دراسة وبحث ومقالة بين تأليف وترجمة في مختلف المجالات الفنية والأدبية والاقتصادية والسياسية والاستراتيجية والعسكرية في مختلف الصحف والمجلات العربية والأجنبية.

- العمل في الدائرة الصحفية للسفارة اليمنية من سنة 1980 إلى سنة 1992 في ترجمة وإعداد ودراسة وتحليل النشاطات الإعلامية على الساحة الفرنسية والعالمية وخاصة فيما يتعلق بالشرق الأوسط والعالمين العربي والإسلامي وكتابة التقارير الدبلوماسية التحليلية في كل أسبوع مع ترجمات مختصرة أو كاملة لما يكتب في الصحافة الفرنسية والعالمية.

- مراسل في فرنسا لعدة مجلات وصحف عربية مثل «المدى» و«النهج» و«النور» و«الدفاع الخليجي» و«الموقف» و«الحياة السينمائية» و«نزوى» و«مجلة المجلة» الخ...

- تعاون مع بعض المجلات والصحف الفرنسية في الكتابة والترجمة مثل مجلة «مشرق - مغرب» الصادرة عن مركز الوثائق الفرنسي «ولوموند دبلوماتيك» و«كورييه انترناسيونال» ومساهمات في ترجمة النص العربي لصحيفة لوموند ديبلوماتيك.

- إجراء المئات من المقابلات مع مختلف الشخصيات العالمية وفي مختلف الاختصاصات التي نشرت في مختلف وسائل الإعلام.

- عرض وقراءة ونقد وتعليق على مئات الكتب الصادرة باللغات الفرنسية والإنجليزية والعربية.

- التعاون مع مركز الدراسات العربي الأوروبي بباريس منذ تأسيسه سنة 1992 من خلال الترجمات والكتابة في مجلته «الملف العربي - الأوروبي» ومن ثم العمل فيه كموظف منذ سنة 1997 إلى 2001، وكتابة العديد من الدراسات والأبحاث والتقارير للمركز والإشراف الفني من ترجمة وإعادة صياغة وطباعة وإخراج وتحرير لجميع المداخلات التي ألقيت في مؤتمرات مركز الدراسات العربي - الأوروبي التسعة منذ سنة 1992 وصدرت في كتب عن منشورات المركز.

- نظم وأدار أربع دورات تدريبية سينمائية للأطفال والشباب بين 8 إلى 18 عاماً تمخضت عن إخراج وتنفيذ أربعة أفلام سينمائية روائية قصيرة مقاس 8 مللم و 16 مللم و 35 مللم عرضت في التلفزيون الفرنسي وفي بعض دور العرض والنوادي السينمائية.

آخر المواقع الوظيفية والمسؤوليات:

- مديرعام للإعلام في وزارة الثقافة العراقية 2003-2005.

- ومستشار لوزير الثقافة للشؤون الفنية.

- مراسل لصحيفة المدى العراقية في باريس وكاتب صحفي ومستشار إعلامي في عدد من الصحف والمواقع الإعلامية المكتوبة والمرئية والانترنيت مثل إيلاف والحوار المتمدن والأخبار وغيرها وقناة فرنسا 24 الفرنسية الفضائية باللغتين الفرنسية والعربية وإذاعة فرنسا الدولية وإذاعة مونت كارلو وإذاعة الشمس وغيرها 2005-2010.

المؤلفات:

- كتاب «نقد العقل اليهودي الغربي» باللغة الفرنسية صدر عن دار المدى سنة 1992.
- كتاب «إيران تحديات العقيدة والثورة» صدر عن مركز الدراسات العربية الأوروبي سنة 1999.
- كتاب «السياسة السينمائية في العراق من سنة 1940 إلى 1990» دارالمدى سنة 2000.
- المشاركة في كتاب «ثلاثين عاماً على السينما التجريبية في فرنسا لدومينيك نوغيز» سنة 1988.
- الكون أصله ومصيره 2011.
- الكون الحي بين الفيزياء والميتافيزياء 2012.
- الكون المطلق بين اللامتناهي في الصغر واللامتناهي في الكبير 2013.

الكتب المترجمة:

- «المحرقة تحت المجهر ليورغن غراف» نشر في دار المدى 1994.
- الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلة لروجيه غارودي دار عطية 1997.
- محاكمة الحرية لروجيه غارودي دار نشر البراق 2002.
- المستقبل برنامج عمل لروجيه غارودي دار نشر البراق 2002.
- مذكرات روجيه غارودي دار نشر البراق 2002.
- العنصرية كما شرحتها لإبنتي للطاهر بن جلون 2001.
- دروس في الإخراج السينمائي سيرغي آيزنشتين وزارة الثقافة سوريا 2002.

كتب تحت الطبع:

- «إيران من الثورة إلى الدولة» 2002.
- «الإسلام المغاير أو الوجه الآخر للإسلام» باللغة الفرنسية دار نشر البراق 2002.
- «العراق تحت الحصار» دار الفجر الجديد لندن 2002.

- «رؤية غربية للإسلام في وسائل الإعلام الغربية».
- «المعالجة الإعلامية الغربية للإرهاب لتشويه صورة العرب والمسلمين».
- «محاضرات في الإخراج السينمائي لآزينشتين» وزارة الثقافة السورية 2002.

اللغات:

- العربية والفرنسية والإنجليزية قراءة وكتابة.

الهوايات:

- المطالعة والسفر

البريد الالكتروني:

jawadbashara@yahoo.fr
basharajawad@gmail.com

الموقع الفرعي للكاتب في الحوار المتمدن:

http://www.ahewar.org/m.asp?i=13



دار ميزوبوتاميا

للطبع للنشر والتوزيع

الرحيل الى ميزوبوتاميا	امل بورتر
العراق ما بين الحربين - رسائل ضابط انكليزي	امل بورتر
العراق المعاصر برؤى أجنبية	ترجمة : د. محمود أحمد القيسي
ثورة وزعيم	د. عبد الخالق حسين
الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق	د. عبد الخالق حسين
أشجان وأوزان الهوية العراقية	د. ميثم الجنابي
التوليتارية العراقية	د. ميثم الجنابي
الحركة الصدرية ولغز المستقبل	د. ميثم الجنابي
فلسفة الثقافة البديلة في العراق	د. ميثم الجنابي
فلسفة الهوية العراقية	د. ميثم الجنابي
العراق - حوار البدائل	د. ميثم الجنابي - حاوره مازن لطيف
الصحافة الرسمية في العراق ما قبل جريدة الوقائع العراقية	سالم الالوسي
الطاغية والطغيان في العراق	شامل عبد القادر
رحلة يوسف رزق الله غنيمة الى ايران	طارق الحمداني
بغداد تبوح باسرارها	عباس عبود
بغداد ذلك الزمان	عزيز الحاج
صحائف بغداد	فؤاد طه
مثقفون عراقيون	مازن لطيف
محاولة في فهم شخصية الفرد العراقي	محمد مبارك
الان والغد	مهدي الحافظ
العراق.. نبؤات الامل	مهدي الحافظ
نصوص بغدادية نادرة	د. طارق نافع الحمداني
فيصل ملك العراق	مز ستورث أرسكين
شارع الرشيد في الذاكرة العراقية	سالم الالوسي

حكاية من بغداد .... اثيل ستيفانا درور

بغداد في عهد الخلافة العباسية .... غي ليسترنج

تقويم العراق .... رفائيل بطي

وزراء بغداد .... طارق حرب

التحضر في المجتمع العراقي .... منى العينة جي

لطيف العاني.. مصور من العراق .... لطيف العاني

سحر الحقيقة/شخصيات وكتب ودراسات في التراث الشعبي .. باسم عبد الحميد حمودي

بغداد في عصر الخلافة العباسية .... (ليسترنج)

تأسيس بغداد.. الفلسفة والرموز .... زهير الهواري

فيصل الثاني .. ملك العراق .... علي ابو الطحين

مشكلة الشيعة في العهد العثماني .... مجوعة باحثين

الناصرية .... عبد مهلهل

شروكية .... شوقي كريم

البقرة التي اكلت صورة السيد الرئيس .... منير العبيدي

الهورلا .... فالح عبد الجبار

الامام علي - القوة والمثال ....د. ميثم الجنابي

هادي العلوي.. المثقف المتمرد 3 (طبعات) ....د. ميثم الجنابي

محمد مكية : رائد العمارة العراقية ....علي ثويني

محطات في فكر وحياة هادي العلوي ....مازن لطيف

مير بصري .. سيرة وتراث ....فاتن محيي محسن

الاب انستاس الكرملي ....كريم عبد الحسين فرج

معاوية الثاني والتشيع في البلاط الاموي ....محسن خزعل المحسن

الجواهري بلسانه ويقلمي .... سليم البصون

استذكارات فنية .... قحطان جاسم جواد

أنور شاؤل.. الريادة في الادب والصحافة .... محمد جبير

عامر عبد الله... النار ومرارة الامل .... عبد الحسين شعبان

رجال وتاريخ .... حميد السعدون

الثقافة القانونية للمهندسين والمقاولين .... د. حميد لطيف الدليمي

منهجية البحوث العلمية ....د. حميد لطيف الدليمي

التثقيف الصحي والبيئي .... علي اسماعيل الجاف

في الاحوال والاهوال .... فالح عبد الجبار

أثر التنشئة الجتماعية في البناء الديمقراطي .... عقيلة عبد الحسين الدهان

طبيعة العلامة السميائية وسيمياء النص الادبي.......اخلاص محمد عيدان-صلاح كاظم هادي

السخرية في البرامج التلفزيونية .... ضياء مصطفى

استعادة ماركس .... سعد محمد رحيم

مفهوم الاخلاق عند ابي حيان التوحيدي ....محمد مخلف الدليمي

حكمة الروح الصوفي .... ميثم الجنابي

كتاب الجيب للمحكومين بالاعدام .... خضر ميري

تجارب دنماركية .... ضياء حميو

عن الثورة واليسار .... عصام الخفاجي

إشكالية الدولة .... علي حسن الفواز

اليسار الصعب .... كاظم حبيب

الثورة العربية والمستقبل .... د. ميثم الجنابي

الفوضى الامريكية. .... د. حميد السعدون

أزمة الاسلام .... برناد لويس

الماسونية .... عبد الكريم الزهيري

الحياة والموت... قلق دائم الوجود .... عبد الكريم الزهيري

اسلمك نفسي .... اطياف سنيدح

فشل في ذاكرة الارقام .... عباس باني المالكي

ماتيسر من صورتها .... ماجدة الظاهري

سان جون بيرس وكافايس .... نعيم عبد مهلهل

سعادة خطرة .... روتخر كوبلاند

الصابئة المندائية .... نعيم عبد مهلهل

هيئة الدفاع عن ابتاع الديانات والمذاهب في العراق .... كاظم حبيب

يهود العراق .... مازن لطيف

التاريخ المنسي ليهود العراق ....مازن لطيف

موسوعة الاضرحة والمزارات العراقية .... مازن لطيف

الاستشراق اليهودي .... عباس سليم زيدان

دورة القمر القصيرة ليهود العراق .... مازن لطيف

المنتفض .... احمد كريم

اجمل المخلوقات رجل .... بلقيس حميد حسن

لالىء طيفها ألق .... حميد نجم الزبيدي

عن الوردة وهي تطيح بحياتي .... حيدر الحجاج

ربما ..من يدري؟ .... خزعل الماجدي

شـوغات .... خزعل الماجدي

كفوف الملائكة .... د. مهدي المانع

ثلاث مدن ، ثلاثة اسابيع في الصين .... سعدي يوسف

الاعمال الشعرية الكاملةج1 .... سلمان داود محمد

الاعمال الشعرية الكاملةج2 .... سلمان داود محمد

أسئلة طويلة مقلقة .... عبد العزيز الحيدر

قمة الهاوية .... عبد النبي الشايع

هواجس ملتبسة .... عبد النبي الشايع

غواية الساعات .... عدنان الفضلي

اوروك سليل التعب .... علي الشيال

نبي الأنوثة .... فاطمة العراقية

ذاكرة الرماد .... كاظم الواسطي

كثر الحديث .... كريم العراقي

مرثية البياض .... محمد حريب

ضماد الاسئلة .... ناظم الساعدي

الف ميل من الوجع .... ناظم رشيد

سقوف .... هادي الناصر

طريقة في الغناء (شعر) .... ريسان الخزعلي

الليالي العراقية .... دنيا ميخائيل

هوامش كحل .... حامد الراوي

خريف الأسئلة .... علي طالب

البنفسج المر .... علاء جاسب

خسارات فاتنة .... ماجد طوفان

منك وإليك .... عبد النعيم الساعدي
صحبة ليل طويل .... عزيز عبد الصاحب
رائعة ماجدولين .... نادية عزيزة
موسيقى الصباح .... رسمية محيبس
يحدث دائما .... سامي مهدي
فشل في ذاكرة الارقام .... عباس باني المالكي
نارسيس .... هدى محمد حمزة
تافحة ادم .... هدى محمد حمزة
مختارات سامي مهدي .... سامي مهدي
تاخرت القياة وبقيت وحدي .... بلقيس حميد حسن
بنت الدير .... مها الرحيم
بصراوية .... صادق التميمي
مرايات ونده .... حمود كعيد
ابو سرحان.. كرستال القصيدة الشعبية العراقية .... ريسان الخزعلي
الحاج زاير .... ريسان الخزعلي
مدخل للشعر الشعبي .... عبد الكريم هداد
عرس الماي .... كاظم غيلان
لون الليالي صعب .... كاظم غيلان
شذارت من العامي والمولد .... محمد حسين الاعرجي
عرس الماي .... كاظم غيلان
وضوح أول .... طارق ياسين
حزن منفى .... عبد الكريم هداد
ضوه بسرداب .... أدهم عادل
غنائيات وردة جمر .... ريسان الخزعلي
الهايكو السومري .... ريسان الخزعلي
شواطي الروح .... بشير العبودي
هوى ودخان .... رياض الركابي
عراق رومي شنايدر .... نعيم عبد مهلهل
غراميات شاكيرا وسلمان المنكوب .... نعيم عبد مهلهل

الجبايش .... نعيم عبد مهلهل
الناصرية .... نعيم عبد مهلهل
غابريل ماركيز يكتب عن سامراء .... نعيم عبد مهلهل
وجوه مرت.. بورتريهات عراقية .... عبد الرحمن مجيد الربيعي
اصباع السرد .... وارد بدر السالم
انطقة المحرم .... سعد محمد رحيم
الحج الى لامناشا-يوميات في شوارع بغداد .... علي شاكر العبادي
مقامات معاصرة .... زاحم جهاد مطر
روايات طفولتنا الهندية .... نعيم عبد مهلهل
النشيد الاممي لمعدان باريس .... نعيم عبد مهلهل
نبوءة متأخرة .... الفريد سمعان
الزمرد والذباب .... عبد الكريم العبيدي
بائع الضحك .... ابراهيم سبتي
العربة الخضراء .... اسماعيل شاكر
الكلب الملاك .... صفاء سالم أسكندر
الشاكرية .... كريم العراقي
وهم الطائر .... ناصر قوطي
فيروز الأحدب .... نيران العبيدي
المعدان .... وارد بدر سالم
العودة الى البيت .... وديع شامخ
المعبث .... علي الحديثي
هروب الموناليزا ط1+ط2 .... بلقيس حميد حسن
للهروب خطوة اخرى .... توفيق حنون المعموري
حكاية حب في بغداد .... اثيل ستيفانا دورو
بوصلة غضبان بن شداد .... حسن عبد الرزاق
ابواب الفردوس .... ناطق خلوصي
موت اكبر من موت .... جوتيار تمر
العودة الى جذوري الابدية .... سيف الالوسي
صبارو .... شكار المياح

الزنبقة البيضاء .... جمانة القروي

عابرحدود .... حميد الكفائي

الالهة والجواميس في مديرية الامن .... نعيم عبد مهلهل

نصف للقذيفة .... سمية الشيباني

مشرحة بغداد .... برهان شاوي

عائلة الحرب .... صلاح زنكنه

البنات الخائبات .... علي السباعي

حين يتكلم الجسد .... نشأت المندوي

كوثاريا.................................... نعيم ال مسافر

الازميل الشمع .... سعد المحمود

اعترافات زوجة رجل مهم .... ناطق خلوصي

سرير في مومباي .... طامي هراطة عباس

راحلون وذكريات .... عزيز الحاج

رحلات تمفصلية .... عزيز الحاج

مذكرات داود سمرة .... داود سمرة

حدث بين النهرين .... عزيز الحاج

غصمن مطعم بشجرة غريبة .... صلاح نيازي

نقاط الحبر الأخير(مذكرات أمير الحلو) .... أمير الحلو

سجين الشعبة الخامسة .... محمد السعدي

إنتفاضة الأهوارالمسلحة في جنوب العراق 1967 /1968 .... عبد الامير الركابي

ملامح اسلوبية في الشعر الحديث .... جاسم الخالدي

حوارات في النقد العراقي من التأثر الى الحداثة .... جاسم محمد

حفريات النص الشعري .... حمد الدوخي

سيمياء النص .... حمد الدوخي

أقنعة النص .... صفاء خلف

الثقافة العراقية - مقتربات في النقد الثقافي .... علي حسن الفواز

خطاب الحداثة - دراسة ثقافية لتجربة الشعر الحر في العراق ...... كريم شغيدل

المثقف التابع .... مازن لطيف

الطائر والنخلة/قراءة في تجربة الشاعرة حسب الشيخ جعفر ... ريسان الخزعلي

في الطريق الى الحداثة .... سامي مهدي
ذاكرة الشعر .... سامي مهدي
اصابع السرد .... وارد بدر السالم
الدروايش والمرايا .... حمد الدوخي
افاق نقدية.. قراءة في المتون وفي مناهج التحليل .... سامي مهدي
الروائيون العراقيون اليهود/دراسة في الثقافة والمتخيل والتجريب الروائي .... دخالدة حاتم
المجلات العراقية الريادية .... سامي مهدي
الف ليلة وليلة .. كتاب عراقي اصيل .... سامي مهدي
شعرية سامي مهدي .... نوار سامي مهدي
الموجة الصاخبة.. شعر الستينات في العراق .... سامي مهدي
الاخراج المسرحي في العراق .... عدنان منشد
قبل النخيل ارى الغروب(نصوص مسرحية) .... محمد السيد محسن
علم الجمال في المسرح الحديث .... ماري آن شاريونيير
الخروج الى الداخل .... حيدر الكناني
فن المسرح والانسان الحديث .... بينجي علي عزاوي
الفن التشكيلي والمدينة .... ياسين النصير
التشكيل الجميل الجمالي .... عقيل مهدي
ضياء العزاوي.. منوغرافيا .... ضياء العزاوي
فائق حسن.. الحضور الحي والبصمة الساحرة .... قاسم محسن
محمد مكية.. رائد العمارة العراقية .... علي ثويني
في رحاب مأذنة سوق الغزل .... معتز عناد غزوان
اطلس الحب البغدادي .... خضير فليح الزيدي
المسألة الشيعية... رؤية فرنسية .... مجموعة باحثين
شرفة نيتشة .... ابراهيم البهرزي
سمير نقاش... نقش عراقي في بلاد الرافدين .... مازن لطيف
مثقفون عراقيون... يهود في خدمة صاحبة الجلالة العراقية .... مازن لطيف
القيامة .... جابر السوداني
حذاري من اليأس .... قاسم حسين صالح
نهاد التكرلي.. رائد النقد الادبي في العراق .... سامي مهدي

نبتة ابليس .... احمد البياتي

كافيار .... علي حسن الفواز

اقرب الى الوضوح .... ريسان الخزعلي

خطوات على النار .... ريسان الخزعلي

امير صعاليك بغداد .... عبد المنعم حمدني

الموجة الصاخبة .... سامي مهدي

خذيني الى موتي .... زياد خداش

الادب الايراني المعاصر .... ترجمة: كامل عويد

زهايمرX .... عبد الزهرة علي

بصراوية .... صادق التميمي

الموت يأخذ الجنسية العراقية .... بهجت السعيدي

شعراء البيان الشعري .... خالد علي مصطفى

نوارس .... سامي عبد المنعم

امير النهرين .... حنان المسعودي

ليلة الاحتفاء بالحرية .... حسن العاني

اخطاء فقهاء المسلمين .... نهاد كامل محمود

الديانية المندائية .... نعيم عبد مهلهل

المرآة .... حميد العقابي

ارض وبنادق .... سعد المحمود

حامل المظلة .... لؤي حمزة عباس

استرق السمع لكي اسمعني .... رحيم الساعدي

الرجل الحديدي .... تيد هيوز

دار ميزوبوتاميا
طبع - نشر - توزيع
العراق - بغداد - شارع المتنبي
البريد الالكتروني: hamawendi@yahoo.com
Mazin24@ymail.com
Mazin774@gmail.com

La question Chiite
Vision Française

إن مذهباً يثبت نفسه من كتب مخالفيه أحق أن يتبع، وإن مذهبا يحتج عليه بما في كتبه فيلجأ للتأويل والتحوير أحق أن يتجنب عنه، هذا هو شعار الشيعة للدفاع عن أنفسهم.

يقول علماء الأصول: «الحكم على الشيء فرع عن تصوره»، بمعنى أنني لا أستطيع أن أحكم على أمر من الأمور دون أن أتصوره أو أفهمه؛ ولذلك فلا معنى للحكم على الشيعة دون أن تعرفهم، ولا معنى للإدلاء بالرأي في قضية التقريب بين السنّة والشيعة دون إدراك طبيعة كُل من الطرفين، ولا معنى كذلك لقبول أو رفض فتح باب الحديث عن الشيعة دون أن تعرف حقيقة الأمر، ودرجة خطورته، وأولويته، وعلاقته بالمتغيرات الكثيرة التي تمر بها الأمة.

الشيعة هو اسم يطلق على ثاني أكبر طائفة من المسلمين، وهم الذين عرفوا تاريخياً بـ «شيعة علي» أو «أتباع علي». وغالباً ما يشير مصطلح الشيعة إلى الشيعة الإثنا عشرية لأنها الفرقة الأكثر عدداً. يرى الشيعة أن علياً بن أبي طالب هو وأحد عشر إماماً من ولده (من زوجته فاطمة بنت النبي محمد) هم أئمة مفترضو الطاعة بالنص السماوي وهم المرجع الرئيسي للمسلمين بعد وفاة النبي (ص)، ويطلقون عليهم اسم الأئمة أو الخلفاء الذين يجب اتباعهم دون غيرهم طبقاً لأمر من النبي محمد (ص) في بعض الأحاديث مثل حديث المنزلة، وحديث الغدير، وحديث الخلفاء القرشيين الإثنا عشر، وحديث الثقلين المنقولة عن النبي محمد (ص) بنصوص مختلفة والذي يستدلون بها على غيرهم من خلال وجوده في بعض كتب بعض الطوائف الإسلامية التي تنكر الإمامة وهو كالتالي: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما».



دار ميزوبوتاميا
للطباعة والنشر والتوزيع
بغداد - شارع المتنبي